حجج القرآن

الحكمة البازغة والحجة البالغة

تأليف
الإمام عبد الحميد الفراهي
صاحب تفسير
نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان

الدائرة الحميدية

حُجَجُ القُرْآن

الحكمة البازغة والحجة البالغة

تأليف

الإمام عبد الحميد الفراهي
صاحب تفسير
نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان

الدائرة الحميدية

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

ثمن النسخة ..... ٤٠ روبية

تطلب جميع كتبنا من:

الدائرة الحميدية مدرسة الإصلاح، سرائ مير، اعظم كره، يو-بي، الهند

Published by: Dairah Hameedia Madrasatul Islah, Sarai Meer Azamgarh, U.P. (India)

Distributed by: Al-Balagh Publications, N-1, Abul Fazl Enclave, Jamia Nagar, New Delhi-110025

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، رسولنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد فإن هذا الكتاب الذي يصدر اليوم لأول مرة من أجلّ مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله، وهو جزء من مشروعه القرآني العظيم المشتمل على اثني عشر كتابا: خمسة منها في ألفاظه، وأساليبه، وأصول تأويله، ودلائل نظامه، وتاريخ جمعه وتدوينه. وسبعة منها في علومه، وهي: حكمة القرآن، وحجج القرآن، والقائد إلى عيون العقائد، والرائع في أصول الشرائع، وإحكام الأصول بأحكام الرسول، وأسباب النزول، والرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ. وكان المؤلف رحمه الله يعد هذه الكتب كلها أجزاء من مقدمة تفسيره «نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان» .

أما هذا الكتاب فقد وضعه المؤلف رحمه الله للكشف عن طريق القرآن الكريم في الاستدلال والمحاجّة، وإثبات فضله وعلوه على مناهج

الفلاسفة والمتكلمين وبيان ما فيها من ضعف وتهافت وفساد من الناحية العقلية البحتة؛ ثم شرح الحجج والبراهين التي احتج بها القرآن على التوحيد والرسالة والمعاد، وهي جماع العقيدة الإسلامية. فأراد رحمه الله أن يكون كتابه جامعا بين التنظير والتطبيق.

وقد بين المؤلف رحمه الله في خطبة الكتاب في إحدى مسوداته موضوعه وأهميته فقال:

«فهذا كتاب من مقدمة «نظام القرآن» أفردته لذكر أعظم ركن من كتاب الله، وأول أمر من نعت هذا النبي صلى الله عليه وسلم وآخره، وهي أربعة: تلاوة الآيات، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة. فقدم تلاوة الآيات وختمها بالحكمة، فهاتان كالبذر والثمر... وكان أفخم جانب الآيات وأقدمه هو: الخطاب إلى الإنسان من جهة فطرته، ودعوته إلى الحق من جهة بصيرته... ولذلك أكثر القرآن في أوائل الدعوة من ذكر الآيات الدالة على ما يؤمن به من التوحيد والمعاد والرسالة... فالعلم الذي يبين الطريق إلى فهم هذه الدلائل على أصول الدين الثلاثة يكون أعلى منزلة وأعظم عناية من جهة موضوعه، فإن الإيمان هو الأصل الذي تفرعت عنه الشرائع الخاصة» .

أما الأسباب التي دعت الإمام الفراهي رحمه الله إلى تأسيس هذا العلم، فقد أفاض القول فيها، وذكر سبعة أسباب، ولكن أهمها عنده سببان:

أحدهما يتعلق بالذين معظم همهم المعقول من المنطق. يقول الفراهي: «فإنهم قد ابتلوا بعقليات سافلة زائغة عن طريق الفطرة والهدى مفضية إلى الحيرة وصريح العمى... ولذلك حذر السلف عن الاشتغال به، ولكن أبى

الناس إلا النظر فيه، والولوع به، والإخلاد إليه؛ ثم بعد التجربة عرفوا مضارها. فمنهم من أبطل بعض أباطيلها، وأبقى بعضها محسنا به ظنه كأبي حامد رحمه الله، فإنه بيّن تهافت ما في إلهيات اليونانيين، ولكنه هو الذي أدخل منطقهم في الإسلام، فكان كمن قتل الأفعى وربّى أولادها. وكذلك اتخذ أخلاقياتهم، وبنى عليها كتابه ميزان العمل، فلم يخرج عن اتباع الفلاسفة مع غلوه في ردهم. وأما ابن مسكويه والطوسي وأمثالهما فهم مجاهرون بتقليد اليونانيين في الأخلاقيات. ومنهم من انتبه لأكثر من ذلك كابن تيمية رحمه الله، فرد على المنطقيين ردا طويلا، ودل على زيغ نهج المتكلمين، ولكنه قد اقتنع بالهدم ولم يبنِ قصراً يأوون إليه، والناس قلما يتركون ما اعتادوا به من دون بدل يأخذونه عوضا عما ينبذونه.

وكنت أجد في القرآن أصولا للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين، وأتعجب ممن يتغافل عنها، فتأكد عندي الحاجة إلى جعلها موضوع علم مستقل. وعرضتُ جملة منها على بعض الأذكياء من العلماء، فألح عليّ بإتمامه غاية الإلحاح، فرجوت أن يتقبله أهل النظر، ويزول به بإذن الله ما منع الناس عن فهم ما جاء به القرآن من بوالغ الحجج، لما اشتغلوا به من العلوم السافلة المبعدة من استقامة العقل وسداد الفكر، وذلك من الجهة الكلية الأصولية» .

وأما السبب الآخر فهو: «أنه قد تعلق بهم من أباطيل المنطق ظن خاص منعهم عن معرفة ما في دلائل القرآن من الرسوخ، وذلك ظنهم بأن

القضايا الأخلاقية مظنونات، ولا يقوم بها برهان. و لم يتفطنوا أنه بهدم الدين كله، مع أنه يهدم جانبا عظيما من حكمتهم وهو الحكمة العملية. فلو لم يكن في المنطق من الضلالة إلا هذا القول الباطل والسم القاتل لكان أولى بأن ينقدوا أمره ويتقوا شره... ولما أدخل أبو حامد رحمه الله المنطق في الإسلام تلقاه الناس بالقبول وخروا عليه صما وعميانا، وتمكن في قلوبهم أن هذا هو طريق معرفة الحق، وبذلك خيل إليهم أن دلائل القرآن إنما هي محض الخطابيات» .

وقد أوتي الإمام الفراهي رحمه الله بسطة في المعقولات، ثم خصه الله تعالى بعلم كتابه العزيز، فكان أقدر الناس على معالجة هذا الموضوع. أما المعقولات فقد درس الفراهي كتب الفلسفة والمنطق والكلام أيام طلبه، إذ كانت جزءاً لازماً من المنهج الدراسي السائد في عهده في الهند، ثم لما التحق بكلية عليكره درس الفلسفة الحديثة فيها على المستشرق الشهير توماس أرنولد، وبرّز فيها.فكان رحمه الله أول عالم في عهده جمع بين علوم الشرق والغرب، وأخذها من مصادرها من غير واسطة.

يقول الأستاذ عبد الماجد الدريابادي أحد المختصين في الفلسفة الحديثة: «إن الفراهي قد درس الفلسفة دراسة واسعة وعميقة جداً، وكان يتابع أحدث ما يصدر في الغرب من كتب الفلسفة والمنطق، و لم يكن يكتفي بالإطلاع عليها بل يقرؤها قراءة بحث ونقد ومقارنة».

أما كتب المتكلمين فقد بلغ من مدارستها في مقتبل حياته أن تقدم إليه مؤسس كلية عليكره السيد أحمد خان ــ والفراهي طالب في الكلية ــ

بتصحيح نسخة من بعض كتب الغزالي، وكان السيد معنياً بنشره، ولكن النسخة كانت سقيمة قد عاثت فيها الأرضة، فذهبت ألفاظ كثيرة منها، وقد أعياه تصحيحها. فتأمل الفراهي في المواضع التي أعلم عليها السيد، واقترح ألفاظاً مناسبة لها. ثم ظفر السيد بنسخة أخرى من الكتاب سليمة، فلما قابل بها نسخته التي صححها الفراهي تبين له أن تصحيحاته المقترحة إما أنها كانت مطابقة لما في النسخة السليمة أو مقاربة لها، فبهر السيد ذكاء هذا الطالب ونفاذ بصره، فسأله: ما الذي هداك إلى هذه التصحيحات؟ قال الفراهي: سياق الكلام وأسلوب الغزالي، وأرجو أن أكون مصيباً في معظم المواضع.

كان هذا شأنه، وهو طالب، و لم يزل يترقّى في مدارج العلم حتى أوفى على الغاية.

لقد توغل الفراهي في دراسة أفكار فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين وفلاسفة الغرب المحدثين وكتب المتكلمين، ولكنه كان رجلاً جهبذاً نقّادة، يميز بين الغث والسمين، ولا يخفى عليه الحق من الباطل. ثم بيده السراج المنير يضيء له معالم الطريق، ويبدد الظلمات، ألا وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكان أحب كتاب إليه وألذه، و لم يزل يتدبره ثلاثين سنة أو أكثر حتى فتح الله عليه من كنوزه وأسراره ما شاء، فكان نسيج وحده في فهم كتاب الله عز وجل. و لم يقبل عليه لإثبات فكرة سابقة أو ردها، ولا ينظر فيه من منظار معين، بل كان القرآن عنده هو المورد والمصدر، وهو المحك والميزان لجميع العلوم والمذاهب والأفكار.

وقد أدى تدبره للقرآن الكريم حسب المنهج القويم الذي اهتدى إليه، وتعمّقُه في دراسة الفلسفة إلى معرفة دقيقة لانحرافات الفلسفة وأسبابها فلم يعمد إلى نقدها وبيان زيفها فقط بل أراد تأسيس علوم عقلية جديدة تقوم على قواعد صحيحة راسخة يهدي إليها كتاب الله عز وجل. فشرع في تسويد عدة كتب نحو:

- العقل وما فوق العقل.
- النظر الفكري حسب الطريق الفطري.
- المنطق الجديد.
- القسطاس (وهي رسالة في علم جديد وهو منطق العمل وميزان الإرادات وأساس الحكمة العملية).
- الإشراق في الحكمة الأولى من حقائق الأمور ومكارم الأخلاق.

ثم قيد أفكاراً وخواطر تسنح له في علوم كثيرة منها العلوم العقلية في بعض مجموعاته مثل قيد الأوابد، ولوامع الأفكار، والطارق والبارق.

وكأنه رحمه الله لما عزم على تأليف كتاب حجج القرآن على الخطة التي استقر عليها أخيراً صرف النظر عن الكتب المذكورة لدخول مباحثها ضمن هذا المشروع العظيم.

وقد تبين من دراسة نسخة الكتاب التي وصلت إلينا أن الإمام الفراهي رحمه الله سوده أكثر من مرة. وكان في البداية يريد أن يرتبه بعد ديباجة في موضوع الكتاب وغايته على قسمين: قسم عمومي يتناول المباحث الأصولية

في الوحي والحجة والعلم والظن واليقين والشك والعقل والقلب والفطرة وما إلى ذلك، مما يبين الفرق بين طريق الوحي وطريق الفلاسفة والمتكلمين في الاستدلال؛ وقسم خصوصي في تفصيل حجج القرآن على الألوهية والمعاد والرسالة، وهذا القسم الثاني هو المقصود الأصلي من وضع الكتاب. أما القسم العمومي فإنما هو كالأساس والتمهيد له. وهذا الذي ظل المؤلف يعالج ترتيبه على أنحاء مختلفة، فرتبه في فهرس المسودة الأولى هكذا:

١- تعريف الحجة وتقسيمها وطرقها وأسماؤها.

٢- منصب الخصمين في احتجاج الوحي.

٣- مبادئ الاستدلال.

٤- كيف إثبات هذه المبادئ؟

٥- المبادئ ثلاثة وبديهية.

٦- فالمخاطب هو عقل الإنسان وفطرته على سبيل الذكر.

٧- أساليب الاستدلال ولسانه.

٨- ذكر وجوه الخفاء ــ الوجه الأول.

٩- الوجه الثاني من وجوه الخفاء.

١٠- الوجه الثالث من وجوه الخفاء.

ورتب هذا القسم في مسودة أخرى فقال:

«أما العمومي ففيه أصول:

الأول: في بيان موضع العقل والحجة في الدين، فالاعتماد عليه

والاحتجاج به.

والثاني: موضع العلم واليقين والاعتماد عليه، وترك الاعتماد على الشك والظن.

والثالث: في التمييز بين العقل والوهم، والحكم والهوى، وتشريح عمل العقل.

والرابع: في مبدأ اليقين وبنائه على الفطرة الحاكمة، وترتيب اليقين وجوداً وظهوراً.

والخامس: في عدد متيقنات الفطرة حسب الترتيب الوجودي.

والسادس: في إيضاح ما استنبط من هذه المتيقنات، وهي عقائد الدين من معرفة الرب الرحيم الحق والمعاد والهداية والرسالة.

والسابع: طريق استدلال القرآن لفظاً ومعنى».

وذكر مرة أخرى أن القسم العمومي في الأصول وفيه اثنا عشر فصلاً ثم عدد ثمانية فصول عناوينها:

١-العقل والعلم.

٢-سبب غلبة الظن على العلم الحق.

٣-سبب غلبة الهوى على التقوى.

٤-حرية العقل والقلب هي الفطرة.

٥-الحجة وأساسها اليقين.

٦-اليقين فطرة حاكمة وإلهام ضروري.

٧-أوليات اليقين.

٨-الفرق بين الأدلة الدينية وأدلة الفلاسفة».

وقال في موضع آخر: «القسم الأول في الأمور العامة، وفيه... فصول»، ثم ذكر الفصول الآتية:

١-ماهية الحجة وأجزاؤها وتقسيمها حسب ما في هذا الكتاب.

٢-عموم الكلام في مادة الحجة الفطرية وضرورة اليقين.

٣-الكلام في إبطال الشك المطلق من جهة بداهة العقل.

٤-الكلام في ضعف هذا الطريق بذكر ما آل إليه من الضلال والحيرة.

٥-الكلام في إبطال الشك المطلق من جهة بصيرة الفؤاد.

٦-الكلام في إبطال الشك من طريق الفطرة وضرورة العلم واليقين.

٧-الكلام في مجاري اليقين الفطرية ومبادئ جميع العلوم والأعمال.

وقد حرصنا على إيراد هذه النماذج المختلفة كلها هنا، ليتصور القراء المسائل التي كان المؤلف يريد مناقشتها، والأصول والقواعد التي يرى أنه لا بد أن إنشائها وإحكامها، قبل الشروع في تفصيل حجج القرآن.

وقد انتهت به هذه المعالجة المستمرة إلى خطة بديعة متكاملة بفصولها المعدودة، فألقى عندها عصا التسيار. وقسم الكتاب في هذه الخطة الجديدة بعد المقدمة إلى ثلاث مقالات:

المقالة الأولى في انتقاد المنطق والفلسفة والكلام، وهي في ثلاثة أبواب: الأول في انتقاد المنطق، والثاني في انتقاد الفلسفة، والثالث في انتقاد علم الكلام، وخصص للباب الأول عشرة فصول، وللثاني سبعة، وللثالث خمسة.

والمقالة الثانية في تأسيس العلم، وهي أيضاً في ثلاثة أبواب: الباب الأول في «الميزان، وهو المنطق الأعلى»، والثاني في «الحكمة البازغة»، والثالث في طريق احتجاج القرآن. وخصص لكل باب منها عشرة فصول.

والمقالة الثالثة في حجج القرآن، وهي أيضاً تشتمل على ثلاثة أبواب: الأول في أدلة الربوبية، والثاني في أدلة المعاد، والثالث في أدلة الرسالة. ولكل باب عشرة فصول.

وإن في تحديد عدد الفصول لكل باب — وإن لم تذكر عناوينها — لدليلاً على أن موضوعاتها كانت معلومة مقررة عند المؤلف، ولكن المؤسف أنه لم يتمكن من إنجاز العمل حسب خطته. فقد خصص للباب الأول من المقالة الأولى في انتقاد المنطق عشرة فصول، ولكن لم يكتب منها إلا سبعة فقط. وفي باب انتقاد الفلسفة كتب خمسة فصول من سبعة. أما باب انتقاد الكلام فكتب منه فصلا واحدا مع أنه في الفهرس قرر له خمسة فصول.

نعم في الباب الأول من المقالة الثانية، وهو في المنطق الأعلى، كتب جميع الفصول العشرة المخصصة له. أما الباب الثاني في الحكمة البازغة، فكتب قبل الشروع فيه عدة مباحث، ثم كتب نحو خمسة فصول من عشرة. وفي الباب الثالث في طريق احتجاج القرآن ترك بياضا للفصل الأول، ثم كتب الفصول الثاني والثالث والرابع، وذلك يعني أنه كتب ثلاثة فصول من

عشرة.

أما المقالة الثالثة في حجج القرآن، فقد خصص المؤلف رحمه الله لكل باب من أبوابها الثلاثة عشرة فصول، ولكن لا نجد منها في هذه المسودة الأخيرة إلا ثلاثة فصول من الباب الأول في أدلة الربوبية. وذكر الناسخ رحمه الله أن بعدها في الأصل بياضا إلى ١٢ صفحة. ثم يوجد مبحث بعنوان «تمهيد لفهم الأمثال» يتلوه فصل آخر.

هذا هو محتوى المسودة الأخيرة.

ومنهجنا في إعداد هذه النشرة أننا وضعنا المسودة الأخيرة في بدايتها كما هي، فهذا هو القسم الأول. أما القسم الثاني فيشتمل على الفصول التي احتوت عليها المسودتان الأوليان والمباحث المتفرقة التي وردت في بعض المجاميع. وقد تولى ترتيب هذا القسم، ثم توثيق النقول وأقوال الفلاسفة والمتكلمين الواردة في الكتاب كله، والتعليق عليه: الأخ الدكتور أياز أحمد الإصلاحي، ثم راجعه الشيخ أمانة الله الإصلاحي بمعاونة ابن أخيه الدكتور محيي الدين غازي، فجزاهم الله خير الجزاء.

وقد سمى المؤلف رحمه الله كتابه في مسودتيه الأولى والثانية «حجج القرآن»، وكذا سماه في مؤلفاته الأخرى، فهو العنوان المعروف عند المعنيين بكتب الفراهي، ولكن لما رتبه في المسودة الأخيرة على المنهج المذكور سماه في أولها «الحكمة البازغة والحجة البالغة»، فرأينا أن نضع العنوانين كليهما على غلاف الكتاب.

وفي خاتمة هذه الكلمة الوجيزة نرجو أن يجد القراء في هذا الكتاب البديع الذي نبه المؤلف رحمه الله على أن طريقه «ربما يخالف مذهب المنطقيين والفلاسفة والمتكلمين في الاصطلاح، والتقسيمات، وفي الأصول» ثروة فكرية نادرة قلما وجد نظيرها في كتب القدماء والمحدثين.

والله الموفق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

الدائرة الحميدية

المقدمة

و فيها فصلان بعد الحمد و الصلاة

الفصل الأول

في موضوع الكتاب والغاية و الحاجة
من جهة اختصاصه بعلوم التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الخلق ليعمهم برحمته، وخص الإنسان بالفكر والنظر ليسبغ عليهم أتم نعمته. فبعث فيهم النبيين ليخرجهم من غوائل الجهل وغمته إلى معاقل العلم وعصمته، حتى أرسل خاتم النبيين سيدنا محمداً النبي الأمي بكمال الدين وتتمته، ومعظم الهدى وجمته. إذ بعثه كافة للناس مبلغاً لآياته ومزكيا لمن دخل في أمته، ومعلما لما نزل إليهم من شرائعه المطهرة وحكمته، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (سورة آل عمران/١٦٤). فمن تبعه فقد فاز من العلم والإيقان بسهمته. ومن أعرض عنه تعرض للشك وظُلمته، وتخبط الشيطان ولمته.

فصلّ اللهم على جميع أنبيائك المرسلين لاسيما على هذا النبي الكريم وبارك وسلم على صحبه وذوي لحمته. واهدنا بالنور الذي أنزلت معه إلى صراطك المستقيم وأمته. فإنه لاحول ولا قوة إلا بك ففوضت أمري إليك برمته.

أما بعد! فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن أفردته لذكر أعظم ركن من كتاب الله وأول أمر من نعت هذا النبي صلى الله عليه وسلم وآخره، وهي أربعة : تلاوة الآيات، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة كما سبق. فقدم تلاوة الآيات، وختمها بالحكمة. فهاتان كالبذر والثمر، وما بينهما

طريق الوصول وأعلامها. فالأولى مقرونة بالأخرى إلا أن يزيغ السالك عن الطريق فيضل عن الغاية كما صرح به في غير موضع ... ولنبين محل هاتين وملازمتهما.

(فصل) في آيات الله......(فصل) في الحكمة......

فإنها الأصل لما يتلو، وكان أفخم جانب الآيات وأقدمه هو الخطاب إلى الإنسان من جهة فطرته، ودعوته إلى الحق من جهة بصيرته. وذلك بأن أول أمر الدين الإلهي هو الدعوة إلى الإيمان بعلم وبصيرة، كما قال تعالى آمراً لنبيه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (سورة يوسف/١٠٨). وأيضاً: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل/١٢٥).
ولذلك أكثر القرآن في أوائل الدعوة من ذكر الآيات الدالة على ما يؤمن به من التوحيد والمعاد والرسالة، وهذا ظاهر جدا ومفصل في موضعه.

فالعلم الذي يبين الطريق إلى فهم هذه الدلائل حتى ينتهي إلى الحكمة التي هي نهاية السعادة كان على غاية الأهمية من جهات كثيرة :

(١) من جهة كونه أساسا ومفتاحا.

(٢) من جهة أنه خطاب إلى أعلى ما في فطرة الإنسان من العلم والرشد.

(٣) ومن جهة أنه الفارق بين الدين الحق الذي بني على الحكمة والهدى والذي بني على محض التقليد والعمى.

وأما الحاجة إلى هذا العلم فليست للتنبيه على شي. قليل مغمور مستور. فإن القرآن مفعم بما يخاطب به العقول لاسيما في بداية أمره

والسوابق من سوره، كما لا يخفى على كل من يقرأ هذا الكتاب الحكيم بأدنى تأمل. ولا لبعد وتعقيد في دلائله ، فإنها أقرب إلى الفطرة. وقد صرح به كثيرا مثلا في قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (العنكبوت/٤٩). وقد سمى الله تعالى هذا الكتاب الهدى والفرقان والحكمة والبرهان والحق والتبيان والروح والنور والشفاء لما في الصدور وأمثالها مما يطول استقصاؤه، وهو مبسوط في موضعه.

وإذ كان الأمر كذلك فلم نحتج إلى تأسيس هذا العلم إلا لما هو من العوارض الخارجة. فكما أن الحاجة إلى الدواء تكون لأجل المرض فكذلك احتياجنا إلى هذا العلم إنما هو لما استحوذ على الناس من الأسباب العائقة عن درك ما جاء به القرآن من الدلائل الواضحة. فلنذكر هذه الأسباب لتعلم عمومها وشدتها فيتضح لك مقدار الحاجة إلى العلم الذي يدفعها. فهذه الأسباب على الجملة سبعة :

الأول : أن أكثر الذين معظم همهم التدين والاشتغال بالكتاب والسنة يظنون أن طريق العقل مباين للتعليم الإلهي. فيزعمون بأن الإيمان مبني على إخبار من الأنبياء عليهم الصلاة وإنما عرفناهم بالمعجزات، فكل ما علمونا من الإيمان والشرائع تقبلناه بمحض إخبارهم. فإنه لو كان للعقل سبيل إلى علوم الدين لكنا في غناء عن الوحي. ولو لا ذلك لما مدح الله الإيمان بالغيب.ومن غلبة هذا الظن زعموا أن الشرائع كلها مبنية على أمر الله تعالى بها فيلزمنا أخذها من غير طلب الحكمة فيها. وبما صاروا على هذا الرأي صُرفوا عن استعمال العقل والفكر في أمور الدين كلها، فكيف بالتفكر في دلائل القرآن.

والباعث الأصلي على هذا الرأي ما وجدوا عيانا من الخبط والشطط في المنتسبين إلى العقل من الفلاسفة والمتكلمين فأساءوا الظن بالمعقول. ولكن قد تبين لي أن ضلالهم لم يكن من جانب العقل بل من تسلط التفلسف وتركهم طريق الفطرة التي هدى الله سبحانه إليها بكتابه وتعليمات رسله. فرأينا الحاجة إلى ذكر هذا الطريق ليركنوا إلى ما جاء به القرآن من الحجج البالغة والحكم البازغة، ومن الحث على استعمال النظر والفكر ومن مدح أرباب العقل والحجر. وكذلك رأينا الحاجة إلى إبطال مافهموه من الإيمان بالغيب، ومن بنائه على محض المعجزات دون الآيات البينات المشهودة في الأنفس والآفاق المنشورة في تمام القرآن المستعملة خاصة لدعوة الناس من طريق الحكمة والاستدلال دون التقليد ومحض الاعتقاد كما قال تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (سورة النحل/١٢٥). ولذلك نظائر لا تحصى.

والثاني : ما تعلق بالذين معظم همهم المعقول من المنطق والفلسفة، فإنهم قد ابتلوا بعقليات سافلة زائغة عن طريق الفطرة والهدى مفضية إلى محض الحيرة وصريح العمى كما لا يخفى على من نظر في خزعبلات المتفلسفين العاشين عن نور الوحي والكتاب. ولذلك حذر السلف عن الاشتغال به ولكن أبى الناس إلا النظر فيه والولوع به والإخلاد إليه، ثم بعد التجربة والمعرفة بها قد انتبهوا لمضارها.

فمنهم من أبطل بعض أباطيلها وأبقى بعضها محسنا به ظنه كأبي حامد (الغزالي) رحمه الله. فإنه بيَّن تهافت ما في إلهيات اليونانيين ولكنه هو

الذي أدخل منطقهم في الإسلام، فكان كمن قتل الأفعى وربى أولادها. وكذلك اتخذ أخلاقياتهم وبنى عليها كتابه "ميزان العمل"، فلم يخرج من اتباع الفلاسفة مع غلوه في ردهم.

وأما ابن مسكويه والطوسي وأمثالهما فهم مجاهرون بتقليد اليونان في الأخلاقيات. ومنهم من انتبه لأكثر من ذلك كابن تيمية رحمه الله، فرد على المنطقيين رداً طويلا ودل على زيغ نهج المتكلمين ولكنه اقتنع بالهدم و لم يبن قصراً يأوون إليه. والناس قلما يتركون ما اعتادوا به من دون بدل يتخذونه عوضاً عما ينبذونه.

وكنت أجد في القرآن أصولا للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين، وأتعجب ممن يتغافل عنها. فتأكد عندي الحاجة إلى جعلها موضوع علم مستقل، وعرضت جملة منها على بعض الأذكياء من العلماء فألح علي بإتمامه غاية الإلحاح. فرجوت أن يتقبله أهل النظر ويزول به بإذن الله ما منع الناس عن فهم ما جاء به القرآن من بوالغ الحجج لما اشتغلوا به من العلوم السافلة المبعدة عن استقامة العقل وسداد الفكر. وذلك من الجهة الكلية الأصولية.

والثالث : أنه قد تعلق بهم من أباطيل المنطق ظن خاص منعهم عن معرفة ما في دلائل القرآن من الرسوخ. وذلك ظنهم بأن القضايا الأخلاقية مظنونات ولا يقوم بها البرهان، و لم يتفطنوا أنه يهدم الدين كله مع أنه يهدم جانبا عظيما من حكمتهم وهو الحكمة العملية. فلو لم يكن في المنطق من الضلالة إلا هذا القول الباطل والسم القاتل لكان أولى بأن ينقدوا أمره ويتقوا شره.

وأتعجب من أبي حامد رحمه الله مع حميته للحق وحمايته للصدق كيف اتخذ المنطق على علاته معيارا للعلم ومحكا للنظر، ثم لم يكتف بذلك بل ادعى أنه أخذه من القرآن، وإنما أخذه من اليونان. ولا شك أن استدلال القرآن لا يخالف ما صح من المنطق ولكن أين الجذوة من النور الأعظم والوشل من البحر الخضم. ولو أنه أخذه من القرآن لكان محترزاً عن أباطيل المنطقيين، ولكنه قد اتبعهم كل الاتباع حتى فيما زاد المتأخرون على واضعه الأول من الجهالات، فقلدهم في كل نقير وقطمير. ومن ذلك أنه جعل أوليات الأخلاق من المظنونات، فقال في كتابه "محك النظر"[1] في مدارك اليقين والاعتقاد إذ جعلها سبعة أقسام:

(السابع: المشهورات) وهي آراء مجموعة أوجب التصديق بها إما شهادة الكل أو الأكثر أو شهادة الجماهير أو الأفضل. كقولك الكذب قبيح، والإنعام حسن. وشكر المنعم حسن وكفران النعمة قبيح. وهذه قد تكون صادقة وقد تكون كاذبة فلا يجوز أن يعول عليها في مقدمات القياس، فإن هذه القضايا ليست أولية ولا وهمية. فإن الفطرة الأولى لا تقضى بها."

وقال : "ولو كلفت نفسك الشك في أن الاثنين أكثر من الواحد لم يكن الشك متأتيا بل لا يتأتى الشك في أن العالم ينتهي إلى خلاء وهو كاذب وهمي ولكن فطرة الوهم تقتضيه والآخر تقتضيه فطرة العقل. فأما كون الكذب قبيحا فلا تقضي به لا فطرة الوهم ولا فطرة العقل بل ما ألفه الإنسان من العادات والأخلاق والاصطلاحات. وهذه أيضا مغاصة مظلمة

[1] محك النظر في المنطق (الطبعة الأولى بالمطبعة الأدبية، مصر) ص: ٥٥-٥٨

يجب التحرز عنها، وقل من لا يغترّ بهذه المقدمات ولا تلتبس عليه باليقينيات."

وقال : "والمشهورات تصلح للفقهيات الظنية ولا تصلح لغيرها."

وأكبر من ذلك أنه أبطل حكم الفطرة فقال:

"وليس كل ما تشهد به أول الفطرة قطعا هو صادق بل الصادق ماتشهد به قوة العقل فقط ومداركه الخمسة المذكورة."

وهذا استعماله اسم أول الفطرة في معنى خاص ثلمة لا تسد، فإن اتهام الفطرة يفضي إلى الشك في كل شيء. وإنما قال ذلك تقليدا لبعض الفلاسفة فإنهم زعموا أن الحواس تغلط وهذا باطل فإن الغلط إنما يجيء من قبل الاستنباط، وهو من فعل العقل لقياسه مع الفارق كما هو الآن معلوم بين الفلاسفة.

ولما أدخل أبو حامد رحمه الله المنطق في الإسلام تلقاه الناس بالقبول وخروا عليه صما وعميانا، وتمكن في قلوبهم أن هذا هو طريق معرفة الحق، وبذلك خيل إليهم أن دلائل القرآن إنما هي محض الخطابيات. وهذان السببان، أعني الثاني والثالث، هما من أكبر الدواعي وأعظمها للحث على وضع علم مستقل يتبين به طريق النظر الصحيح في آيات الله البينات التي تشهد بها الفطرة السليمة.

والرابع : وهو من قبيل الثالث ما تسلط على المولعين بإلهيات الفلاسفة مع إيمانهم بالنبوات من الوهم بأن مسائل التوحيد والربوبية إنما يبرهن عليها بطريق الفلسفة، وأما الأنبياء فلم يأتوا إلا بالإقناعيات. وهذا التوهم صرفهم عن فهم ما أنزل الله من الحكمة البازغة ولم يعرفوا قدره العظيم. وفشا هذا

الرأي حتى غلب على المتكلمين ممن آمنوا بالوحي والمرسلين، فصار جل همهم إثبات هذه المسائل على طريق الفلاسفة و لم يعلموا أن الفلاسفة إنما أخذوها من تعليم الأنبياء حسب اعترافهم مع تخليط من عند أنفسهم. قال الفارابي في "كتاب الجمع بين رأي الحكيمين" :

"ليس لأحد من أهل المذاهب والنحل والشرائع وسائر الطرائق من العلم بحدوث العالم وإثبات الصانع له وتلخيص أمر الإبداع ما لأرسطوطاليس وقبله لأفلاطون ولمن يسلك سبيلهما. وذلك أن كل ما يوجد من أقاويل العلماء من سائر المذاهب والنحل ليس يدل على التفصيل إلا على قدم الطبيعة وبقائها."[1]

وبعد ذلك اعتذر وانتصر للشرائع فقال ما خلاصته: أن الله تعالى جعل كل شئ في محله وفوض كل أمر إلى أهله. ولما كان خطاب الشرائع عامة والجمهور لا يقدرون على تصور البرهانيات جعل الشرعيات على قدر أفهامهم حتى قال :

"البرهانيات موكولة إلى أصحاب الأذهان الصافية والعقول المستقيمة، والسياسيات موكولة إلى ذوي الآراء السديدة، والشرعيات موكولة إلى ذوي الإلهامات الروحانية. وأعم هذه كلها الشرعيات (ولعله بعد هذا القول انتبه على ما في الوحي من الحكم الغامضة فقال مناقضا لقوله) وألفاظها خارجة عن مقادير عقول المخاطبين، ولذلك لا يؤاخذون بما لا يطيقون تصوره[2]

---

[1] كتاب الجمع بين رأى الحكيمين- أفلاطون وأرسطو طاليس (رسالة شاملة في "كتاب المجموع من مؤلفات أبي النصر الفارابي"، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥/١٩٠٧(الطبعة الأولى): ٣٩

[2] المرجع السابق : ٢٩

(الألفاظ لا تكون خارجة عن مقادير العقول إنما هي المعاني. وإذ كان الوحي مشتملا على هذه المعاني فكيف يزعم أنها موكولة إلى غير الوحي. هذا، ثم ذكر بعض ما يصعب تصوره على الجمهور حتى قال) فطرق البراهين الحقيقية منشؤها من عند الفلاسفة الذين مقدمهم هذان الحكيمان أعني أفلاطون وأرسطوطاليس. وأما طريق البراهين المقنعة المستقيمة العجيبة النفع فمنشؤها من عند أصحاب الشرائع الذين عوضوا بالإبداع الوحي والإلهامات"[1]

فهذا قول من قد آمن بالوحي، فزعم أنه إنما جاء بالإقناعيات وأن البراهين الحقيقية إنما هي مع الفلاسفة، ثم تبعه المتأخرون. و لم يكن ذلك إلا لعدم تدبرهم كتاب الله الحكيم. وستطلع على قصارى سعيهم في أمر الإبداع ومسائل التوحيد، وماهم عليه من الزيغ والأباطيل. فإنما المقصود ههنا ليس إلا ذكر أنهم لم يعرفوا قدر ما أنزل الله من البينة والبرهان، فوجب كشف هذه الغمة عن أبصارهم.

والخامس : أنه لما كانت الغفلة عما هو فوق هذه الحياة الدنيا غالبة على أكثر العقول لشدة انهماكهم في مشاغل هذه المحسوسة الحاضرة وعلومها كما قال تعالى :﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (سورة يوسف/١٠٥).فمع أن دلائل القرآن قريب من الفطر بل منبهة على الفكر وأصول النظر تراهم لا يتفكرون، ولذلك قد أكثر القرآن من الحث على التدبر والتفكر مثلاً قوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة محمد/٢٤).وهذا كثير

---

[1] المرجع السابق: ٣١.

جداً.

والغفلة هي عدم النظر فهي سبب عدمي ولكنها إنما نشأت من الانهماك في الظاهر الحاضر، وهذا عطل قوى العقل وأغلق غرف الإدراك لما هو المشهود في الأنفس والآفاق من مظاهر الجلال والجمال والحكمة والرحمة. فصاروا لا يرون إلا الظاهر المحسوس كالبهائم كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف/١٧٩). وقال تعالى في هؤلاء: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ (الروم/٧). وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿٣٠﴾﴾ (النجم/٢٩-٣٠). وهذا كثير جداً.

والعلوم التي اشتغل الناس بها من الطبيعيات والرياضيات والإلهيات وغيرها كلها متوجهة إلى أغراض سافلة سواء كانت مادية أو مجردة عن المادة. فهي من المشاغل الدنياوية الصارفة عن النظر إلى الحق وآياته وبسط ذلك في موضع آخر.

والسادس: إنه غلب على أكثر الناس الظن بأن القرآن إنما خوطب به الأميون البسطاء فلا يكون موضعاً للتدبر وإمعان النظر. وقد أخطأوا في ذلك من وجهين:

الأول: إنهم لم يعلموا أن العرب كانوا في أعلى درجة الذكاء لا سيما في بلاغة الكلام وإيجاز الخطاب بل قد بني لسانهم على ذلك. ولذلك كانوا مولعين بجوامع الكلم والخطاب المحكم، وكانت أسماعهم تمج الهذر والبسيط

وكانوا يظنون أنه لا يخاطب به إلا الأغبياء. فأنزل الله تعالى القرآن على أسلوب كلامهم كما أنزل على أفصح لسانهم. والقول البليغ الجامع الموجز لا يطلع على تمام معانيه من غير تدبر، فجهلهم بحال العرب وأسلوب كلامهم صرفهم عن التدبر في القرآن.

والثاني: إنهم لم يعلموا أن من أعظم غاية القرآن تربية العقول وتعليم الحكمة كما صرح به في مواضع كثيرة، فلذلك خاصة أكثر من لطائف الأدلة ليتعلموا التفكر والاستنباط. ولذلك كثيراً ما يكتفي بالتنبيه على الدلائل والحث على استنباطها، بل قد ينبه على الأصول الفطرية التي يبتنى عليها الاستدلال كما هو مبسوط في موضعه. فلما كان القرآن على هذه الصفة من الغور واللطافة خفي كثير من دلائله على من يتوهمه خطابا عاميا. ولذلك احتجنا إلى بسط الأدلة بذكر ما انطوت عليه من المقدمات المقدرة التي إنما يطلع عليها الأذكياء الممارسون بالخطابات البليغة المحكمة.

والسابع: إنه غلب على أكثر الناس الظن بأن القرآن كثير الاقتضاب والانتقال من معنى إلى معنى من غير مناسبة بينهما. وقد وقع في هذه المغلطة بعض الأذكياء مثل ابن حزم الظاهري وصاحب[1] "الفوز الكبير". دع عنك ما تفوه به بعض الظانين بأنفسهم أنهم يصلحون فقالوا إن

---

[1] هو الشاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (١١١٤-١١٧٦هـ/١٧٠٢-١٧٦٢م) صاحب الفوز الكبير، وحجة الله البالغة. (انظر ترجمته في نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، لعبد الحي الحسني. دار عرفات، الهند، ١٤٨٢هـ: ٦/٣٩٨-٤١٥.) وقد ذكر الإمام ولي الله الدهلوى رأيه في هذا الأمر في كتابه "الفوز الكبير في أصول التفسير" تحت عنوان "الفصل الرابع في ترتيب مباحث القران الكريم"، (طبعة دار السنة، لكناؤ، الهند، الطبعة الرابعة: ٩٩-١٠٠)

الاقتضاب في القرآن هو أكبر دليل على أنه كلام الله تعالى، فإنه لو كان كلام الإنسان لكان فيه نظم وترتيب، والفطرة لا يرى فيها ترتيب. ألا ترى نجوم السماء وأشجار البرية وأنهار الأرض وسواحل البحر كل ذلك خلوا عن ترتيب ونظام، وهؤلاء أجهل الناس بمفهوم النظام الحقيقي. فهذا الظن الباطل صار سدا شديدا دون التدبر في نظم القرآن عموما فخفي عليهم طرف عظيم من مطالبه المهمة وبلاغته العجيبة فضلا عن دلائله اللطيفة ولذلك تراهم كثيراً قد أخطأوا موارد الاستدلال، فأولوه إلى غير الدعوى فلم يتبين لهم ما فيه من القوة والتقريب بل ربما خفي عليهم نفس الاستدلال كما بيناه في مواضعه.

فرأينا الحاجة شديدة إلى الكشف عن نظمها ليتضح التقريب بين الدليل والدعوى وصحة الاستدلال وقوته، فهذه جملة الكلام في بيان الحاجة والداعية لموضوع هذا الكتاب.

الفصل الثاني

في بيان موضع هذا الكتاب
من الجهة العمومية[١]

[١] بياض في الأصل.

المقالة الأولى

في انتقاد المنطق والفلسفة والكلام

الباب الأول

في انتقاد المنطق

المنطق ثلاثة أجزاء :

١- حمل الشيء على الشيء وهو باب قاطيغوريا.

٢- الحدود.

٣- القياس، وهو المقصود.

(١)

النظرة الأولى فيما التبس على المناطقة من حقيقة الحمل

التبس على واضع المنطق حقيقة دلالة الأسماء من وجهين:

الأول : إنه توهم أن الحمل يكون على مفهوم ذهني، وهذا المفهوم هوالجزئي والكلي.

والثاني : أنه كما أن للمفهوم الجزئي موجودا جزئيا في الخارج فكذلك للمفهوم الكلي موجود كلي في الخارج. فتوهم أن الأسماء العامة التي تطلق على الكثير أسماء مطابقة لحقائق في الخارج، فزعم أن الكلي جوهر محمول على الأشخاص التي هي جواهر أولية.

وكشف هذا الالتباس أن النطق إنما هو بيان ما يفهم الإنسان من الموجودات الخارجة، فإنه يريد إيحاء ما يفهمه بوسيلة الألفاظ فلا بد أن تكون الألفاظ علامة لما فهم. ولما كانت الموجودات لا تحصى اضطر إلى أن يضع لها ألفاظا مشتركة فيما تكون متشابهة مثلا وضع اسم الشجر لكثير متشابه في الصفة، والصفة إنما تقوم بذات مخصوصة والذوات المخصوصة وهي الأشخاص متماثلة لا متحدة، فإن كل شخص إنما هو متصف بصفة فيه. فإن شجرية هذه الشجرة ليست بعينها شجرية تلك الشجرة ولكنها مماثلة، واسم الشجر وضع عامة لكل ما فيه الشجرية. فمعنى اسم الشجر

مشترك بين كثير متماثل بعضه ببعض.

وعلى هذا فالكلي المحمول على كثير هو الاسم المشترك بين كثير، والحمل هو إطلاق الاسم على الموجود الخارجي، وفي الخارج إنما يوجد ذوات وصفاتها.

ثم هناك حمل بمعنى آخر وهو أن الذوات حاملة لصفاتها سواء أطلقنا عليها اسما أم لم نطلقه. وأما حملك فهو إطلاقك الاسم على الخارج كما أنك تدعو غلامك الموجود في الخارج باسمه. فإذا قلت زيد إنسان فإنما عبرت عن معنى في نفسك، ولكنك لم تحمل اسم الإنسان على اسم زيد فإنهما متباينان ولا على مفهومه الذي في ذهنك. فإن هذا المفهوم ومفهوم الإنسان متغايران. فلا يقال إن مفهوم زيد هو مفهوم الإنسان حتى يحمل عليه. فإذا قلت زيد إنسان فإنما تريد أن زيدا الخارج الذي حملت عليه اسم زيد وجعلت هذا الاسم علامة له هو الحامل للإنسانية التي في ذاته. فإن ذات زيد وإنسانيته كلاهما في الخارج وكلاهما مخصوص جزئي. وهذا المراد هو المعنى فإذا تكلمت به أوحيته إلى المخاطب.

ومن هنا يتبين الفرق بين إطلاقين : إطلاق الخاص وإطلاق العام من الأسماء.فالاسم الخاص مثل زيد يطلق على ذات خاصة، فهناك ثلاثة خواص: ذات خاصة، ومفهوم خاص، واسم خاص. وأما الاسم العام مثل الإنسان فهو أيضاً يطلق على ذوات مخصوصة جزئية، فإن الإنسان يطلق على عمرو وخالد وبكر وأمثالهم. فالعام هو الاسم فقط وهو موضوع لمفهومات متعددة من مفهومات الذوات من غير تعيين. ولذلك تضم به الكل والبعض ولا وجود في الخارج لشئ متحد وإنما في الخارج وجود المتماثلات التي وضع

لها اسم واحد عام. ولا اشتراك لهذه الذوات في صفة واحدة، فإن في كل ذات صفتها الجزئية المخصوصة بها غير أنها متماثلات. كما أن طول هذا الخشب موجود في هذا الخشب، وهذا الطول بعينه لا يوجد في غيره ولكن كل ما يساويه في الطول فهو مماثل لهذا الخشب في الطول. فالطويل مفهومه كل ذات مع طوله الذي اتصف به، وليس طول هذا بعينه طول ذلك. ففي إطلاقك الاسم العام إنما العموم للاسم فقط.

ومما ذكرنا أنتج ثلاثة أمور:

١- ليس في الذهن مفهوم كلي ولا في الخارج.

٢- الحمل بمعنى إطلاقك الاسم لا يكون إلا على ذوات، لا على مفهوم ذهني.

٣- ليس الحامل للصفات الخارجية إلا موجوداً في الخارج.

(٢)
النظرة الثانية في الحد
من جهة الغرور الناشئ منه

(١) كان سقراط أول من توجه من فلاسفة اليونان إلى طلب الحد، فإنه وجد المدعين للعلم يخبطون في الآراء ويدعون العلم بالحقائق. وقد اطلع على أنهم يتكلمون على أمور مثل العدل والخير والنفس وغيرها ولا يعلمون ما هي فيخبطون، فكان يوجههم إلى معرفة الحدود.

ثم توهم أفلاطون أن الحدود هي الحقائق وهي الثابتة القائمة لا تتغير ولا تتبدل فزعم بوجود الكليات. ثم ناقضه أرسطو في ذلك ولكن لم يخرج عن أثر هذا الرأي، فرأى أن العلم بحد الشئ هوالعلم بالماهية.

ولا شك أن النظر في الحدود يؤدي إلى الاعتراف بالجهل، فإن العلم بالحد هو العلم بحد العلم ووقوفه عليه. ولذلك كان جل قول سقراط: إنه لا يدري. ولكن أفلاطون لما جعل الكليات هي المنتهى والعلم بالحقائق، وتبعه أرسطو في ذلك وتكلم في الحدود بكلام طويل وجعله أساس منطقه تبعه المتأخرون، فصاروا يظنون أنهم قد اطلعوا على حقائق الأشياء بهذا الطريق. وقد صرح أرسطو نفسه أنه لا سبيل إلى معرفة الحقائق بالحد ولا بالبرهان المنطقي ولكن الناقلين لم يعبأوا بهذا القول منه.

ومن أعظم الجهالة ظن الجهل علما. فإذا سألت المنطقيين عن ماهية

الإنسان مثلاً أجابوك بالحيوان الناطق، فظنوا أنه جواب عن الماهية ويعنون بها الحقيقة ولكن لا علم لهم بالحيوان ولا بالناطق. إذ لا علم لهم بما هي الحياة ولا بما هو النطق فجعلوا محض الاسم حقيقة.

ولا شك في فائدة طلب الحد بمعنى التمييز بين أمرين وبمعنى منتهى العلم فإن التمييز يحفظ عن التخليط في البحث والمعرفة بنهاية العلم يحث على طلب أصله في الفطرة. وذلك يهدي إلى الإيقان بما أودع في فطرة النفس وإلى الإيمان برحمة الفاطر. وهذا مبسوط في موضعه.

(٣)

النظرة الثالثة في الحد

من جهة أن طريقه يفضي إلى الحيرة

واضع المنطق بنى العلم على المعرفة بالحدود وجعل الحد مبنيا على النوع والفصل، فكل مالم يكن له نوع وفصل لم يكن على طريق المناطقة وجه لمعرفته. وقد جعل كل حد ينتهي إلى الأجناس العالية التي لا نوع لها ولا فصل.ولا بد من طريق لمعرفة هذا المنتهى،ولكنه قد تركه. فاضطر الناس إلى محض دعوى البداهة فيه وطال فيه النزاع بينهم وآل الأمر إلى الحيرة والضلال المبين في أهم المطالب. ولا شك في أن المعرفة بها حاصلة، فإن نطاق الفطرة لأوسع مما يسعه المنطق ولها طرق واضحة بينات مستعملة في العلوم كلها غير أن الناس لمتابعتهم المنطق وأسلوبه وتعويلهم عليه لم يلتفتوا إلى هذه الأصول الفطرية. ونذكرها في موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(٤)

النظرة الرابعة في الحد من جهة كونه سدا عن معرفة الأشياء

طريق الحد عند المنطقيين أن يؤتى بالجنس القريب ويضم به الفصل. مثلاً إذا سئلوا عن حد الإنسان قالوا حيوان ناطق وزعموا أن ذلك حقيقته التامة. ولا شك في أن النوع ربما يكون له فصول كثيرة تميزه عن غيره بل ربما يكون في مجموع ذلك ما يميزه، فالمعرفة ببعض اللازم لا تكون تمام المعرفة. ولا خفاء على قصور هذا الطريق.

فإنهم لا يستطيعون أن يجروا حدودهم إلا في أمثلة مخصوصة مع أنها لم تسلم من الخدشات فيرممون ذلك بتغيير في الحد. مثلاً يقولون في حد الإنسان إنه حي ناطق مائت، ليميزوه من الملائكة والجن وأين لهم العلم بأنهما لا يموتون. والمثال الآخر المشهور عندهم الفرس حيوان صاهل. وذلك من العجب، فإنه يوجد في البحر حيوان يصهل وليس بفرس ومن الحيات ما لها صهيل مشابه بصهيل الفرس . وهل تتم المعرفة بهذه الخلائق بمثل هذه الأمور الخارجية. فلو قنعوا بأن الحد إنما هو لمحض التمييز لكانوا أقرب إلى الصواب ولأمكنهم تعريف الأشياء، ولكنهم ادعوا المعرفة بتمام الحقيقة وهذه لا تحصل بحدودهم. وإنما يمكن ذلك على قدر العلم بالأشياء وله طريق آخر كما نذكره في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(٥)

النظرة الخامسة في الحد
من جهة كونه عثرة في طريق المعرفة

حد الشيء لا يكون إلا بالجنس القريب والفصل، ومعرفتهما في غاية الصعوبة كما اعترف به المنطقيون. فإنك لا تقدر على الحد إلا بعد الوقوف على جميع الذاتيات، ثم على ترتيبها، ثم على الفرق بين الذاتيات واللـوازم. ولذلك قالوا إن الحد إنما يتأتى بعد تمام العلم بالمحدود. وإذ كان الأمر كذلك فلا موضع للحد في بدء التحقيق، ولذلك ربما يفزعون في بداية البحـث إلى حد عامي مع الاعتراف بأن الحد الصحيح إنما نصل إليه بعد تمـام العلـم. والعلم لا يتم فيبقى الحد وراء العلم.

وربما يبدأون البحث بذكر الحدود المختلفة ونقضها بإيرادات علـى كلها، ثم يعطون ما كان أقلها خللاً ويتفصون بذلك عن مـشكلات هـذا الأمر. وما ذلك إلا لاتباعهم طريق المنطق في الحد. فلورفضوه و لم يلتزمـوا الجنس القريب والفصل لكانوا في فسحة من الأمر وسلموا عن المعـضلات. ولا شك إن الناس يتعاطون العلوم فيميزون الشئ عن أمثاله ببعض خواصه، ثم بعد ذلك يعرفون جزءاً فجزءاً من الحقائق. ولهذه المعرفة أصـول فطريـة واضحة غير طريق المنطقيين، وسنذكرها في موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(٦)

النظرة السادسة
في التقسيم المنطقي وما فيه من الغرور

التقسيم المنطقي هو الحاصر بالإثبات والنفي. وهذا التقسيم قد تسلط على المتأخرين وجعلوه أحسن الطرق في التعليم، لما يزعمون أنه يطلع علـى العلم الواسع الذي قد حفل بعلم كل ما دخل في التقسيم. مثلاً إذا سئلوا عن الجسم وأنواعه المختلفة أجابوا بالنامي وغير النامي، وظنوا أنهم أحاطوا بعلم كل ما دخل في هذين القسمين بمحض هذا التقسيم. والحقيقة أنهم لا علـم لهم بواحد منهما غير أن بعض الجسم نام وبعضه غير نام والحصر صـحيح، ولكن أين ذلك من العلم بهمـا إذ لا علم لهم بحقيقة النمو كما لا علم لهم بحقيقة الحياة.

ثم جهلهم في طرف النفي أشد، فإن نفي أمر لا يعطي إلا أمرا سلبيا، والتقسيم بين الإثبات والنفي كالتقسيم بين النور والظلمة. والعلم بالنور لا يعطي العلم بالظلمة إلا من جهة أنها خلاف النور، فهو بالحقيقة طرف آخر لعلمه بالنور. والجانب السلبي لا يكون العلم به إلا بعلم إثباتي مـثلا غـير النامي له أقسام، ولكلها من الصفات والأحوال ونسبتها بأشياء أخر مـا لا يحيط به علمه.

وبالجملة فالتقسيم المنطقي طريق موهم للعلم حيث لا علم واستعماله وإن كان جائزاً في بعض الأوقات لتسهيل البيان، ولكنه ليس من طريق العلم

في شئ وقصاراه تمييز المعلوم من المجهول حتى يتوجه إليه فيطلب العلم إن كان ممكنا في الجانب السلبي.

(٧)

النظرة السابعة في عقم استدلالهم عموماً سواء كان في الحد أو القياس

زعم الرادون على المنطق أن الاستدلال في منطق أرسطو سواء كان في التصورات أو التصديقات فإنما يكون بطريق الدلالة التضمنية. وهو الاستدلال بالمعلوم على ما هو داخل فيه، ولذلك يقول المنطقيون إن المعتبر في الحدود هو الدلالة بالمطابقة أو التضمن وهذا ظاهر. وأما القياس فإن استنتاجهم لا يتجاوز ما سلم من قبل، فلا تكون النتيجة إلا ما كان داخلاً في المقدمتين وكذلك الأمر في العكس وعكس النقيض. مثلاً ا هو ب و ب هو ج. فالنتيجة أن ا هو ج، فهذه النتيجة ليست بعلم جديد بل هو ما كان داخلا في المقدمتين. ألا ترى أن من علم مثلاً أن كل إنسان حيوان وعلم أيضا أن كل حيوان حساس فلا بد أن علمه بالأول قد انطوى على أن الإنسانية متضمنة للحيوانية. وكذلك علمه بالثاني على أن الحيوانية متضمنة للحساسية فعلمه بالتضمنين قد حوى العلم الذي استنتجه.

وهذا مثل أن تقول لصاحبك إن ألف درهم في هذه الصرة وأنا أعطيتك هذه الصرة، فعلمه بأنك أعطيته ألف درهم لا يكون علماً جديداً أو علما بعطية زائدة. ولما كان ذلك كذلك كانت هذه النتائج ضرورية لما أنها قد سلمت من قبل، والأمر في المعرف والعكس وعكس النقيض أوضح

من ذلك.

وهذا الرد لا يصح فإن المقدمتين إنما تنتجان إذا جمعتا، وهذا الجمع لا يقع إلا بالتفكر والكد والتفحص غير أني أقول إن هذا الاستدلال التضمني محدود. ولذلك لم ينتفعوا بالمنطق في توسيع العلوم، وإنما ازدادوا بعد تركه وبعد استعمالهم النظر في أحوال الخلق واكتشافها بالتجربة وطلب خواصه بقياس المماثلة.

والإنسان يقتني العلوم بالدلالة الالتزامية، ولا نعني بها ما يسميه المنطقيون التزامية، فإنهم لم يطلعوا عليها و لم يهتدوا إلى طريق الاستدلال بها. ولذلك سد عليهم أبواب العلوم وفتح أبواب الشكوك والحيرة والجهل. وسيأتيك بيانها في موضعها إن شاء الله تعالى... [1]

[1] بياض في الأصل

الباب الثاني

في انتقاد الفلسفة

(١)

ابتداء الفلسفة وانتهاؤها

(١) القدماء من الفلاسفة كانوا يسلمون بـديهيات الفطـرة إلا شرذمة نادرة، وكان جل همهم إبطال هذه الشرذمة وهـم السوفـسطائية. فسعى سقراط

(١) لإثبات حقائق المعارف بالتعريف والتحديد.

(٢) وإثبات النفس بعد مفارقة الجسم.

(٣) وإثبات أن العلم الحق هو كمال النفس.

ثم سعى أفلاطون لإثبات المفاهيم الكلية التي لا تتغير، وزعم أن العلم بها هو العلم الحقيقي، وأن هذا العلم هو كمال النفس. ثم سعى أرسطو للتنقيح وسد أبواب المغالطة في الاستدلال لكي يبطل به شغب السوفسطائية. فوضع صناعة التحليل التي سميت بالمنطق لتعصم عن المغالطات، ووضع ما بعد الطبيعة لتشييد ما بناه سلفه من علم الكليات. ولم يخالفهم إلا بأنه زعم أن المحسوسات هي أجلى البديهيات مع إذعانه ببقاء النفس وبالإله الواحد.

ولكن هذا القول صار معثرة للمتأخرين. فزعموا أن النظري بناؤه البديهي، والبديهي هو المحسوس. فما لا يرجع إلى المحسوس يكون باطلا، فأنكروا بالروح وبقائه وبالإله والمعاد.

ولما كان أكثر هؤلاء المتأخرين مؤمنين بالوحي طلبوا الخلاص من هذه الورطة ولكنهم لم يخلصوا عن طريقهم، فضعف سعيهم وغمرهم

الملحدون. ولا خلاص من أباطيل الفلسفة إلا بنبذها بالكلية، فإنها صارت مشتبكة بأنواع من الضلالة. فمن أراد الخلاص من أشراكها لابد أن يرجع إلى الفطرة وأصلها الراسخ، وهو طريق الحكمة.

(٢)

خطؤهم في الغاية جرّهم

إلى ضلالة عظمى في الديانة

لما كان غاية الفلسفة تكميل النفس بمحض العلم لكي يحصل التشبه بالإله. وقد زعموا أن العلم الحقيقي هو العلم بالكليات، ولذلك كان علم الإله منحصراً في الكليات، فلا جرم كان العلم بالكليات هو الذي يحصل به ذلك التشبه. فعلى هذه صار ما بعد الطبيعة عندهم هو العلم الإلهي من جهتين : جهة الغاية وجهة الموضوع. وهذه الأوهام صارت أم الضلالات، ولنذكر بعضها:

(الف) لما كان أعلى العلم ما كان مجردا عن العمل، وكانوا تصوروا الإله الأكبر منزها عن كل عمل حتى لو فقد لم يتغير العالم عن حاله، رسخ في قلوبهم أن كمال الفلسفي لا ينقص من عزلته وعدم دخوله في مصالح الناس. فكانت العزلة عندهم أعلى الأحوال مناسبة بالإله الأكبر وبمن يجتهد للتشبه به. فلم يقنعوا ببطالة أنفسهم بل كان إيمانهم بالإله الأكبر ما جعل بقاءه عبثا.

(ب) كان الأخلاق الفاضلة عندهم لمحض منافع هذه الحياة، و لم يكن فيها ما يقرب العبد إلى رضى الخالق، بل كان غايتهم التشبه به في العلم فقط. فالفلسفي كان مجتهدا في جعل نفسه مثل الإله مهما أمكنه، ولو

جعلوه معبوداً معظما لفرح بذلك.

(ج) لما كان العالم مظهراً لعجائب الحكمة والقدرة في جزئيات أموره، و لم ينسبوها إلى الإله الأكبر اخترعوا أربابا روحانية دونه، فعبدوهم وتقربوا إليهم. فكانت هؤلاء أحب عندهم من الإله الأكبر، فشيدوا بناء الشرك مع دعوى التوحيد والفلسفة. ويشبههم متأخروهم، فإنهم أولعوا بالعلوم فقط. فمنهم من يسعى أن يجرد العلم عن الإيمان بالإله بالكلية. فإنهم سحروا ممن يدخل ذكر الإله في العقليات حتى من كان منهم يؤمن بالإله لا يجترئ على القول به إلا بعد تمام القول في نهايات العقول وبعد الإقرار بأن ذلك لا يتم إلا أن يؤيده الإيمان بالله، أو يترك طريق العقل بالكلية ويأخذ طريق الإيمان فقط. فهؤلاء خفي عليهم طريق التوفيق والتطبيق بينهما.

(٣)

خطؤهم في موضوع العلم الأعلى

أوقعهم في الظلمة العلمية

(١) كما أنهم كانوا مقصرين في اختيار الغاية للفلسفة التي هي نهاية مبلغهم في العلم، وكذلك أخطأوا في اختيار الموضوع، فاضطربت أقوالهم في تعريفها وأظلم عليهم السبيل. قال أرسطو إن الفلسفة العليا هي منتهى العلم ولذلك هي أوسع وأعم من سائر العلوم، فإن العلوم الجزئية مبنية على أصول موضوعة لا يبحث في تلك العلوم عنها. ولكن الفلسفة العليا تبحث عنها فموضوعها ما هو أعم الموجودات.

وأيضا زعم أن الأفراد والأشخاص تتغير فكذلك علومها، والكليات العليا لا تتبدل فكذلك العلم الذي يبحث عن هذه الكليات. وفي ذلك تقلد رأي أفلاطون ومن قبله، فزعم أن الفلسفة العليا هي علم الحقائق الثابتة. وأيضا تقلد سقراط في أن العلم هو كمال النفس فإنه بناء العمل،فكل سعادة في العلم وبه يتحقق التشبيه بالإله.

ومن هذه الوجوه الثلاثة في الفلسفة العليا اشتبهت حدودها وذلك بأنهم إذ جعلوا الفلسفة العليا باحثة عن مواضيع العلوم صار لكل علم فلسفة فإن المقولات العامة التي بحث عنها أرسطو في الفلسفة العليا لا تفي بحاجات هذه العلوم، فصار المراد بالفلسفة الباحثة عن المواضيع غير ما كان عند

أرسطو.

ومع ذلك أبقى المتأخرون تسمية ما بعد الطبيعة بالفلسفة العليا، وكذلك أبقوا اسم الفلاسفة للذين قد تكلموا قبل أرسطو في حقيقة العالم. فصار للفلسفة العليا ثلاثة مفاهيم : علم المواضيع، وعلم ما بعد الطبيعة وهو علم المقولات، وعلم حقيقة الوجود.

ثم لما اختلفت الأقاويل وكثر القول بالظنون ولم يصلوا إلى حق مبين أحس المتأخرون بحاجتهم إلى أصل محكم لليقين ليبنوا عليه العلم الحق، فرجعوا إلى بداهة العلم. ولكنهم لم يبلغوا أصل البداهة وأساسها، فلا جرم أنهم تشعبوا فرقا. (١) فمنهم من آمن بالمادة والعقل. (٢)ومنهم من آمن بالمادة فقط. (٣) ومنهم من آمن بالعقل فقط. (٤)ومنهم من أنكر بكل ذلك، فوقعوا في الحيرة لا يهتدون سبيلاً. وهذه ظلمة علمية إذ لم يجدوا بناء محكما للعلم، فأفضى بهم سعيهم إلى الجهل واللا أدرية.

(٤)

خطؤهم في أساس العلم

أوقعهم في الظلمة العملية

كانت الفلسفة في أول أمرها باحثة عن الحقائق الخارجية. ولما تبين ضعف مذاهبهم رجع المتأخرون النظر في حقيقة المدارك وجعلوا البداهة أصل العلم وظنوا أن علامة البداهة أن لا يكون فيها مجال للاختلاف، فصار ذلك معثرة عظمى. فإن الناس لا يوجدون متفقين في حكمهم على حسن الأفعال وقبحها. فخرج علم الأخلاق عن الفلسفة الحقيقية وصار من الإضافيات والمشهورات والنواميس الوضعية.

فليس أنهم ضلوا في الديانة فقط بل صار سعيهم في الأخلاقيات ومسائل المعاش من القانون والسياسة الدنياوية باطلا، لأن الفروع إنما تحيى بأصولها. وإذ لم يهتدوا إلى أصل راسخ للأعمال اختل نظامها وتزلزل بناؤها.

(٥)

خدمة الفلسفة للحق على رغم أنفها

(١) من عجائب الحكمة الإلهية أن الباطل يخدم الحق. ومن هذا الباب أن الفلسفة مع زيغها أنتجت فوائد شتى ولنذكر بعضها :

(الف) بعض حماة الفلسفة مع غلوهم في الإلحاد أقروا ببعض الحق، فصار ذلك شهادة من المخالف بعيدة من التهمة.

(ب) بعض ما أقروا به زعماً منهم بأنه يؤيد آراءهم صار من وجه آخر تأييدا للحق، و لم يتفطنوا بذلك.

(ج) قد أنكروا بأمور لا ينكر بها ذو عقل. وإنما زعموا بها للزومها من آرائهم، فعلم بذلك مآل هذه الآراء، فدل على فسادها.

(د) قد برعوا في بعض الصناعات، فدل على قوة نظرهم. ومع ذلك لم يهدهم عقولهم إلى الحكمة الحقة. فعلم أن الحكمة أعلى وأرفع من مبلغهم، وإنما تؤخذ من الأنبياء الذين لم يتعلموا علومهم وأكثرهم علما بهذه الحكمة كان أبعدهم عن تعليماتهم.

(ه) نبذهم الحكمة الحقة كان سببا لإفراغ جهدهم في صناعات دنياوية وكثير من المعارف المفيدة في المعاش. وكان منها ما فيه دليل على صدق ما جاء به الأنبياء، فكانوا في ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه.

(و) الاختلاف الشديد في مذاهبهم يدل على بعدهم عن الحق،

فإن الحق لا يخالف بعضه بعضاً. ولذلك لا ترى الاختلاف في الأنبياء عليهم السلام.

(ز) ذهابهم في كل جانب للتطبيق بين المعقول والموجود ثم خيبتهم في ذلك يدل على أن الضلال صار عليهم ضربا لازبا لتركهم الإيمان بالإله.

(ح) رجوعهم بعد كل سعي بالاضطرار إلى جانب من الإيمان بالإله يدل على أنه لا محيص منه، فهو محيط بهم. وفي ذلك مثلهم مثل عبد أبق عن مولاه حتى إذا لم يجد مخلصا ألقى نفسه في بئر، فوجد فيه سربا فذهب فيه فوجد مطلعا، فاطلع فإذا هو في بيت مولاه.

الباب الثالث

في انتقاد الكلام

تقصير عظيم في أدلة المتكلمين

المتكلمون كان غرضهم إثبات التوحيد والمعاد والرسالة، ولكنهم لسلوكهم طريق الفلسفة لم يعولوا إلا على إدراكات العقل. وبذلك لم يمكنهم إثبات مطالبهم على طريق صحيح، وندلك على طرف من قصورهم

الأول : إنهم يستدلون على وجود الباري تعالى من جهة يقيننا بالخارج، وبنوا أدلتهم على إدراكات العقل. وأرسخها وجود العلة لكل حادث. والصواب أن يستدل بتمام فطرة الإنسان وبكل ما تستيقن به نفوسنا سواء كان من جهة العقل أو من جهة القلب. فإنا كما نوقن بالموجود الخارجي فكذلك نوقن بالمسرة والحزن، والحسن والقبح، والعز والذل، والبر والإثم. وهذه هي أصول بنيت عليها أخلاقنا. فلو لا هذه لم نفعل شيئا بل لم نتحرك حركة بل لم نتفكر فكرة. فإن النفس ما سويت ولا استكملت بمحض العقل وإدراكه بل بما هو فوقه وهو الفؤاد الذي هو مصدر الحكم والإرادة، والأمر والنهي.

ويتبين لك الفرق بينهما عند فسادهما. فمن فسد عقله يسمى مجنونا ويرفع عنه القلم ويرحمونه، ولكن من فسد قلبه وأخلاقه يسمى شريرا ويكثر ضرره، ولا يرحمونه بل يغضبون عليه.

فإن قيل إن الأصول العقلية أرسخ فإن الحق ما هو ثابت بنفسه، وأما قضايا الأخلاق فهي من الإضافيات. قلنا إن أوليات العقل كأوليات القلب نذعن لهما من غير شك، وأما القضايا المستنبطة فالعقليات أيضا إضافيات. فإن الحق عند فريق غير الحق عند فريق آخر، بل الاختلاف في القضايا

العقلية المستنبطة أكثر من الاختلاف في القضايا الأخلاقية. بل أوليات العقل مبنية على أوليات القلب كما سيأتيك في موضعها وهناك نذكر وجوها أخر لرسوخ الأصل الأخلاقي.

الثاني : إنهم لا يثبتون من جهة العقل إلا علة متقدمة وقد استشكل عليهم هذا القدر أيضاً، فإنهم لم يمكنهم إبطال التسلسل على طريق صحيح. وإثبات العلة المتقدمة قليل النفع فإنها لا يلزمها الإرادة. فلم يمكنهم إثبات الخالق، فإن الخلق لا يكون إلا بالعلم والإرادة.

والثالث : إن الديانة ليست محض الاعتقاد بل جلها الأخلاق وحالات النفس التي تبدو في عمل وترك، واستحسان واستكراه، وشوق واستغراق. ومن ههنا ترى المشتغل بمحض الدلائل العقلية يقل حظه من الإحساس الديني. فإن أدرك شيئا فقد غابت عنه أشياء ، فهو محجوب عن إحساس الفؤاد ويظهر حاله من محك الديانة وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر/٢٨).

ومن ههنا تفهم دناءة ديانة اليونانيين مع توغلهم في العقليات. فإن الدين الحق مداره على إحساس البر والإثم. وإذ لم يهتدوا إلى أوليات الفطرة بنوها على الشهوات السافلة من نفع هذه العاجلة. ويتضح ما قلنا من النظر في حكمتهم العملية وعباداتهم. فقد استحسن افلاطون اشتراك الناس في أزواجهم والقربان للأصنام وقتل الأطفال الضعيفة.

والرابع : إن الذي يهمنا في معرفة الباري تعالى ليس محض أنه برأنا بل أن نعرفه بأنه برأنا بالرحمة وربانا بالحكمة، فهو الملك القدوس العزيز

الحكيم والرب البر الرؤوف الرحيم.ولا سبيل إلى إدراك ذلك مـــن محـــض الإدراكات العقلية على طريق هؤلاء ...[1]

[1] كذا في الأصل. (بياض في الأصل إلى ثلاث صفحات).

المقالة الثانية

في تأسيس العلم

وفيها ثلاثة أبواب

الباب الأول

في الميزان

وهو المنطق الأعلى

الموضوع وموضع هذا العلم

اعلم أن موضوع المنطق الأعلى هو نفس العلم من جهة كونه علما وأصلاً لكل ما يتفرع عنه من حيث كونه علما. وإن من علم إلا وهو علم بشيء خاص وإن كان ذلك الخاص أعم الأشياء، فإنه إذا جُعل موضوعا لعلم لا بد أن يشترط فيه العموم، وحينئذ هو موضوع خاص لعلم خاص. وأما إذا جعلنا العلم هو الموضوع فلا بد أن يكون مقدما على جميع العلوم.

فإن قيل أعم الأشياء الموجود فإذا جعلناه موضوعا كان البحث عنه مقدما على كل موجود، والعلم منه. قلنا الموجود من حيث هو موجود مع قطع النظر عن كونه معلوما لا يمكن البحث عنه. وأيضاً إن لم يتعين لنا ما هو الحق والباطل والصواب والخطأ في طريق العلم كيف نطمئن بما كسبناه من العلوم.

فإن قيل إذا جعلنا النفس هي الموضوع كان علمها مقدما على كل علم، فإن العلم من أحوال النفس والذات مقدمة على صفاتها، فالبحث عن الصفات لا بد أن يكون تابعاً للبحث عن الذات. أجبنا أولا بمثل ما أجبنا به من قبل في مسئلة الوجود، ثانيا بأن البحث عن الشئ إنما هو البحث عن

تذكرة: منشأ الضلال هو الخطأ في ترتيب العلم وتأسيسه وفي الغاية، وبذلك صرف النظر عما هو أحق به، فبقي ثلمة لم تسد. فلا بد من تأسيس صحيح ووضع غاية صحيحة.

صفاته لا سيما الصفة التي هي أخص الصفات وأولها وأدخلها في الماهيـــة.

فالباحث عن النفس لا بد أن يبحث عن حقيقة العلم، وهذا لا بد أن يكون أول الأبحاث فيما يبحث عنه في علم النفس والنفس من حيث هي موجـــود جزئي يدخل في الموجودات. وإذا جعلناها موضوعا احتجنا إلى أبحاث أخر وأخذنا في المعلومات قبل الاطمئنان بطريق العلم، فكنا كمن يـبني القـصر العظيم من غير تأسيس.

ومما ذكرنا تبين أن هذا العلم هو أقدم من كل علم، فهـو أسـاس العلوم، وليس هو المنطق المعروف. فإن المنطق يبحث عن العلم المكتسب بطريق الاستدلال بالمعلومات الأولية، فهذه الأوليات لم تدخل في موضوعه، وبهذا ترك الأساس وتعلق بما يبنى. ولهذا جعل الأوليات كالأصول الموضوعة، واعترف واضعه الأول بأن البحث عنها في علم ما بعد الطبيعة، وجعله أعلى العلوم وأعمها. ولكنه جعل موضوعه الأمور العامة كالوجود والعدد وسائر المقولات العامة، فخرج من العلم العام إلى المعلومات العامة، وبقي النظر في أساس العلوم. ولذلك بقي باب الشك والجهل مفتوحا، وكان كمن يبنى بناء في الهواء.

ومما ذكرنا تبين أن المنطق المعروف وعلم ما بعد الطبيعـــة المـسمّى بالفلسفة العليا لم يقضيا حاجتنا إلى النظر في أصل العلم فجعلناه موضـــوعا. والمقصود منه أن نبحث عما يتعلق به العلم أولا واضطرارا، ومن ذلك نطلع على قضايا ضرورية. وليس المراد بها ما يسمونه بالأوليات بل نريد بها ما هو بناء العلم. ولولاه لانهدم بناء جميع العلوم بل بطل نفس العلم واليقين. ومـــن فائدته العظيمة الاطلاع على نهاية العلم فإن الذين أخطأوا في ذلك وقعوا في

اضطراب وتوهمات وحيرة مظلمة، وجعلوا المعلوم مجهولا والثابت معدوما.

فالبحث في هذا العلم عن أمرين :

الأول : ما يتعلق به اليقين اضطرارا وفطرة، فعليه تبنى الحكمة.

والثاني : هو الاستدلال الفطري الذي تركه المنطق، فإنه لا يبحـث إلا عن طريق خاص للاستدلال...[1]

وأما طريق الاستدلال الفطري فبه تفتح أبواب العلوم كلها والإيقان بالحق، وسنبين ذلك في فصل مستقل. وعلى هذا فالمنطق الأعلى لا يكـون علما آليا فقط بل من جهة جزئه الأول يكون أصل الحكمة وأساسها، ومن جهة جزئه الثاني ميزان الحكمة وقسطاسها.

---

[1] بياض في الأصل.

"فإن قيل إن كل علم لا بد فيه من الاستدلال، وطريق الاستدلال إنما يعلم بالمنطق اليوناني، فصار محتاجا إليه. قلنا هذا يرد على منطقكم أيضا ويبطله لبنائه على نفسه. فالجواب إن من الاستدلال ما يكون على طريق البداهة فالإنتاج فيه بديهي، والبديهي يعلم بالضرورة. وقد قلتم إن الإنتاج بالشكل الأول بديهي، فعلى قولكم لم تبق الحاجة إلى منطقكم إذا كان الإنتاج بالبداهة. وليس لكم أن تقولوا إن هذا إنما يعلم بالمنطق، فإن بداهة البديهي غير محتاجة إلى دليل وتعليم حتى تقولوا إنما نحن دللناكم على الشكل الأول. فإن الناس كانوا يستدلون به وبغيره وكانوا يوقنون بصحة النتائج الصادقة وبصحة طريق استنتاجها سواء سموا أقوالهم باصطلاحاتكم أو بغيرها أم لم يسموها بشيء من الأسماء المصطلحة."[1]

[1] وجدنا هذه العبارة كذا في الأصل بدون عنوان فوضعناها هنا كما يقتضيها السياق.

(٢)

طريق الاستدلال الذي يختص بالمنطق الأعلى المسمى بالميزان

فاعلم أن فطرة الإنسان أوتيت سلما للاستدلال بالمعلوم المشهود على الغائب الذي يستدل عليه فيترقى بهذا السلم ويطلع على ما لم يكن يعلم. وذلك بأنه فطر للفكر وطلب العلم الجديد الذي لم يكن له، وذلك لا يكون إن لم تكن نسبة رابطة بين المعلوم والمجهول، فلا بد من بيان هذه النسبة التي بين الأمور وهي على أنحاء . وههنا نذكر بعضها لتعلم الفرق بين الاستدلال التضمني والذي سمينا الاستدلال بالالتزام. فمن هذه النسب: (١) ما هي بين الأثر والمؤثر. و (٢) منها ما هي بين الصفة والذات . فالمشهود ههنا الأثر والصفة، ولكن نعلم من جهة الالتزام لازمهما : المؤثر والذات. (٣) وأيضاً ههنا تمييز بين نوعي النسبة.

ففي الأول نعلم بتقدم الأثر ووجود الأثر. وفي الثاني نعلم بقيام الصفة بالذات وعدم وجودها منفكا عن الذات. ومن ههنا يتبين أن الفطرة تحكم بحكم جديد. فالموضوعات تأتيها من الخارج، وأما الأحكام فتضمها بهذه الموضوعات من عندها، فكان الأحكام موجودة عندها. فليست النفس مثل لوح أبيض كما يتوهمها التجربيون والماديون. بل هي مثل كتاب فيه أحكام بل مثل كاتب يضم الأحكام المناسبة بالموضوعات الواردة عليه. فيضم الوجود والقيام بالغير وأحكاما أخر مثل الحسن والقبح وغير ذلك.

ثم بعد ذلك تجعل الموضوع مع الحكم موضوعا جديدا فتحكم عليه بأحكام جديدة مناسبة مأخوذة من جهة علم النسبة التي بين الموضوع والحكم. وهذا القدر يكفى ههنا. فإن المقصود هو التمثيل للدلالة الإلتزامية التي هي باب العلوم، وإنما سميناها التزامية لكون الاستدلال فيها بالنسبة التي بين المعلوم والمجهول المطلوب تحصيله. وهذه النسب لازمة وهي أعم من النسبة التضمنية. ولو سميناه استدلالا بالسبب كان أقرب من جهة صحة اللسان العربي، فإن هذا الطريق مبني على تتبع ما هومربوط بالمعلوم بسبب من الأسباب. وهذه الأسباب كثيرة كما سنذكرها في فصل آخر مستقل لبيانها.

(٣)

تأسيس الحكمة وموضع المنطق فيه

لا يخفى أن الحكمة هي علم الحق الثابت. والقدماء لم يريدوا بالفلسفة إلا هذا. ولكن أرسطو جعل صناعة النظر أي المنطق فنا مستقلا كالمقدمة للفلسفة. وفي هذا الفن لم يرد إلا صورة الاستدلال، وأما مواده فحولها إلى الفلسفة الأولى وظن أن الفلسفة الأولى هي نهاية العلم كما أن المنطق بدايته. وجعل البداهة بناء العلم وأعم الكليات نهايته. ولما وجد أن هذه الكليات لا توفي بحق العلم تكلم في علوم جزئية لم يمكنه إدخالها في الفلسفة الأولى، وكان ذلك خللا فاحشا في بنائه. فكلامه في الإلهيات والأخلاق جاء على غاية الضعف. وكذلك ترك البحث عن أصل البداهة في منطقه، فكان غير موف لحق ما عليه بناء العلوم.

فالطريق الصحيح أن تبنى الحكمة على أصول العلم واليقين الراسخة في الفطرة، ومن ذلك تنشعب أصول النظر التي يستدل بها في جميع العلوم. ولا يكون ذلك محض علم الصورة كما يوجد في المنطق المتداول. فإذا بحث عن الفطرة وجد فيها أصول علوم جزئية كلها وتبين مقدار العلم الثابت فيها جميعا. ثم بعد ذلك تنشعب منها جميع العلوم بحسب غاياتها ومواضيعها. وعلى هذا الطريق يصير بناء الحكمة راسخا في فطرة النفس والعقل واسعا حسب سعة المعارف المحققة.

(٤)

عموم الكلام في اليقين والمعرفة

لما كان المقصود إتمام الحجة على كافة الناس أكثر القرآن من الحجج الفطرية التي بنيت على شهادة الفطرة الإنسانية. وربما أفحم أهل الكتاب بما هو مسلم عندهم، وذلك لا يخفى. فالأهم هو النظر في المبادي التي هي مغروزة في فطرة الإنسان من حيث هوعاقل فاعل فارق بين الحق والباطل والخير والشر. ومحب للعلم والإيقان والاطمئنان، راغب في أن يكون سعيدا محببا ممدوحا حرا نقيا تقيا. وبعبارة أخرى من حيث أنه إنسان. فلنذكر لك ما هي تلك المبادي الفطرية وندلك على أصولها وفروعها الأولى، والقرآن قد دل على كل ذلك. ونقدم قبل ذكرها قاعدة كلية.

فنقول وبالله التوفيق؛ إن الاستدلال الفطري مبني على اليقين بما لا سبيل إلى إنكاره. وذلك بأن الإنسان مجبول على تسليم ما غرز في طبعه، فإن أنكره بلسانه صدقه بأفعاله وشهادات أحواله، فلا يكون إلا مكابرا صريحا. وهذه قاعدة كلية وأصل راسخ كما ستعرف مما نذكره في ذكر هذه المبادي الفطرية. وحينئذ يتبين لك أن الحجج الفطرية مبنية على المبادي الحاكمة على النفوس، وأن التسليم لها ليس بالاختيار حتى ينكر به منكر، وإنما هو مضطر إلى الإيقان بها بحكم فطرته التي ليست باختياره.

وبالجملة فالنفس لم تكن نفسا ولم تكتسب شيئا من المعارف ولم ترق سلما من السعادة إلا بأن صارت ذات إيقان بما أعطيت من الإدراك

وحب الخير. فهي بفطرتها مدركة راغبة في الخير موقنة بصحة إدراكها الأولى الفطرية. ولا يأتيها الشك إلا في المدركات الثواني، فتنظر فيها حتى يستبين لها الحق الواضح. فإن رغبت عن النظر والفكر استحبت العمى على الهدى فلا ذنب لفطرتها.

النظر في فطرة الإنسان[1]

الإنسان مفطور للرقي إلى أعلى المنازل وهو قربة الرب تعالى. وذلك بما ركب فيه السمع والبصر، وجعل الفؤاد حاكما فيه ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (سورة النحل / ٧٨). أي حين أخرجكم كنتم لا تعلمون شيئاً ولكن جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لتكسبوا بها علماً ومعرفة، وغاية ذلك أن تشكروا. لا يخفى أن السمع والبصر غرفتان للعلم، وكذلك الفؤاد فإنه يستعمل العلم الذي استحصله من الخارج بذريعة السمع والبصر، وإنما يستعمله حسبما ألهم من معرفة الخير والشر.

فهذا الفؤاد إذا توجه إلى الأعلى والمؤثر أحس بوجوب الشكر، لما علم من مجاري النعم عليه. فالفؤاد أيضاً أصل لعلم من الداخل كما أن السمع والبصر أصلان لعلم من الخارج. ثم الفؤاد منبع الإرادة، فهو المتفرد بالأمر والنهي ولا مجال للشركة فيه. ولكنه ذو جانبين، فإن آثر الدنية الفانية نكس خلقته وشوه فطرته وأخلد إلى الأرض أي الشهوات السافلة. وإن آثر ما هو خير وأبقى ترقى إلى العلى، وذلك بأن ما أعد للعلو فهو غايته وكماله. فإنه بالسمع يتعلم النطق وما يلقى إليه، ويتدرج من الانفعال إلى الفعل. ثم إذا قوي يستعمل النظر في الآيات التي بين أيدينا، فيقوى الفعل باستعمال الفكر. ثم من يعرج من الآيات الدالة إلى ما تدل عليه الآيات فيستيقن بعد العلم والفكر

---

[1] ورد هذا النص في المسودة على صفحة كتب فيها المؤلف فهرس الموضوعات لهذا الكتاب. فوضعناه هنا حسب سياق الموضوع.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ (ليعلم) وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام/٧٥). فإن اليقين يتبع العلم والمعرفة.

وإنما جعل الأمر والتصرف للفؤاد لكي يجلس الإنسان على كرسي الخلافة ويجعل أمره بيده وهذا هو الابتلاء كما ابتلى إبراهيم فوق، فجعله إماما كما قال: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (سورة البقرة/١٢٤). فمن لم يوف ونكث كلمة الرب ومال إلى أسفل ورجع خلاف غايته فهو ظالم على نفسه وجاحد حق ربه ومبطل قاعدة العدل، فهو ظالم من هذه الجهة وكفور.

فالإنسان خلق لأعلى استعداده ويلزمه الاختيار، فلا بد له من جانبين ومن الابتلاء. فإن آثر السفل رد إلى أسفل الدركات فإنه تردى من العلو، وإن آثر العلو عرج إلى ما ليس فوقه درجة ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾(سورة القمر/٥٥).وقد بين هذه الأمور في سورة الدهر ولذلك سميت سورة الإنسان.

من إفاداته : (تحليل الحواس)

اعلم أن الحواس تشتمل علي ثلاثة أمور :

(١) إدراك كيفية.

(٢) لذة أو ألم خاص.

(٣) يقين بالوارد الخارج عن المدرك.

(٥)

عموم الكلام في فطرة النفس الإنسانية
وقواها العلمية والعملية

قد وجدنا النفس في فطرتها مدركة ذائقة، وهكذا نرى الحواس فإنها ليس لها محض الإخبار بل لها لذة وألم. فالنفس بإدراكها تحكم بالوجود وكون الشئ شيئا، وبذوقها تحكم بكون الشيء مرغوبا فيه أو مرغوبا عنه. وهذا الطرف هو أصل جميع أفعالها وأعمالها.

وإذ كان الفكر والنظر من عملها، ولا عمل إلا بإرادة ولا إرادة إلا لرغبة ولا رغبة إلا بذوق، فمع أن العلم غير الذوق لا تترقى النفس في العلوم والمعارف أيضاً إلا من جانب الذوق والإرادة والفعل. وهذا الترقي بالفكر، والفكر يكون بالذكر والنظر فيما أدرك من قبل، والذكر لا يكون إلا بالحافظة. وهناك مبدأ أعماله الاختيارية. والاختيار مبني على اختلاف في المرغوبات من حسن حالا ومآلا، وحسن حالا قبيح مآلا. والنفس تسعد أو تشقى بما اختارت في أعمالها هذا أو ذاك. والنفس قد أعطيت التمييز بينهما، ولو لا ذاك لما كانت تلوم نفسها وما لامها أحد على اختيارها الحسن حالا القبيح مآلا، وذلك لمحض الغفلة.

وبالجملة فالنفس أعطيت بالفطرة (١) إدراكا، و(٢) ذوقاً، و(٣) حافظة و(٤) ذكرا، و(٥) فكرا، و (٦) اختيارا، و(٧) تمييزا. فإن اهتدت بتميزها واختارت الحسن الأعلى ناظرة إلى المآل مختارة له سعدت وترقت

وإلا شقيت وتنزلت. وقد بين القرآن ذلك في غير ما آية. فمنها قوله تعالى:
﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾(سورة الانسان/٢-٣).وقال تعالى:
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ (سورة الشمس/٧-٨).

وبالجملة فجماع قوي النفس إلى إثنين علمية وعملية، فالأولى من جانب الإدراك والثانية من جانب الذوق. وهذان الجانبان من الإدراك والذوق مبنيان على أمر جامع عام وهو اليقين بما يؤديان إليهما، فإن النفس لو لم توقن بما أدركته وبما رغبت فيه لم تتحرك لشئ و لم تنشط لعمل وكانت معطلة جامدة هامدة. ولكنها دائبة في الطلب والجهد، وهذا معنى حياتها ومقتضى فطرتها.

وأما الشك فهو عارض، فإنما تتردد وتخالف وتناقض ما أدركت. ثم إن لم يكن لها مفزع آخر لصارت آئسة عن كل عمل وحركة وفكر ونظر. ولكنها مضطرة إلى الأعمال فلا بد إنها لا تناقض فطرتها بل تحكم بما كان أكبر شهادة وأقرب إلى الجمع والتوفيق بين ما أيقنت بها، فترجح بذلك إحدى جانبي الحكم. وربما تخطى في هذا الفعل لزيغ في النظر وبعد عن أوليات الفطرة، ولكن دخول الغلط في جزئيات الأعمال لا يبطل الأصول ولا يهدم الإيقان الذي هو الفطرة التي لا يهدمها شيء.

(٦)

طريق ناقص لإبطال الشك المطلق

اعلم أن من يبطل صحة الحواس والفكر لا يبطل اليقين بل يوقن بأمور لا تحصى. ولا يقبل قوله إنه يشك في كل شئ فإن أعماله تبطل قوله، وجوارحه تكذب لسانه، ولكنه عرض له وهم باطل. فإنه كان يوقن من أول فطرته، وإنما عرض له هذا الوهم لخطأ في الاستدلال. وكان من شدة يقينه بصحة طريق الاستدلال والنظر أنه أبطل ما كان يوقن به، فهل هو يبطل اليقين بغير يقين آخر. كلا. لا يبطل اليقين إلا يقين فوقه.

ولما لم يكن طريق طلاب الحق مكابرة لم يهمهم أن يثبتوا ما كان ثابتا في نفسه، فأعرضوا عن الذين ادعوا الشك في كل شئ وعلموا أنهم متخبطون لا ينبغي الالتفات إليهم.

ثم لما فشا هذا الخبط وتمسك به أهل الهوى وصار عثرة في طريق النظر والعلم التفت بعض المتفلسفين إلى إثبات أساس اليقين من طريق العقل، ولم يكن لهم غير هذا الطريق. وقد اشتهر استدلال مجدد الفلسفة في الغرب، ديكارت (DESCARTES) الفرنسوي على أول ما يوقن به. وقبل هذا المتفلسف قد تكلم الغزالي في الشك المطلق، وقد يئس من دفعه بطريق النظر. فأخذ طريق الفؤاد، ونذكرها في الفصل الثامن.

فأما ديكارت فأثبت أولا وجود نفسه بقوله : "إني مفكر فلا بد أني موجود"[1]. وحاول بذلك سد أبواب الشك، فإنه يدخل فيما يحس ويدرك بالواسطة. فابتدأ بيقين ليس بينه وبين المدرك واسطة، فإن الفكر هو فعل النفس. فبدأ الأمر مما زعمه أقوى البديهيات و لم يعرج إلى ما هو فوقها وأساسها في الفطرة. وتبعه المتأخرون من بني جلدته فضلوا، وذلك لأنهم ذهلوا عما هو أصل البديهيات، والفرع إنما يبقى إذا لم يقطع عن أصله كما قيل :

وكأين رأينا من فروع كثيرة
تموت إذا لم تحيهن أصول

والآن نبين لك مآل الذين توقفوا على البديهيات، وكان هي قصارى سعيهم ومبلغ علمهم، ثم نبين ما هو أصل البديهيات.

تذكرة :

اعلم أن القران صرح كثيرا بأن دين الله هو الفطرة والإنسان مسؤل حسبما أودع فطرته، فيناديه من جانب فطرته ويخاطبه من مركز وجوده. فإن الفطرة أصل علومه وإرادته، فلا علم له حتى البديهيات إلا وهي أصله وأمه. فبها يوقن ويحكم وهي حاكمة عليه.

---

[1] وهو قوله المعروف في الفلسفة، الذي يبين فكرته الأساسية التي تستند على فلسفة اليقين بالشك (Certainty Through Doubt)

فيقول في كتابه (Discourse of the Method): I think therefore I am

وأصله في اللغة الفرنسية : *Cagito Ergo Sum Le Purse, done le suis*

(٧)

الكلام في انقطاع هذا الطريق دون الغاية بذكر ما ورط فرقًا من المتفلسفة في الضلال والحيرة

اعلم أن إبطال الشك من طريق البداهة غير منجح، وقد أفضى هذا الطريق إلى هدم البديهيات أنفسها. والآن نذكر لك ما آل إليه سعي هؤلاء المقتنعين ببداهة العقل وهم المتفلسفة الأقحاح.

فاعلم أنهم ابتدءوا من العلوم البديهية ولا مطلع لهم فوقها. وإذ قد انقطعوا عن الأصل الأول ضعفت مباديهم وتشعبت بهم السبل واضطربت أقوالهم في حد البديهي، فمالوا إلى بعض الحقائق بكليتهم حتى أغمضوا عن حقائق أخر. وذلك ربما لبس عليهم أيضا ما علموه بداهة واستيقنوا به لغلوهم في جانب. فأبطل بعضهم عين ما ادعى ببداهته غيره، فصاروا أحزاباً متشاكسين كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (سورة الروم/٣٢، وسورة المؤمنون/٥٣). ولا حاجة بنا إلى استقصاء آراءهم في فروع العلوم، ولكن نذكر اختلافهم في أول المعلوم الذي هو البديهي وهو الأصل عندهم.

فزعم فريق أن أول المعلوم هو المحسوس فهو الأصل، فكل ما هو غير مبني على الحس وراجع إليه فلا يوقن به. وأول من قال من المتأخرين بذلك

يوحنا لوك[١].

٢- وزعم فريق آخر على هذا الأصل أن العلوم كلها واردات النفس وكل محسوس قائم به، فلا يقين بوجود موجود غير النفس المدركة.

٣- وزعم آخرون منهم أن لا علم ولا يقين إلا بالأثر المحسوس فقط وإذ لا علم إلا به فلا يقين بشئ سواه، لا بمدرك قائم به الادراكُ ولا بمعلوم خارجي قائم به الصفات المحسوسة.

٤- وزعم بعضهم أن لا يقين بشيء وتمسك بأن الحس والفكر كلاهما يغلط فلا معول عليهما. وإذ لا سبيل إلى العلم إلا بهما وقد التبس علينا أمرهما فالهمنا. وهؤلاء عادوا إلى ما كان مذهب المتشككة الأولى.

وبالجملة فأنكر الفريق الأول بالعقل والروح والإله والمعاد. وأنكر الفريق الثاني بوجود هذا العالم المحسوس. وأنكر الفريق الثالث بكليهما غير العلم المحض. وأنكر الفريق الرابع بالعلم واليقين مطلقا فصاروا حيارى متوقفين شاكين في كل شيء. فانظر كيف ساقهم تقصيرهم النظر على البديهيات إلى خلاف البداهة وصريح العمى. فهذا منتهى أمر هؤلاء منتحلي العقل والفلسفة.

ولكن ههنا طريقا آخر وذلك طريق الفؤاد، وهي أقرب إلى الفطرة وسعد بها كثيرون، لما أن الفطرة إذا لم تفسد ساقت إلى الحق المبين، وربما يرجع إليها من مارس طرق العقل والنظر واتبع الفلاسفة حتى إذا أحس بما

---

[١] هو جون لوك John Locke (١٦٣٢-١٧٠٤) من كبار الفلاسفة الإنكليز. وانظر لفلسفته كتابه "مقالة في الفهم البشري" (An Essay Concerning Human Understanding)

يسوق إليه طريقهم من الظلمات رجع عنها. والآن نذكر لك هذا الطريق.

(٨)

طريق آخر لدفع الشك وهو من جهة الفؤاد وهو أقرب من الفطرة

قد سبق في الفصل السابق أن الشك المطلق هادم لكل علم وعمل ومناقض للحياة، فلا بد أن الزعم به ينشأ من سقم يعتري الفؤاد. وقد سمى الله الشك مرضاً كما قال تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ ﴾ (سورة البقرة/٩).وإذ كان مرضا نفسانيا تكفلت الفطرة بشفائه كسائر الأمراض، وذلك هو العلم بكونه مرضا فتحس به ألما وقلقا وتطلب منه خلاصاً. وذلك بأن العلم والإيقان محبب مرغوب فيه والجهل والظلمة والحيرة لا تطمئن بها النفوس، إلا من مات فيه الإحساس بالمرض أيضا. فهو كالمجنون والمغمى عليه، فيعالجه غيره بالتنبيه أو بالدواء. فمن انتبه و لم يجادل المعالج الرفيق يرجى برؤه، وأما من طغى وتمادى في غيه تمكن فيه مرضه وأجلب على نفسه الهلاك. ولا بد أن يترك كما قال تعالى: ﴿ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١٠ ﴾ (الأنعام: /١١٠).

وأما الذي أحس بمرضه فله طريقان:

١- إما أن يرجع إلى الفطرة الأولى التي هي أصل العلوم والاستدلال، وذلك طريق الفطرة في النظر كما سيأتيك ذكرها في الفصل التالي. وذلك طريق من لم يغلب عليه مسلك المتفلسفين العمه.

٢- وإما أن يرجع إلى الفاطر الرحيم الذي جبلت النفوس على الفرار إليه إذا سد عليها كل مخرج وحاقها الظلمات من كل جانب وتقطعت عنها كل حيلة وعجز بها فكرها الذي هو أكبر أعوانها كما وقع بالغزالي رحمه الله. فإنه كما حكى عن نفسه أحس بداء الشك المطلق الذي أوقعه فيه النظر المنطقي فغلب على جميع عقائده حتى إذا ضاق ذرعه وأحاق به ذرعه ابتهل إلى الله تعالى ورجع إلى الفطرة الصحيحة من غرفة القلب. وإذ لم تقعد به همته شمر حتى انكشفت عنه غمته، وذلك هوطريق المتقين الذين تفطنوا بزيغ أهل الباطل فتركوا أوهامهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ۝٢٠٢ ﴾ (الأعراف/٢٠١-٢٠٢).

والتذكر يهدي إلى الرب، وذكره يشفي القلوب وينفي الظلمات كما قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾ (سورة الرعد/٢٨). فاشتغل بذكر الله حتى استبصر، وسطع عليه النور من أفق أعلى غير طريق النظر والفكر فاطمأن قلبه[١].

ولا شك في صحة هذا الطريق العملي. ولكن موضوع هذا الكتاب الكشف عن الفطرة العقلية، فلا ندعو المخاطب ههنا إلا من ذلك الطريق. والقرآن قد حث عليه وفتح أبوابه ومدح أربابه كما هو مبسوط في موضعه. والآن نذكر لك طريق الفطرة.

[١] انظر ما قاله الغزالي في خاتمة كتابه "مشكاة الأنوار" (ص ٥٧).

(٩)

الطريق الحقيقي للعلم واليقين
وأساسهما الراسخ

اعلم أن الإنسان عند بلوغ عقله ونظره في اختلاف الآراء ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (سورة الروم/٣٢)، يطلب أساس اليقين. والمتقدمون من الفلاسفة وقفوا على البديهيات فجعلوها الأصل و لم يبحثوا عما وراءها. فالبديهيات عندهم كالأصول الموضوعة التي سلمت ولم يستدل عليها، ولكن نشأت الشبهات والظنون فيها. فالمتأخرون منهم أحسوا بضرورة النظر في فطرة النفس التي هي الحاكمة بالبديهيات، فكان نظرهم في النفس من جهة البديهيات فقط فازدادوا شبهة وحيرة. و لم يكن ذلك إلا لقصور النظر وزيغ في الإرادة، لما أنهم غمضوا عيونهم عن النور الإلهي فضلوا كما قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (سورة النور/٤٠). والآن نبين لك الطريق الواضح إلى أصل العلم والإيقان، وذلك بالبحث عن حقيقة العلم وعن فطرة النفس من جهة إدراكها وشعورها. فنقول وبالله التوفيق:

فاعلم أن الناس إن لم يتبعوا أرسطو و لم ينظروا في منطقه ورجعوا إلى أنفسهم والتمسوا مبنى يقينهم لكانوا أقرب إلى إيقانهم بأن الفطرة قد اضطرتهم إلى اليقين، ثم لم يبعدوا عن النظر في بناء يقينهم بصحة فطرتهم. فلو تأمل في ذلك ذوو العقول السليمة فإما اطلعوا على معرفة بنائه على ما هو

الأعلى وأرسخ علما، أو كانوا قريباً من الحق فتلقوه من هاد ونذير من ربهم. ولكنهم قد سدوا عن ذلك بما اتبعوا المناطقة، فابتدأوا بتقسيمهم العلم أولا إلى البديهي والنظري فظنوا أن البديهي أول شيء فلم يتوجهوا إلى أصله فكيف بالبحث عن موقعه في العلم واليقين. فلما نشأ السؤال والشك في البديهي تحيروا أو تاهوا في بيداء مظلمة من الجحود واليأس من العلم والإيقان.

تذكرة

ضلالات المنطق

ظن العلم بحقيقة الموضوع لمحض أخذهم العام المشترك مع عدم علمهم بحقيقة هذا العام. مثلا ظن العلم بحقيقة الإنسان بأنه حيوان ناطق ولا علم لهم بالحياة ولا بالنطق إلا بمحض صفات الحياة والنطق، فإنما علموا أسماء وظنوا بعلم الحقيقة. والحق الواضح أنا نعلم الأوصاف وفطرنا بايقان النسبة بينها وبين حاملها، والحامل مجهول عن غير هذا الوجه. وهذا الإيقان بالنسبة هوسلم العلوم ورأس البضاعة، فنبينه ببعض البسط.

بقية الفصل المتقدم

وإذ أخطأوا في تقسيم العلم اختلط عليهم أوثق ما يوقن به بأوهن ما يوقن به. وذلك بأنهم قسموا العلم إلى بديهي ونظري وجعلوا البديهي ما ورد عليك وأيقنت به من غير فكر وتدبر، والنظري ما اكتسبته بالفكر والتدبر من البديهي. وبهذا التقسيم صار البديهي أصلا وأساسا وصار كل ما

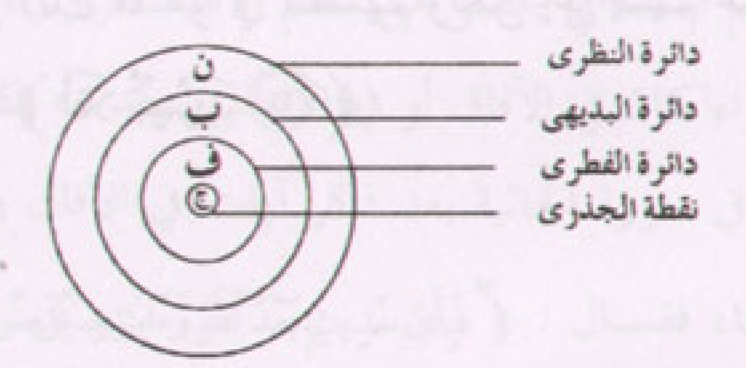
الشيء يذكر بالشيء

ما ذكرنا ههنا من بناء البديهيات على الجذريات في أمر اليقين فكذلك ترى بناء الشهوات و الأماني على ما هو مركوز في الطبائع من الجهل و الغفلة. فإن نبهتهم على أصل الأمر انتبهوا و علموا أنهم على ظن أنهم يخلدون في الدنيا و أن هذا الفاني أحب إليهم من الباقي. و هذا الظن الباطل ينشأ من الغفلة و عدم التذكر لليقين، فإنهم يشهدون وجود الفاني و يرغبون في الكد الذي يتعلق بهذا الموجود، فيغفلون عن تذكر فنائه. و إذا اضطروا إلى هذا التذكر أخذهم القلق فينفرون عما يهدم تلذذهم، فيفرون عن تذكر اليقين حتى يأتيهم اليقين نفسه.

و لولا هذا الظن في بواطنهم لم يظهر أثره، فإن الآثار دليل على المؤثر. و قد نبهنا القرآن على وجود هذا الظن في غير ما آية مثلا : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ (سورة الهمزة/١-٣).فإن تلذذهم و بطرهم بالمال لا يكون إلا بظن الخلود. و كذلك نبه على أن هذا الظن مبني على عدم التذكر لما هو اليقين مثلا : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾(سورة المطففين/١-٤) .أي عدم تذكرهم ليوم الحساب حملهم على التطفيف، و الظاهر أن التطفيف أثر حبهم الشديد للمال. و يشبهه قوله تعالى : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ (سورة التكاثر/١-٢).أي أغفلكم عن تذكر المعاد، و زوال هذه التي غرتكم و شغلتكم حتى هجمكم فشهدتموه.

سواه فرعا ومبنيا عليه وأدون منه في اليقين. وبذلك ذهلوا عما هو أرسخ وأقدم وجودا من البديهي. ومنشأ هذا الخطأ أنهم سلكوا حسب ترتيب الاطلاع وذهلوا عن ترتيب الوجود، وتقدم العلة على المعلول، والأصل على الفرع. ولا شك أن الأصل مقدم في الوجود عموماً، وأما أصل العلم فمقدم في العلم أيضاً. فإنه لو لا هو لم يمكن العلم الذي هو متفرع عليه، ولكن ربما يذهل عن علم هذا العلم، وذلك لا يبطل وجود العلم. فإن العلم أمر، وعلم ذلك العلم أمر آخر. والآن نبين ذلك.

فاعلم وتبين أن لكل شيء ظهرا وبطنا وكذلك للعلم. العقل قبل بلوغه يشتغل بما ظهر ولكنه بعد البلوغ يطلع على ما بطن، فإن العقل يتسع حيناً فحيناً فتتسع دائرة نظره. وإن شئت صورت سعة النظر في صورة دوائر أمواج ناشئة من نقطة واحدة، وجعلت الأمواج والنقطة في صورة طبقات بعضها وراء بعض:



فههنا ثلاث دوائر ومركز. فالمركز هو الجذري ثم دائرة الفطري، ثم دائرة البديهي، ثم دائرة العلوم المكتسبة في كل صناعة. وهذه الدائرة تتسع باتساع العلوم المكتسبة بالنظر ولا تقف عند حد مثل دوائر الأمواج بعضها وراء بعض. فأول ما يشتغل به النظر هو البديهي ثم يسير إلى سمته الخارج. وفي سيره يسوقه الفطري من خلفه وهو ذاهل عنه مقبل على ما بين يديه.

فإذا انتبه أو نبهه غيره التفت إلى خلفه فإذا هو بالفطري الذي أعطاه العلم البديهي وساقه إلى النظريات. ثم مرة أخرى إذا تدبر والتمس ما هو الذي نشأ منه الفطري، فإذا هو بالجذري الذي هو مبدأ علمه. وإن شئت تصوير هذه الطبقات بمثال أحسن وأبلغ راجع فصل[1] (   )، فإنك تجد هنالك تفسير المثل الإلهي في بيان هذا الأمر. فإن المقصود ههنا ليس إلا ذكر درجات العلوم، وأن البديهي إنما هو مبني على ما هو أقرب إليك. وليس ذلك بأعجب مما هو مبدأ الأعمال، ولا مما هو مبدأ وجودك وحقيقتك.

فالناس يوقنون بالخارج الظاهر المحسوس وهم ذاهلون عن أنفسهم. وأصل اليقين إنما غرس فيها، قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الذاريات/٢٠-٢١). فلليقين آيات في الأرض، وتلك مع ظهورها قد يخفى على كثيرين كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (يوسف/١٠٥). بل أكبر من ذلك ما هو في أنفسهم ولكن إعراضهم عنه أكثر. ولذلك نبه عليه بقوله: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

[1] كذا في الأصل.

(١٠)

انشعاب العلم من أصله الراسخ حسب درجاته

اعلم أن العلم منه اضطراري لا يكون مبنيا على الاستدلال، فإن الاستدلال لابد من بنائه على علم موجود من قبل في فطرة النفوس. وليس من الضرورة العلم بهذا العلم. ومن ههنا يخفى على الناس هذا العلم مع كونه ضروريا موجودا، وهو مبسوط في موضعه. وإنما المقصود ههنا ذكر العلم حسب درجاته.

فالأول : هو هذا الذي ذكرنا وهو الأصل والأساس لكل استدلال، وذلك هو العلم بالله تعالى فإنه من أول الضروريات.

والثاني : هو علم استدلالي يحصل من العلم الاضطراري، وذلك يسمى علما بالآيات سواء كان في الآفاق أو في الأنفس. وقد نبه القرآن على هذا الأصل حيث ذكر في سورة الجاثية بعد ذكر آيات في الآفاق وآيات في النفس وآيات هي فيهما، فقال: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الآية:٦). فنبه على أن الإيمان بالله هوأول العلم، وجعله مقابلا لدلائل الآيات. وذلك بأن الله تعالى فطر النفوس واضطرها للعلم والإيقان، وكذلك اضطرها للفكر والنظر في الآفاق وفي الأنفس بما أودعها من القوى العقلية والأخلاقية اللازمة لماهيتها الحاكمة عليها. فالإيمان بالله تعالى مودع في فطرة

مجرد العلم، وآيات الأنفس والآفاق كلتاهما داخلة تحت العلم، والعلم داخل تحت فطرة النفس، والفطرة حاكمة عليها لا محيص لها عنها.

والعلم الاضطراري لا يستدل عليه ولكن ينبه عليه. ومثال ذلك النور والبصر، فإنك ترى كل شيء بهما فتوقن به. وأما إيقانك بالنور والبصر ففي فطرتك. وربما لا تلتفت إلى وجودهما واليقين بهما، فإذا نُبهت على ذلك استبصرت. وبسط هذه المسئلة في موضعها. وإنما المقصود ههنا التنبيه على أقسام العلم حسب درجاته، وحينئذ فيكون بيانه هكذا :

العلم درجتان :

(الف) اضطراري وهو :

(١) العلم بالباري تعالى.

(٢) العلم بربيته (النفس والخارج).

(ب) استدلالي وهو :

(١) العلم بصفات الباري تعالى.

(٢) العلم بأحوال بريته (النفس والخارج)

بيان العلم الاضطراري
ببعض التفصيل

الأصول الفطرية التي هي مجارى اليقين
وهي المبادئ لجميع العلوم والأعمال

قد سبق أن القرآن جعل بناء الحجة على اليقين الضروري الفطري الذي لا يسع العقل أن يعصيه، وهو ينبوع جميع علومه وأعماله ونظره واستدلاله. وهو مودع في غور فطرة النفس مكنون كاللب وراء القشور والروح وراء الستور. ولكن يجري منه الجداول، فنقدم الكلام فيما هو أقرب حتى تستعد للنظر فيما هو ألطف وأدق.

فاعلم أن لليقين الفطري مجاري إلى المدركات، وذلك إلهامات. لولاها لم يكن لنا علم ولا بداهة ولا نظر ولا استدلال، بل لولا هي لم تكن لنا حياة فكيف بفكروإرادة وفعل وعمل. فننظر في حقيقة هذا اليقين وما تضمن من الأصول :

أصل يقيننا بالعالم الخارج المحسوس والبحث عن هذا اليقين

الأول : هو "أن لكل أثر مؤثرا". وبيان ذلك أن لنا ولكل ذي حياة يقينا بموجود في الخارج، ولا يظهر ذلك الا بعد علم حسي بـه. ومحض الإحساس لا يعطيك يقينا بالموجود في الخارج، فلا بد أنك تستدل بنوع من الاستدلال الفطري من الأثر على المؤثر مثلا إذا لمست جسماً أيقنت بأن الملموس شئ موجود في الخارج، فإن الإحساس ليس إلا حالة خاصة تعتري الحاسة. فإن لم يكن هناك حاكم بأن لهذا الأثر مؤثرا كان من المحال أن توقن بشئ خارج عنك، ولكنك موقن بعالم خارج ولا سبيل إليه من مجرد الحس

به. فاتضح أن في فطرة نفسك حاكما بأن لكل أثر مؤثرا، وهذا الحكم فوق إرادتك فلا تعصيه. ولذلك قلنا إن هذا استدلال فطري. فإنك تستدل ولكن من غير اختيار وتفكير، بل لو أردت خلافه لغلب عليك سلطان الفطرة. فلا ترتب مقدمات بل توقن بنوع من الإلهام الذي أعطى للنفوس كما أعطى لها جميع الحواس وقوى أخر. فعلمك بشئ ويقينك بوجوده ظهور قوة العلم واليقين الذي وضعت في فطرتك وأودعت جذر نفسك كما سبق.

أصل يقيننا بالفرق بين النفس والخارج

الثاني : هو "أن النفس ذات غير صفاتها". وبيان ذلك أن إذعان النفس بالخارج مبني على إذعانها بكونها غير الخارج، فلا بد أن النفس قد ميزت بين الحاس العالم وبين المحسوس المعلوم وإلا جعلت المحسوس متحدا بها فلم تذعن بكونه خارجا عنها.

وعلم النفس بكونها غير المحسوس الخارج ليس متفرعا على استدلالها من الأثر على المؤثر بل هومن شرائطه ومقدماته. فإن النفس كما تميز بين ذاتها وبين الخارج المحسوس، فكذلك هي تميز بين ذاتها وبين المحسوس الداخل الذي هو الأثر الوارد عليها والعارض لها. فلم يمكن لها ذلك إلا لأنها تميز بين الحامل والمحمول، والذات المقومة والعارض لها. وهذا التمييز حاكم عليها وإلهام فيها، وليس مكتسبا فتحصله النفس بالتفكير وترتيب المقدمات كما قلنا في يقيننا بوجود المحسوس الخارج. وهذا التمييز العلمي أقدم وأرسخ من يقيننا بالخارج، لأنه أصل بني عليه يقيننا بالخارج.

(أصل يقيننا...)[1]

الثالث : هو "أن الصفات لابد لها من ذات تحملها". وهذا داخل في ما ذكرنا في الإلهام الثاني من تمييز النفس بين ذاتها وصفاتها. فكما أنها موقنة بوجودها وجودا حاملا، فكذلك هي موقنة بوجود صفاتها وجودا قائما بها.

(أصل يقيننا بكون النفس ذات اختيار وتصرف)

الرابع : هو "أن النفس ذات إرادة واختيار وفعل". وبيان ذلك أن النفس كما هي ذات علم وإدراك فكذلك هي ذات لذة وألم، ورغبة ونفرة، واختيار وإرادة، وفعل وتصرف. فإنها تميل إلى شئ وتكف عن آخر، وتحكم بكون أمر حسنا وآخر قبيحا، ولا يكون ذلك إلا بأنها تميز بين المرغوب والمكروه وبين الفعل والترك. ولولا يقين لها بالاختيار والتصرف لما أرادت فعلا ولا جهدت لشئ. وكما أن يقينها في باب العلم ملهم، فكذلك يقينها في باب الفعل والإرادة ملهم فطري.

(أصل يقيننا بالجبر والانفعال)

الخامس : وهو منطو في الرابع وذلك "أن هناك منفعلا غير النفس". فإنها لو لا أيقنت بذلك لم تبسط يدا و لم تقبض على شيء ففعلها مبني على يقينها بانفعال غيرها، وأول جريانه في استعمال قواها الفطرية والحسية والآلها الجسمانية. فإذا حركت يدا ومدتها إلى محسوس أو قبضت على شيء، وكررت هذا الفعل تيقنت بتصرفها فيما هو خارج عنها، فتيقنت بكون الخارج المحسوس منفعلا لها ومتأثرا لعملها.

---

[1] بياض في الأصل.

السادس : "التمييز بين المدرك واللامدرك". النفس تميز ذاتها عما ليس مثلها، فإنها تجدها متصفة بصفات الإدراك والإرادة والحب والكراهة وتجد صفات أخر تدركها. ولا تجد نفسها حاملة لها فتوقن بأن حاملها غير مماثل لها. وإذا أيقنت بأن لكل صفة حاملا فتوقن بموجود متصف بتلك الصفات. ومن ههنا لم تزل موقنة بالأجسام، ولولا ذلك لم توقن بالخارج المحسوس ولم تجعله موضع تصرفها وعملها.

السابع : "التمييز بين الخير والشر، والبر والإثم، والقسط والظلم". كما أن النفس تحكم بالموجود المدرك واللامدرك، والحامل والمحمول، وكما تحكم بمرغوب ومكروه فكذلك تحكم بالفرق بين مرغوباتها ومكروهاتها. فلا تجعل كل مرغوب فيه خيرا وبرا ولا تجعل كل مكروه شرا وإثما. وبذلك تجدها بين جاذبتين: عالية وسافلة، وتحس بمناقضة واختلاف في ميلها. ومع ذلك تعلم العلو من السفل والطيب من الخبيث فتمدح وتذم ، وتعظم وتلوم، وتفرح وتستحيي، وتغار وتحمى.

الثامن ....

تذكرة :

النفس تحس بكونها تحت أمر وقدرة من الخارج، فإنها تراها منفعلة وتراها تحت سؤال وملامة وتراها راغبة فيما تراه أحسن وأعلى. فكونها ملهمها بتقوى وفجور مع رغبتها في الفجور يدلها على إيقانها بكونها ذات رجس بالفعل قابلة للتزكي بالتقوى. وحبها للخير دليل على إمكان الخلاص لا على كونها طاهرة.

بيان العلم الاستدلالي ببعض التفصيل

مما مر في الفصل (   )[1] يظهر أن العلم الاستدلالي مبني على إحدى ثلاثة مباني :

١- صفات الباري تعالى اللازمة.

٢- أحوال النفس المشهودة.

٣- أحوال ما في الخارج المشهودة.

أما الأول : فيحتج به أولا على كل من يقر بالإله والدين، وهم الجمهور من العرب واليهود والنصارى بل أكثر الأمم سواء كانوا مشركين أو مبتدعين، فإنهم أجمعين كانوا مقرين بالإله سواء وحدوه أو أشركوا به. وأيضا يحتج به ثانيا على جميع الناس، وذلك بأن الصفات يكون العلم بها من طريق الاضطرار وأيضا من طريق الاستدلال بالآيات الآفاقية والأنفسية. وهذا مبسوط في موضعه.

وأما الثاني والثالث: فيعم الناس كافة. وقد نبه القرآن على هذه الأصول حيث قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ (أي البعث) الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ (فصلت/٥٣-٥٤).

---

[1] كذا في الأصل، لعل المؤلف يشير به إلى الفصل العاشر من الباب الأول، وهو "انشعاب العلم من الأصل الراسخ حسب درجاته".

الاستدلال ههنا على المعاد، فنبه على ابتناء ثبوته على (١) آيات في الآفاق و (٢) آيات في الأنفس، و (٣) على صفات الرب تعالى. وهو الإحاطة بالعلم و بسائر وجوه الإحاطة من القدرة والرحمة والملك، كما صرح به في مواضع.

وانظر في نظم هذا البيان، فإنه قدم الدليل العام المخاطب به الجمهور. وفي ذلك قدم دلائل الآفاق لظهورها على العامة. ثم أتبعها ذكر آيات الأنفس فأخرها لما فيها من الغموض مع كونها أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب. ثم تدرج إلى دلائل الصفات واختار أسلوب الاستفهام والتأكيد بما قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ ﴾. وجاء بقوله ﴿ أَلَآ ﴾ مرتين وصرح بأن هذا الدليل بنفسه كاف، فإن صفات الرب ثابتة عند العقل، ولكن الناس قد يذهلون عنها فاختار التنبيه والتأكيد. فكأنه قيل لا مجال للإنكار بالمعاد بعد العلم بأنه تعالى يشهد أحوال عباده ويحيط بهم من كل وجه. ولهذا النمط نظائر لا تحصى وستعرفها في مواضعها، وإنما المقصود ههنا التنبيه على أقسام الأدلة حسب مبانيها.

الاستدلال على وجود العلم الذي هو أصل البديهيات

الموجود لا يلزمه أن يكون معلوما إلا لمن يحيط علمه بكل موجود، ولكن المعلوم يلزمه أن يكون موجودا إلا إذا كان العلم وهميا. وفي الحقيقة لا ينبغي أن يسمى الوهمي معلوما. فإذا كان عدم علمك بموجود لا يخرجه عن الوجود، فعدم علمك بعلم فيك لا يدل على عدمه فيك. فإن وجود العلم غير العلم بوجود ذلك العلم. ألا ترى أن العلم التفصيلي منطو في العلم الإجمالي، ولكنه يحتاج إلى نظر ثان. فإذا كان ذلك كذلك تطلع على وجود علم فيك بدليل، والاستدلال على الشئ يكون على وجوه كما هو مبسوط في موضعه، وإنما نذكر ههنا وجهين كليين :

الأول : هو الاستدلال بالأثر، فتستدل على وجود هذا العالم بأثره، كما تستدل على سائر الموجودات بآثارها. فإن الآثار تدل على المؤثرات، فإذا وجدنا أثرا من العلم استدللنا على وجوده سواء كان ذلك العلم معلوما أو لم يكن. ألا ترى أنك ربما تنسى شيئا ثم تتأمل فتتذكر، فلو لم يكن الشئ في حافظتك لم يمكنك ذكره. والعلم في حافظتك لا يسمى معدوما إنما هو مذهول عنه. وهكذا الأمر في الاستدلال. فربما يقع الفكر والاستدلال مع عدم العلم بذلك، وهذا هو الذي يسمونه حدسا. وهكذا الأمر في سائر قوى الحس والعقل. فإن إبصارك إنما يكون في النور ولكن بصرك موجود من قبل، فإن النور لا يخلق القوة الباصرة ثم تبصر. وربما لا تلتفت إلى أن فيك

قوة البصر، فالعلم بقوة البصر يقع بعد وجودها بل لا تلتفت أولا إلى وجود النور. فإنه يكون التفاتك إلى ما ظهر بالنور كما أنك لم تلتفت أولا إلى وجود باصرتك حتى استدللت عليها بآثارها بالنظر الثاني.

والثاني: هو الاستدلال بعدم الأثر عند ذهاب المؤثر، وهو مثل الأول في الدلالة على افتقار الأثر إلى المؤثر ولكنه أوضح منه. فإنك مثلا كنت تبصر في النور حتى إذا ذهب النور وغشيت الظلمة على المرئيات انتبهت على وجود النور، فالافتقار أشد ظهورا عند ذهاب المفتقر إليه. كما أن افتقار السقف إلى العمد أشد ظهورا ، إذا أزيلت العمد فخر السقف. وهذا أصل مهم، نبسطه في موضع آخر.

وأما ههنا فنجري الكلام إلى سمته، وهو وجود العلم مع عدم العلم به فنقول إن العلم الموجود في فطرتك هو الذي تطلع به على ما تجعله من الظاهر البديهي. فإنك إذا نفيت ذلك العلم وأنكرت به تهدم بناء البديهي. والذين جعلوا البديهي أصلا مستقلاً بنفسه وذهلوا عن أصله الحقيقي قد أنكروا به ووقعوا في شك مظلم، فشكوا في كل شيء، ونبين ذلك في موضعه[1] . والآن إنما نذكر ما عاقهم عن العلم بهذا العلم الفطري، فكيف بالجذري الذي هو وراءه. وقد نبه القرآن كثيراً على هذا العائق فإنه معظم أسباب الجهالة والضلالة، فنقول وبالله التوفيق.

---

[1] انظر الفصل السادس من الباب الأول.

بيان العائق عن العلم الفطري الموجود في النفوس

من الأمثال السائرة لكل شيء آفته، وللعلم آفات ولاغرو، فإن سقم العقل ليس بأعجب من سقم البدن. ألا ترى الحواس تسقم بل تبطل وتنعدم. وإذا كان ذلك كذلك فلا بدع ولا عجيب أن يعتري العقل أو الفؤاد مرض فيغشى عليه بل يطفئ نوره فيعميه. فالعلم الذي أودع في فطرة الإنسان لا يلزمه أن يكون ظاهرا بينا على الناس كلهم، بل لجلالة قدره هو أجدر بأن لا يصل إليه أيدي المشتغلين بالدني السافل، المستكبرين عن خضوع التعلم ومشقة النظر. فإن الاشتغال بالأسفل يعوق عن المعالي، وكذلك الاستكبار عن المشقة يمنع عن المكارم. وقد غلب هذان على الناس أجمعين إلا أولي البصيرة وقليل ما هم. ولذلك قد أكثر القرآن من الدلالة على أدواء النفوس لا سيما هذين الذين ذكرنا. قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة المطففين/١٤). قوله: ﴿ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾. متوجه إلى ما سبق من ذكر حرصهم الشديد على المال. والحب يعمي ويصم لما يشغل القلب، كما قال تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾ (سورة التكاثر/١). والاشتغال بشيء يغفل عن غيره، فنبه على أن حرصهم الذي حملهم على الخيانة صار ظلمة على قلوبهم فلم يبصروا، فلو لا هذا الرين لأبصروا. وأيضا سمي ذلك غطاء، فنبه على وجود البصر والمرئي ولكن الرين والغطاء صار

حجابا، كما قال تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (ق/٢٢).

وأوضح من ذلك قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴿٢٣﴾ ﴾ (الجاثية/٢٣).فبين أن العلم كان موجودا عنده ولكنه غفل عنه، فضل بعد العلم. وربما ينجر الغشي إلى الموت، كمن تناول مخدرا شديدا فأهلكه أو كمن فقأ عينه فلا يرجى برؤه، كما قال تعالى : ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (البقرة/١٨). وهذا ذكر إذهاب النور الذي فيه، فإن الذي لا يقدر النعمة يوشك أن يسلبها بالكلية.

وبالجملة فأودع الله فطرة الإنسان العلم والفكر كما أعطاه السمع والبصر، فإذا لم يستعمل ذلك بطل عمله وضاع، فإنه لم يشكر على النعمة كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ (أي الإنسان) سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾(سورة الإنسان/٢-٣). وقال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة إبراهيم/٧). وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة محمد/١٧). فالهداية الأولى مودعة فطرة ولكن من شكر أعطي المزيد، ومن كفر يسلب الأولى أيضا كما جاء كثيرا، مثلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (سورة المائده/٦٧).

وإنما قدمنا ذلك لتعلم أن صحة العقل والفؤاد أهم من صحة صورة الاستدلال ورعاية شروط الأشكال، كما أن صحة النظر أهم من صحة المنظار. والمنطق إنما يبحث عن صور الأدلة وأجزائها، ولكن الأهمية كل الأهمية للنفس المفكرة وفكرتها وبناء علمها وإيقانها.

أقسام الاستدلال

لابد للاستدلال من بناء، وهو ما قد أوقن به من قبل ولابد أن تكون نسبة بين البناء وبين ما يبنى على ذلك البناء، وهي نسبة الملازمة بأنه إذا سلم البناء لزم التسليم للمبنى. والبناء المسلم من قبل إما أن يكون فرعاً لأصل أو بالعكس. والملازمة بين الأصل والفرع محققة. فالاستدلال يكون على ثلاثة أقسام :

(الف) : الاستدلال بالفرع على أصله، فإن وجود الفرع دليل على وجود أصله.

(ب) : الاستدلال بالأصل على فرعه، فإن الأصل يتضمن فروعه. والنظر في الأصل يدل على ما يتضمنه من الفروع وإلا لم يكن الأصل أصلا ولا الفرع فرعا.

(ج) : الاستدلال بالفرع على فرع آخر بوساطة ثبوت الأصل، فإن الفرع أولا يدل على أصله، ثم الأصل يدل على سائر الفروع.

وهذه الأنواع يستعملها الإنسان بالفطرة في جميع أفكاره وأعماله، وإنما يقع فيها الزيغ والخطأ لإعراضه عن النظر والفكر في النسبة التي بين الأصل والفرع. والآن نذكر لك قاعدة لمعرفة هذه النسبة.

قاعدة لمعرفة النسبة التي بين الأصل والفرع في العلم والإرادة

اعلم أن العلم بالنسبة بين الأصل والفرع، سواء كان في جانب العقل والعلم بالوجود أو في جانب الفؤاد والعلم بالخبر، يكون بوجهين: وجودي، وعدمي.

أما جانب العقل: فالوجودي فيه أن الفرع يدل بالذات على وجود الأصل، فإن الفرع يتضمن النسبة الفرعية إلى أصله. والعدمي فيه أن الأصل إذا نزع بطل الفرع، كما أن الأساس إذا هدم انهدم البناء.

وأما جانب الفؤاد: فالوجودي فيه أن الأصل يكون أفضل من الفرع الذي هو المقصود لأجل الأصل. والعدمي فيه أنه إذا فرض عدم الأصل يسلب النفع الحقيقي من الفرع. مثال العدمي في جانب القلب قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف:١٧٩).

أي إذا خلا الفرع عن الغاية الأصلية بطل نفعه، فوجوده كعدمه. فهذا مثال بطلان نفع الفرع عند بطلان الأصل. والمثال الجامع لكل هذه الأقسام الأربعة تجد في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (إلى قوله) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ الآية (سورة النور/٣٥-٤٠). فإن في هذه الآيات ثلاثة أمثلة:

الأول: في الوجودي في كلا جانبي العقل والفؤاد، فإن المؤمن على

بينة ونور في علمه واطمئنان وسرور في عمله. فهذا جامع للجانب الوجودي في العلم والإرادة.

والثاني: في العدمي في جانب الإرادة، فإن الكافر يعمل لغير غاية.

والثالث: في العدمي في جانب العلم، فإن المنكر لا بناء لعلمه فليس على بصيرة. وإنما هو الأعمى المحض.

هذا، وأما استعمال هذه القاعدة فإنك تحتاج إلى صحة فطرتك مطلقة لتميز بها بين الحق والباطل وجودا، والخير والشر أثرا. ولذلك تستدل بوجود الفرع على وجود الأصل علماً. وترغب في الفروع لرغبتك في الأصل، أي تبتغي الوسائل للوصول إلى الغاية.

وأما الاستدلال بالفرع على الأصل بالوجه العدمي صراحة وبالوجودي كناية فمثاله تجد في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿٢٢﴾﴾ (سورة الأنبياء/٢٢). أي لو فرضنا قوى متعددة في السماوات والأرض مستقلة بأنفسها غير مقهورة تحت قوة واحدة يرجع إليها كل تدبير، لم يكن فيهما من يجريهما على نظام واحد يصير به إحداهما صالحة للأخرى، حتى يخرج من بينهما مصالح للخلق. بل كان وجهة كل خلق على حياله، وهذا هو عين الفساد. ولكنا نرى الأمور منظومة تحت تدبير واحد، وذلك يدل على ذات واحدة. ففرض انعدام هذا المدبر الواحد يستلزم الفساد والاختلال، واللازم باطل مشاهدة فكذلك الملزوم والاستدلال الوجودي منطو فيه، فإن المشاهد هو النظم المتقن وهو الدليل على الأصل الذي هو كون العالم تحت مدبر واحد.

تقسيمات الأدلة من جهات مختلفة

اعلم أن الأدلة تنقسم من جهات مختلفة فيتداخل هذه الأقسام لاختلاف جهات التقسيم، ولنذكر معظم هذه الجهات :

(الف): من جهة الغاية. فتارة تكون لإثبات وأخرى لإبطال، وهذا تقسيم عام.

(ب): من جهة النسبة التي بين الدليل والمدلول عليه. فإنه لابد من نسبة بينهما وإلا لم يكن أحدهما دالاً على الآخر، وكذلك لابد من كون الدليل معلوما مسلما من قبل وإلا لم يكن البناء عليه. فأما إذا كان الاستدلال لإثبات بإثبات متقدم فهذه النسبة على نوعين:

الأول: هو نسبة الاشتمال، وذلك اثنان : المركب والجزء، والخاص والعام. وأول المعلومات المركبات والخواص، فيستدل بالمركب على الجزء وبالخاص على العام. ونسمي طريق الاستدلال فيهما التحليل والتفصيل.

والثاني: هو نسبة الالتزام بين الخارجين المتلازمين، وذلك أيضا اثنان: المعلول والعلة، والصفة والموصوف. وأول المعلومات المعلول والصفة، فيستدل بوجود المعلول على العلة وبوجود الصفة على الأصل. ونسمي طريق الاستدلال فيهما التعليل والتأصيل.

وأما إذا كان الاستدلال لإبطال أمر بمسلم متقدم سواء كان إثباتاً أو نفيا، فلا يكون ذلك إلا بالخلف بين المسلم المتقدم إثباتا أو نفيا وبين خلافه. وهذه نسبة الخلف على نوعين :

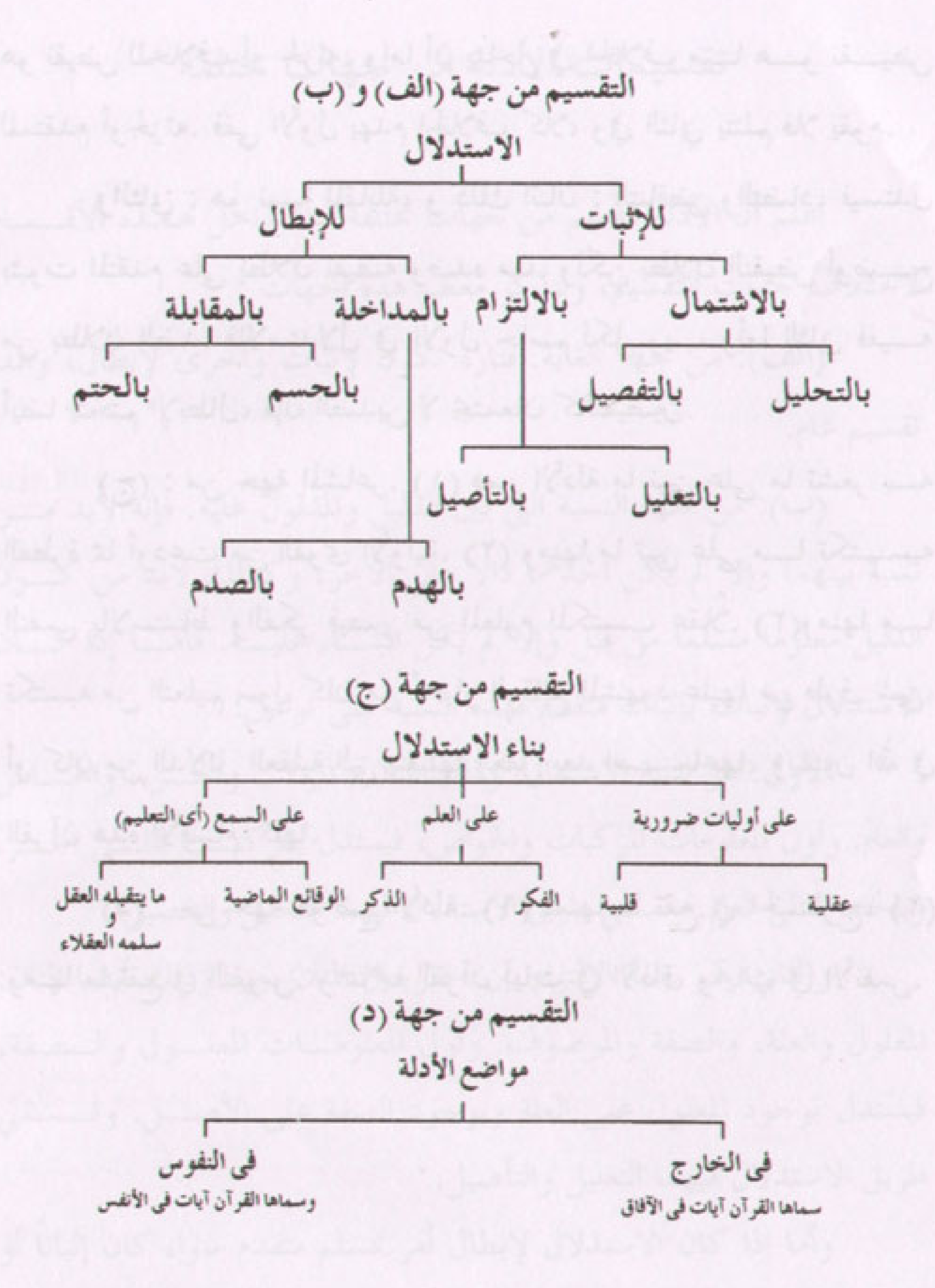
الأول : هو نسبة المداخلة، وذلك اثنان : فإما أن يدخل في المتقدم ما

هو نقيض للخلاف أو لجزئه، وإما أن يدخل في الخلاف ما هو نقيض للمتقدم أو لجزئه. ففي الأول يهدم الخلاف كلا، وفي الثاني يتثلم فلا يقوم.

والثاني : هو نسبة المقابلة، و ذلك اثنان : التناقض والتضاد، فيستدل بثبوت المتقدم على بطلان نقيضه وضده معا. ولكن بطلان النقيض أوضح من بطلان الضد. فالاستدلال في الأول حاسم لكل ريب وأما الثاني ففيه أيضا يتحتم الإبطال، فإن الضدين لا يجتمعان كالنقيضين.

(ج) : من جهة المشاعر. (١) فمن الأدلة ما تبنى على ما تشعر به الفطرة بما أودعت من القوى الأولية. (٢) ومنها ما تبنى على ما تكتسبه النفس بالاستنباط والفكر فيصير من المعلوم المكتسب عقلاً. (٣)ومنها ما تكتسبه من التعليم سواء كان من أخبار الوقائع المشهود عليها من طرق شتى، أو كان من الدلائل العقلية التي يتقبلها العقل بعد استماعها. وبين الله في القرآن هذه الأقسام كلها.

(د) : من جهة مواضع الأدلة. (١) فمنها ما تقع في الخارج، (٢) ومنها ما تقع في النفوس. وسماهما القرآن آيات في الآفاق وآيات في الأنفس.



من المقالة الثانية

التي هي في تأسيس العلم

الباب الثاني

في الحكمة البازغة

الفرق بين الفلسفة والحكمة من جهة الغاية

(١) استعمال العقل لا يكون إلا لغاية، فالفلاسفة مولعون بالعلم وتكميل النفس.

١- أما اليونان فمعظم همهم إكمال النفس بالعلم، وقد صرحوا بذلك وظنوا أنه تشبه بالآلهة وأن كل خير في العلم ومعنى الفلسفة، وهي كلمة يونانية، حب العلم.

٢- وأما الهند فمعظم همهم زيادة قوى النفس، فطلبوا الكشف والنجوم والسحروزيادة العمر والاستمداد بالروحانيات.

٣- ومنهم من زعم أن الحياة أم الآلام، فطلبوا النجاة منها بتجريد النفس عن كل شهوة جسمانية لكيلا يبقى فيها حاجة فلا تعود إلى الحياة أبدا. وهذا فلسفة بوذا والهنود. أكثرهم يزعمون أن النفس بعد التجرد التام تصير إلهاً، فالألوهية عندهم صفة تحصل بالتزكي.

وطائفة من الفلاسفة أولعوا بالصناعات المفيدة في العيش الدنياوي من الطب والسحر والنجوم والهندسة والموسيقى والطبيعي وسائر الصناعات. فهؤلاء مستخدمون للعقل. (١) إما للذة العلم وإكمال النفس به، و(٢) إما لمنافع هذه الحياة، و(٣) إما للخلاص عن آلام الدنيا.

(٢) وأما أهل الإيمان بالإله الواحد، وهم أتباع الأنبياء الذين أخبروهم بالآخرة، فغايتهم ما وراء هذه الحياة. وذلك بأنهم عرفوا الرب تعالى بكونه حيا قيوما ربا رحيما قدوسا حكيما، فأحبوه وتقربوا إليه وحده.

فالأساس الذي عليه بناء أفكارهم وأعمالهم هو محبة الرب تعالى والرغبة في قربه بالشكر والطهارة والإحسان. فهم دائمون في ذكره، راجين لقاءه بعد هذه الحياة.

وبناء مذهبهم على معرفتهم بالرب وبالخير، وبأنه هو وحده منتهى الكمال والحسن والجود، فإليه تقربوا والتمسوا طريق الوصول إليه. فاستعمال عقلهم لأجل معرفة الخالق لكي يطمئنوا بالإيمان به وتحصيل رضاه بالأعمال الحسنة. فمن اتخذ رضى ربه مطلوبه صرف توجهه عن كل إرادة ولذة تحصل من الصناعات وتجريد النفس بالرياضات أو البقاء في هذه الحياة. فلا فكر له إلا في الآيات الدالة على الرب تعالى وصفاته، ثم العمل بما يرضيه، وتعاطيهم الصناعات والنظريات لذلك الغرض. فاشتغالهم بمنافع هذه الحياة إنما هو للرأفة والرحمة وابتغاء رضوان رب غفور رحيم.

وبالجملة فعقولهم مستخدمة لغايتهم الأخروية وهم غير مطمئنين بهذه الحياة، ولا بما يمكن للنفس من الكمال غير التقرب من الرب تعالى. فهذه الحياة عندهم كالجسر والسبيل والزاد والبلغة.

(١)

الحكمة بناؤها على التوحيد والتوفيق

(١) الحكمة هي العلم الراسخ الذي تطمئن به القلوب. وبناؤه الإيقان، وبناء الإيقان الموافقة بين العلم والوجود والحسن. فإن العلم الحق لابد أن يوافق الوجود، والوجود لابد أن يصدر من حسن ويصير إلى غاية حسنى، كما قال تعالى: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝٧﴾. فلو فرض الفساد والقبح في الأول تعذر فرض الموافقة بين العلم والوجود، ولو فرض الفساد في الآخر بطل الحسن في الأول، فإن العبرة بالخواتيم.

تذكرة: أصل الحكمة هو الإيمان بالله الواحد ربنا ورب كل شيء. ومفهوم الرب يتضمن الرحمة والحكمة والتوحيد في كمال القدرة والعلم. فكان قولنا "لا إله إلا الله" هوأصل الحكمة، وتنشعب منه كل علم وعمل صالح. وقد دل القرآن على ذلك حيث ضرب المثل: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۝٢٥﴾ (إبراهيم/٢٤-٢٥). وحيث ضرب مثل المصباح في الزجاجة اللامعة كالكوكب الدري[1]. وحيث صرح بكونها عطاء عظيما لمن شاء من عباده فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٢٦٩﴾ (سورة البقرة/٢٦٩).ودل بالسياق على أنها أكبر وأعظم من الدنيا وما فيها.

---

[1] أشار إلى الآيات ٣٥-٤٠ من سورة النور.

وأما الدرجات الوسطى فتنبه على المحاسن في كل ما دق وجل إلى ما يبهر العقول ويعجزها، ولكن يوجد فيها ما لا يوافق الحسن. فمن قصر النظر على الوسائط المشهودة وذهل عن الأولى والآخرة رأى القبح والنكر، واشتبه عليه طريق التوفيق. وحينئذ لم يبق له يقين بالفطرة والموافقة بين العلم والوجود، فأغلق عليه باب الحكمة والعلم. فلا بد من الإيمان بحسن قديم هو المصدر لكل موجود من العلم الحق والخلق الحسن.

وهذا الإيمان لا يمكن بمحض النظر في العالم المحسوس الخارج مع قطع النظر عن مصدره وغايته. والغاية في الوجود هي المصدر في الإيجاد؛ وما بينهما أحوال الوجود وآثار الظهور، وهي العبارة عن العالم المشهود الغائب أوله وآخره. فالحكمة بمحض النظر في العالم الخارج لا تتم. ومن ههنا يصعب الإيمان بإله واحد على غاية الكمال في الرحمة والقدرة والحكمة، كما جاء في القرآن: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ۝٧﴾ (غافر:٧). وأيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۝٨٥﴾ (الحجر:٨٥). وأيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ (سورة البقرة:٢٠).وذلك بأنا نرى الشر والآلام، وقهر بعض الخلق بعضا، والحرب الدائمة فيما بينهم ومن ههنا زعم الوثنيون بآلهة ونسبوا إليهم صفات حسنة وسيئة. والمجوس ارتقوا ولكن لم يمكنهم إلا القول بإلهين: خير وشرير. وطائفة البراهمة زعموا بإله خال عن كل وصف.

فالإيمان بإله واحد رحيم أحاط بكل شيء خلقا وعلما وقدرة وتصرفا ورحمة وحكمة في غاية الصعوبة من جهة الاستدلال بمحض الآثار،

ولكنه في غاية الإحكام والوضوح من جهة النظر في فطرة النفس مما جبلت عليه من العلم المركوز على الإيقان بإله واحد رحيم قادر حكيم، كما هو مبسوط في محله. وبناءً على هذا الأصل حكمتهم التوفيق بين أجزاء الخلق. ومن ههنا صار لهم حكمة خاصة وأصل خاص لمعرفة الحق من الباطل، ونذكره الآن.

(٢) الأصل الذي يعرف به الحق من الباطل عند الموحدين هو أن الحق موافق للوجود، والباطل مطابق للإبطال. فإن الوجود واحد لكونه من إله واحد، والحكمة الحق ما يوفق به بين الموجودات. فكل ما نعلم وندرك من جهة الحواس والإدراك والمشاعر، إن أبطل بعضه بعضا وناقض هذا ذلك، تزلزل بناء العلم. فالطريق الصحيح هو طريق التوفيق بين الذهن والخارج، والعلم والحقيقة؛ فإن التخالف بينهما يجر إلى الجهل والحيرة. فمن ضل فإنما ضل بأنه لم يهتد إلى طريق التوفيق، فآمن ببعض وأنكر ببعض. وهذا الإنكار انتهى بهم إلى القول بلا أدري مطلقا، فصار علمهم ونورهم ظلمة.

(٣) الظلمة في العلم والإيقان تفضي إلى الظلمة في العمل. فإن من شك وظن بما علمه أنه لا يوقن به لا اطمئنان له في عمل، فإن العمل مبني على الإيقان بالغاية. فالمنكر بصحة مداركه ومشاعره لا يعلم الخير من الشر والحسن من القبيح، فأبطل عمله بإبطال علمه. فهو يجري إلى الظلمات وبطل حبه وشوقه، فهو يحيى حياة خالية عن غاية ويظن أن الموت فناء وظلمة. بل بطلان العلم والعمل هو الموت الحاضر، فصاروا مثل الأموات. فإنه لولا سلطان الفطرة لخلوا عن كل حركة وفكرة. لكن الفطرة تضطرهم إلى يقين قاصر وغاية حاضرة، فيحيون عيشة ضنكا. ولذلك سميتهم أمثال

الأموات، وإن كانوا بحسب المعنى أمواتا في الحقيقة. فإن الحياة لا مفهوم لها دون العلم والإرادة. والإرادة مبنية على علم غاية وشوق لها، وهم معترفون ببطلان كليهما.

وأما الموحدون فإنهم موقنون بما علموه من الخير والشر وآثارهما، فيحسنون ويتقون وهم مطمئنون بعواقب صحيحة ورجوع كل خلق إلى خالقه الحكيم العادل الذي لا يجعل المحسنين كالمفسدين سواء محياهم ومماتهم. وهذا الإيمان بالعواقب وبحكمة الرب في إجراء خلقه إلى غاية صحيحة هو نورلهم في طريقهم العلمي والعملي.

(٤) وقائع العالم المشهود عند الموحدين كلها مبنية على حكمة، فإن كل شئ يجري بإذن الرب تعالى، والتصادم والتناقض بينها طور من أطوار الوجود. فإن المتضادين كالزوجين، فالأرض والسماء والمرض والشفاء والظلمة والنور والظل والحرور والشك والعلم والحرب والسلم والموت والحياة، بل هذا العالم بأسره والعالم الأخروي كل ذلك مثل الزوجين الذين يتمان أطوار الخلق. فالإيمان بحكمة الخالق وقدسه وقدرته ينفي عنهم القلق بما يرون مضادا لما يحبون. فإنهم قد أيقنوا بكون الشر مقدمة وتوطئة للخير، كما أن كوكب الصبح طليعة الفجر.

وبناءً على هذا الأصل هم ينظرون إلى مساعي الأمم مؤمنيهم وكافريهم، راشديهم وضلالهم بعين الرضى والطمأنينة. فإن كل أمة عندهم متمة لجزء وطرف من مصالح نوع الإنسان، فكأنهم مثل حلقات سلسلة واحدة. فكل طائفة إما مشتغلون بطرف من العلوم والصناعات وإما مترقون إليها، وفي سلوك بعضهم مع بعض إما يتعاونون وإما يتضادون. والتضاد

هوالباعث على بروز القوى الكامنة كما أن النار والبرق والصوت، بل كل حركة، بل كل علم وشعور وتمييز بناؤه على وجود الضدين.

ثم اختلافهم في المساعي من باب تقسيم العمل عموما، ومنه استعمالهم للعقول. فالمشتغلون بالفلسفة والصناعات والمهتدون بالوحي كلهم يستعملون عقولهم على نهج خاص. وبكليهما يحصل البلوغ إلى نهاية خاصة، وما بين الابتداء والنهاية يخرج للإنسان ما ينفعه. ثم النهاية في جانب يحمل السالك على الرجوع إلى نهج مخالف إذا علم أنه لم يبلغ المطلوب. وليس المطلوب إلا العلم الحق والعمل الصالح.

(٢)

تقرير شبهات المنكرين

(١) إن قيل قد جعلت بناء هذه الحكمة على أمرين : الأول وجود إله خالق الكل متصف بصفات الكمال، والثاني تصديق الأنبياء. فقد أخذت في أول أمرك مفروضتين لم تثبتهما، وقد اعترفت بأن الإيمان بوجود المصلحة في العالم من جهة الاستدلال بالآثار في غاية الصعوبة، وبدون ذلك لا يثبت كونه من إله حكيم قادر قدوس. ونحن لا نأخذ العلم إلا من العقل والاستدلال بالآثار، ثم إنا نحب الحرية ونبغض العبودية. فلا نقلد نبيا ولا نتخذ معبودا نلتمس رضاه بل نطلب استكمال أنفسنا على طريق ما نرى من الملازمة بين العلل ومعلولاتها، وهذه الملازمة نستنبطها بالتجربة والمشاهدة.

وكون الشيء مفيداً لايثبت كونه حقا، فإن الكذب ربما يجلب نفعا مع كونه كذبا. فإن لم يثبت العقل العقائد التي أبقنا بها لن نتخذها حقا ثابتاً في نفس الأمر وإن عملنا ببعضها لنفعها الحاضر.

ومن كان مؤمنا بالألوهية من قدماء الفلاسفة فإنما كانت الفلسفة في بدئها وكان قد بقي فيهم بقايا مما لقنوها في الطفولية. وأما الآن فقد نضجت الفلسفة واتسعت المعارف وترقت الإنسانية، لقد كان الإنسان لجهله يخشى كل شئ فكان يؤمن بآلهة في السماء والكواكب والسحاب والجبال والبحار والأشجار.

ثم لما اطلع على حقائقها نبذ الخوف من هذه المحسوسات العظيمة واكتفى بإلهين معقولين. ثم ترقى فآمن بإله واحد وأحس ببعض الحرية. وأما الآن فهو حر بالغ فحري به أن ينبذ التوهمات ويعتمد على عقله ونفسه، فلا يؤمن إلا بما علم وأيقن به من طريق العقل والتجربة فقط.

فالسلوك بالعلم والعقل والحرية وعدم الخوف أحب إلينا من التقليد ودين الرهبة والعبودية. والقول بلا أدري فيما لم يثبت أولى عندنا بالإنصاف، ويجب الصدق من الإذعان للأوهام المأثورة الملقنة. فهذه جملة ما قيل ويقال من جانبهم ونحن مجيبون لهم بما نذكره في الفصل الآتي.

(٣)

الجواب عن الشبهات المذكورة

فالجواب أن العقل والعلم لا يبقيان إذا ناقض بعضهما بعضا، وطريقكم قد أفضى إلى الشك والحيرة. ولذلك التمسنا طريقا آخر وهو طريق التوفيق والتحقيق. وذلك هو الذي هدانا إليه الرسل ووجدناه موافقا للعقل ومثبتا له وهدى إلى العلم، فإنا لم نؤمن بهم وبما جاءوا به إلا من طريق العقل. وذلك بأن العقل بناؤه على التمييز بين الأشياء والحكم بالحق والباطل، والحسن والقبيح على ما ألقى إليه من الخارج. فليس في مفهوم العقل الابتداء وإبداع الموضوع بل الحكم عليه، فهو متعلق ومتعلم حسبما أودع من التمييز والحكم.

وعلى هذا الأصل لما رأينا أن الفكر في الآثار المشهودة في العالم ساقه إلى الحيرة والشك الذي يفضي إلى محض الجهل، وأحسسنا بكون ذلك مرضا وإبطالا لكل علم وعمل التمسنا الخلاص منه، كمن أحس بالعطش فالتمس الماء. فوجدنا ما جاء به الأنبياء من الحكمة شفاء من هذا الداء وتنبيها على حقيقة العلم المكنون في الفطرة. فوجدنا ضالتنا وأيقنا بأنه لو لا الأنبياء لبقينا تائهين في ظلمات الجهالة العمياء، ووجدنا النور والعلم أحب من الظلمة والعمى. فإيماننا بالله ليس بمحض الاستدلال بل لكونه بناء لصحة كل دليل وعلم، كما هو مبسوط في موضعه. والعقل بفطرته محب للعلم والإيقان.

وقولكم بأن المفيد لا يلزم أن يكون حقا مبني على عدم تعقل المفيد، فإنا نريد به كونه موافقا للوجود. والعلم من قسم الوجود، والباطل ما يضاد العلم، فلا يبقى بنيان تداعت أركانه للتصادم. فطريق التوفيق هو إبقاء العلم وهو التحقيق.

وما قلتم من مزية الحرية و عدم الخوف وبأن القول بالعلم أحب إليكم من التقليد ودين الرهبة، ففي ذلك أنتم أنفسكم اعترفتم بترجيح ما هو الأحب على ضده. فاخترتم المفيد ولكن ذلك ليس كالفائدة التي اخترناها، وهي إبقاء العلم ونفي الشك. فالمطلوب عندنا هو العلم والعمل الذي يثبت بالعلم أنه خير، وأما مطلوبكم وهو الحرية وعدم الخوف وترك التقليد فليس بناؤه إلا على محض الهوى. وليس كل ما تهوى النفس تفوز به بل ربما يكون باطلا. فلا بد أولا من العلم بما ينال وبما لا سبيل إليه، فالأقدم هو الاطلاع على أصل العلم وما ينفي الريب ويحافظ على اليقين. ثم إذا أسسنا العلم على الأصل الراسخ استهدينا به على ما هو الحق. وإيماننا بالله الواحد وتصديقنا بالأنبياء إنما هو-

(١) لأجل أنا أحببنا العلم والحق،ولم نجد إليه سبيلا إلا بهذا الإيمان.

(٢) ثم وجدنا هذا الإيمان مما أودع فطرة الإنسان، فالإنسان لكونه ذا عقل وعلم لا يمكنه الإنكار به. ومن يتقبله فإنما يتقبله لأجل ذلك لا بالتقليد الأعمى كما زعمتم.

(٣) لا سيما إذا وجد الذين كفروا به أنهم لم يبلغوا أصلا راسخا للعلم، وقصاراهم إما الشك المطلق أو الاعتماد على المحسوس الظاهر فقط.

(٤) ثم حكمتنا هذه كما جعلتنا راسخين في العلم فكذلك جعلتنا

مطمئنين في العمل، وأما أنتم فإذا سئلتم عن أصل ثابت للأعمال الصالحة والطهارة والعدل لم يمكنكم الجواب عنها، وذلك لمحض أنه ليس عندكم شئ ثابت تعتمدون عليه.

ولذلك ليس عندكم حكمة فإن الحكمة حقيقتها الإحكام ولا إحكام إلا بالتوفيق بين الموجودات الظاهرة والباطنة والمدارك والمشاعر. وإنما عندكم الفلسفة ورفيقها المنطق الذي هوجوف هواء لا يدعى الدلالة على أصل العلم، كما هومبسوط في موضعه.

هذا، ومما ذكرنا يتبين بعض الفرق بين الحكمة والفلسفة ولكن يتضح ذلك كل الاتضاح بعد بيان أصل العلم الفطري.

(٤)

مفهوم الحكمة حسبما دل عليه القرآن

(١) قد بين القرآن مفهوم الحكمة [1] باستعمال هذه الكلمة على وجوه كثيرة:

١- فمنها ما يذكر أن الله تعالى أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم لتعليم الحكمة كما جاء في مواضع، مثلا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴿١٦٤﴾﴾ (سورة آل عمران:١٦٤).

٢- ومنها ما يبين أنها من نعم الله العظمى يخص بها من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ (البقرة:٢٦٩).

٣- ومنها ما يبين أن الحكمة أصل تخرج منه تفاصيل الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ (سورة لقمان:١٢) إلى آخر وعظ لقمان لابنه، ونظائر ذلك كثيرة.

وفي كل ذلك ذكر الحكمة بصيغة الواحد لنعلم أن المراد بها النوع.

فالحكمة عبارة عن:

(الف) أصول العلم الثابتة التي عليها بناء جميع العلوم.

[1] انظر تعريف الحكمة ومفهومها في بعض مؤلفاته الجليلة مثلاً "حكمة القرآن"، و"مفردات القرآن" (ص ١٧٢-١٨٠).

(ب) أصول العمل التي عليها بناء الأعمال الصالحة كلها.

(ج) القوة التي بها يعرف الحق من الباطل والحسن من السيء.

(د) الكلمات المتضمنة لأصول العلم والعمل ومن ههنا سمي القرآن الحكمة.

ولا يخفى أن كل ذلك مظاهر شيء واحد، وهو ينبوع خير كثير. وهذا الاستعمال موافق لمفهوم الحكمة في لسان العرب. فإنهم كانوا يسمون الحكيم من كان مشهورا بوفور العقل وحسن الخلق وفصل الخطاب، وهذا هو المفهوم من معنى الكلمة. فإن الحكمة من الإحكام، ومعلوم أن كل إحكام في صحة العقل وكرم الخلق وفصل الخطاب حتى يكون العلم موافقا للحق الثابت، والعمل موافقا للخير والسعادة الأبدية.

(٢) قد مر أن الحكمة قد يراد بها كلمات الحكمة، ولا يخفى أن المراد بها معانيها. وقد بين القرآن ما في كلمة الحق من الرسوخ والخير الكثير حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ

---

(١) قيل في تأويل الآية أن المراد بكلمة طيبة هي كلمة التوحيد، وبكلمة خبيثة كلمة الشرك، ولا بعد في هذا التأويل. فإن التوحيد هو أصل كل حكمة كما بيناه في تفسير آية النور. فالإيمان هوالشجرة التي تثمر الحكمة.

الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ (سورة إبراهيم/٢٤-٢٧).

وليس المراد ههنا كلمة واحدة من الطيبة والخبيثة، فإنما ذكرتا نكرتين ليعلم أن المراد بهما نوعا الكلمات الطيبات والخبيثات. ولا شك أن المراد بهما كلمة الحق وكلمة الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ (التوبة: ٤٠). فسمى كلمة الحق كلمة الله وذلك بأن الله هوالحق وكلمته الحق كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (الأنعام/١١٥). أي لا مبدل لحكمه وأمره وقضائه.

ولا يخفى أن الحق إذا أخذ بمعنى النوع طابق الحكمة وتضمن المعارف الحقة كلها. وكان حينئذ على كمال السعة بحرا يغرق فيه علومنا كلها. وإنما يكون منتهى سعينا أن نغترف منه حسب وسعنا، وعلى هذا يتضح تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ (سورة لقمان:٢٧).

أي هو حكيم وحكمته لا يصل إليها أحد إلا بقدر ما يعطيه لعباده كما قال في أمر الملائكة المقربين: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴿٢٥٥﴾﴾ (سورة البقرة/٢٥٥). وههنا تصريح بأن علم الله تعالى وقضاءه لا نهاية له، وليس كما زعمه من الفلاسفة من زعم بأنه تعالى عالم بالكليات فقط.

(٣) قد مر آنفا أن الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٢٦٩﴾﴾ (سورة البقرة/٢٦٩). فالظاهر

أن المراد بها نور البصيرة والمعرفة. وهذا هو النور الذي يصلح باله ويحسن أعماله ويثبته على الحق والخير. فتبين أن الحكمة التي لنا هي مستفادة من الحكمة التي هي صفة الرب تعالى كما أن نور القمر مستفاد من نور الشمس ولكنه بمشيئة وإرادة، وليس مثل فيضان نور الشمس بالاضطرار، فلا بد من أن نسأله من الرب تعالى، كما قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ (سورة النور: ٤٠).

(٥)

الحكمة ظاهرة بنفسها على فطرة الإنسان

(١) الإنسان يعرف الحكمة بفطرته ويطلبها ويستحسنها ويختارها، ولايكون ذلك إلا بعد المعرفة بها. فهي كالنور تعرف بذاتها لا بشئ آخر. ولمناسبتها بفطرة الإنسان هي كالغذاء والقوام له، فهداه الله إليها وعرفه إياها كما هدى كل ذي نسمة ونمو إلى غذائه. وذلك بأن الرب تعالى وضع في كل خلق فطرة بها بقاؤه ونماؤه في الوجود عموماً. ثم ما أعطاه نصيبا من الحياة هداه إلى ما به قوام حياته، كما جاء في القرآن حيث يذكر

تذكرة : الاستدلال من تاريخ الحكمة

(١) رغبتهم في رد الحقائق إلى الوحدة دليل على كون التوحيد فطرة العقل ولكنهم طلبوه في المخلوق فخابوا. وإنما هو مختص بالخالق الواحد القهار.

(٢) نجح سعيهم في الرياضيات والهندسة وكثير من الطبيعيات. ثم ضلالتهم في الإلهيات وتهافتهم واعتمادهم على الظنون الواهية دليل على ضرورة النبوة : ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ (سورة النور/٤٠). فإن أذكى الناس إذا تحمقوا في أمر فلا بد أن ذلك الأمر لا تستقل به العقول وإنما تكون فيه تابعة. ألا ترى البصر لا يستقل بنوره بل يستبصر بالنور الذي يأتيه فيفرح به ويقبله. فمن أغمض عينيه عن النور الذي يدخل عليه ظلم نفسه وألقاها في الظلمة. فكذلك شأن العقل فطر لقبول النور فيطمئن به إذا وجد و يطلبه، ولكن غروره عن قبول الحق يسلب نوره.

قول موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ (سورة طه/٥٠).

ثم لما اجتبى الإنسان وأعده للعلم، وبذلك جعله مستعدا لقبول الحكمة التي أنزل بها الرسل أعطاه معرفة الحسن من القبيح، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ (سورة الشمس:٧-٨). وبذلك أعده لقربه. وبعبارة أخرى كل مخلوق لا بقاء له إلا بتجاذب وتماسك في أجزائه، فإذا نزع عنه ذلك تبددت أجزاؤه وبطل وجوده. وإذا كان مخلوق ذا حس وإرادة أحس بهذه الضرورة، فإذا نقص منه ما به قوامه جاع وعطش إليه.

فهكذا أمر الإنسان جوعه وعطشه إلى العلم والإيقان والحكمة والبصيرة ومعرفة الحق من الباطل. فإن النفس الإنسانية بغير العلم والبصيرة في غاية النقصان، وإحساسها بهذا النقص كإحساس كل ذي حس بنقص ما به قوامه، وبطلان هذا الإحساس مقدمة الموت والفناء. فإذا وجد الإنسان علما ونورا وبصيرة استراح واطمأن، ثم يطلب المزيد، فإن استعداده وما هو مستعد له كلاهما غير متناه. وعلى هذا يكون الحق وهوالعبارة عن الحكمة جليا على البصيرة إذا عُرض عليها، ومن لم يعرف الحق فإنما هو لمرض اعتراه.

الباب الثالث

في طريق احتجاج القرآن

خصائص طريق القرآن في الاحتجاج

(١) عدم بسط الأدلة ليكون عوناً على الفكر والتدبر فيتربى العقل.

(٢) مزج أقسام الأدلة الآفاقية والأنفسية واللمية، ومزج الدعاوى الثلاث أي الألوهية والمعاد والرسالة، ومزج العقائد بالأحوال والأعمال، ومزج الأدلة بالتنبيه على القوى الباطنة المستعملة فيها. وذلك لأن النفس وما تصادفه كلاهما في حالة التركيب. فالتدبير في تعليمها هو رعاية جميع ذلك معا، كما أن الطبيب يراعي إصلاح أعضاء المريض ويركب الدواء بحسبها.

(٢)

الحكمة في إيراد الأدلة بالإيجاز والاكتفاء بالتنبيه على موادها

اعلم أن الضروريات هُيأت للمخلوقات، ثم هدوا إلى ما هو أعلى فأعلى، فركبت فيهم القوى وهديت إلى ما قدر لها من المنازل وألهمت العمل حسبما أودعت، كما قال تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ (سورة الأعلى/٢-٣).أي هدى كل قوة لما قدر لها من العمل والمنزل. وذلك بأنها لو عطلت لم تكمل، فإن نشأتها بكدها وجهدها، وبأن حقيقتها البروز. والخلق أولا إبراز من العدم، ثم إبراز ما أودع الخلق من القوى بعد بروزها، كما قال تعالى :﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۝٢٥ ﴾(النمل/٢٥).وقال ﴿ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ۝٦ ﴾(سورة الزمر/٦).فأعطي الخلق حسبما استعد، كما قال تعالى:﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ (سورة إبراهيم/٣٤). فهذه سنة الله في جريان خلقه وربوبيته. فعلى هذا الأصل جاء القرآن بأوليات الهداية من التوحيد والشرائع على غاية الوضوح، ولكن علق تربية العقول بأعمالها، ولا سبيل إليه إلا بذلك.

فجعل القرآن موضع التدبر والفكر وحث عليه العقول فأكثر من التنبيه على ما يكون موضعا ومادة لأعمال العقل. فمن ذلك أمثال قوله تعالى :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤ ﴾ (محمد/٢٤).

وقوله تعالى :﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾(سورة طه/٥٤). فأكثر من ذكر الآيات، وما هي إلا ما يحث الفكر والنظر. فلو فصل القرآن كل دليل بغاية البسط لم يكن تربية للعقول بل صارت الأفهام منفعلة، كما ترى بعض الطلاب يحفظون ما لقنوا، وقصارى عملهم الحفظ.

وعلى هذا فالقرآن لا يخالف سنة الله في الخلق والتربية. ولما تكفل إتمام الهداية وتطهير النفوس علم الشرائع كالمعدّات والممهيدات. ثم علم الحكمة بطريق عملي يحث الفكر والنظر. ثم بكليهما طهر النفوس، فإن الطهارة إنما تتم بجانبي العلم والعمل الظاهر والباطن. وبين ذلك في مواضع شتى وامتن به علينا وهو قوله تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ (أي ما كتب عليهم من الشرائع) وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الجمعة/٢-٤).

ومثله قوله تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (سورة آل عمران/١٦٤).فبعث الله تعالى رسوله أحسن معلم للحكمة، وذلك بأنه جعل التعليم جزءا من التربية كما قدمناه. فلم يكتف بإعطاء العلم المحدود بل جلى بصيرة العقل وهيأه للرقي إلى أعلى منازله. ولا يكون ذلك إلا بأن نبهه ليطلع على أصول الفكر والنظر، وليقتني الحق اليقين علما والطهارة التامة خلقا، وكل ذلك من باب تعليم الحكمة. وأما باب التزكية

فبما أكثر من منبهات القوى الأخلاقية، وتعليم الشرائع التي تسدد الفؤاد وتصلحه. وتفصيل هذا الجانب العملي ليس من موضوع كتابنا هذا.

(٣)

أمثلة من الحجج لتعرف بها طرقها

( )[1] نورد عليك عدة من حجج القرآن لكي تعرف بها أسلوبها، فإنك عرفت الاستدلال باصطلاحات كالدليل والدعوى والإثبات والإبطال والقضية والشكل والصغرى والكبرى وغير ذلك من شكل وترتيب بعيد عن أساليب التحاور الفطري الذي نزل به القرآن. فبهذه الأمثلة تهتدي إلى فهم طريق القرآن وترى أنها أقرب إلى الفطرة من طريق المنطق الذي تعودت به.

والتدبير أن نقدم من الأمثلة قصارها ونشرحها تقريبا إلى أفهام الذين لم يتأملوا في إيجاز الكلام ولطائف النظام. ثم نذكر بعض الطوال الجامعة لأدلة كثيرة، وأكثر الأدلة ما فيه الدليل مدمج في الدعوى وتعرف ذلك من الأمثلة.

(١) فمنها قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (سورة الملك/١٤).استدل على إحاطة علمه تعالى بكل شيء و ذلك بأن مجرد التأمل في مفهوم الخالق يدل على إحاطة علمه. فإن الخلق ليس تركيبا محضا بل هو يسري في تمام وجود المخلوق وإلا لم يكن خلقاً، وهو بالإرادة والحكمة. فلا بد أن يعلم الخالق كل ما أودع فطرة ما خلق. وقوله ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ . جاء لإيضاح مفهوم الخالق، فإنه لو لا لطفه لم يسر

[1] كذا في الأصل.

تصرفه في أصغر أجزائه. ولولا خبرته على غاية الكمال لم يكن سريان أمره في أجزاء المخلوق تصرفا حكيما وتصريفا بالحكمة كما يشهد عليه صنعه المتقن الذي لا يحيط بعلمه غير الخالق.

(٢) ومنها قوله تعالى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (سورة الأنعام/١٨).استدل على وجوب الطاعة الكاملة، وذلك بأن كوننا عباد الله يلزمنا الإيمان بأن قدرته محيطة بنا، فلا تصرف فينا لغيره إلا حسب ما شاء. وكيف لا وهو الحكيم يختار لجريان أمره طرقا خاصة، وخبير بأحوال عباده فيعطي ويمنع ويعز ويذل حسب الحكمة والعلم.

(٣) ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف/٥٤).استدل على تفرده بالحكم فلا حكم إلا لله، فإن من خلق فهو المالك حقا واستحقاقا. فإن الخلق كمال القدرة والمخلوقية كمال الطاعة، وهذا من الحق الظاهر بنفسه. ثم لا ينبغي أن يكون الأمر والحكم إلا لمن هو المالك. ويتبين من كونه هو الخالق أن البركات كلها منه وبيده وبمشيئته. ومن خلق وقدّر كل شيء فهو الذي يربي وله التصرف. فكما خلق رحمة يربي رحمة. ثم قال بعد ذلك ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴿٥٥﴾﴾ (سورة الأعراف/٥٥).فهذا منتج مما قدم، ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (سورة الأعراف/٥٥). فإن التضرع جالب للرحمة، والاعتداء ضده فيبعد عنها.

(٤) ومنها قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ (سورة المدثر/ ٣). وهذا في غاية الإيجاز جامع للإيمان والعمل وأساس لأول الأحكام وهو

الصلاة، وحاسم للشرك.

(٥) ومنها قوله تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾(سورة النساء/١٣٤). شرحها من غير زيادة إنه من كان يريد محض ثواب الدنيا فليعلم أنه لا يفوز به إلا من عند الله. فلا بد أن يطيعه، ثم لا ينبغي له أن يطلب الدنيا ويترك الآخرة فإنه خسران مبين. ثم كيف يسأل الدنيا مع العصيان، فإنه كما يسمع دعاءه فكذلك يبصر ما في قلبه من حب المعاصي وانهماكه في الدنيا، فهل يسأل الرب ويسخطه، هذا أكبر الحماقة. فالصواب أن يتوب إليه أولا، ثم يسأل ثواب الدنيا والآخرة جميعا. ويبين ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(البقرة /٢٠٠-٢٠٢).

(٦) ومنها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ (هذا تقرير الدعوى، أي البعث حق لا يرتاب فيه، ثم أتبعها الدليل بقوله) فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (وههنا نبه على أن الله تعالى أراد بهذه مراتب الخلقة إقامة الحجة على كون الإنسان عبدا مربوبا عاجزا، فلا بد له من خالق رب مريد حكيم رحيم فقال) لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ (ثم نبه على بطلان شبهتهم من جهة تأخير يوم البعث فقال) وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴿٥﴾ ﴾ (سورة الحج: ٥).

فبذلك نبه على أنه تعالى جعل أجلا مسمى لخلقه حسب مشيئته وحكمته فيقدم ويؤخر كما يريد. وفيه دليل على وقوع الساعة، فإن لكل خلق مشوب بالخير والشر أجلا معينا وإلا لدام الشر أو لم ينتج الخير الأعلى الذي لأجله خلق، وهذا العالم كذلك عيانا ثم في هذا التحول نفسه دليل واضح على القيامة كما جاء في سورة الانشقاق، وستعرفه في موضعه. ثم أتى بدليل آخر على البعث الجاري بين أيديهم فقال: وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾. (وبعد بيان الدليل الإني ذكر الدليل اللمي فقال ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ (فلا يخلق عبثا با طلا) وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ (كما علمتم من خلقكم وإحياء الأرض) وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ (الآية:٦). (فإن خلق الحياة أكبر شئ في القدرة لأن كل صنعة وقدرة هي دون إعطاء الحياة، ولا قدرة أكبر من سلب الحياة، فمن أحيى وأمات فهو قادر على كل شئ.

ثم أعاد ذكر ما أقام الحجة عليه فقال: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا (فأي شيء يريبكم بعد ما رأيتم آجالا لأفعاله تعالى، وعلمتم أنه الحق فلا يفعل عبثا، وأنه قادر متصرف بكمال القدرة والحكمة. ثم أعاد النتيجة الأخيرة فقال) وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ (الآية:٧).

(٧) ومنها قوله تعالى ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ (فإن الخليفة لابد له أن يتبع سبيل ربه وهو الحق، وبين ذلك فقال) وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ (أي سبيل الحق) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ. (فإن يوم الحساب هو يوم

إحقاق الحق وظهور حكم الله وعزل الخلافة. واستدل على كون سبيل الله هو الحق فقال) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة ص: ٢٦-٢٧).

فهذا دليل مما أودع من الحكمة الظاهرة في خلق السماء والأرض. ثم استدل بدليل لمي على إحقاق الحق يوم القيامة ورعاية الحق عموماً فقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ (فإن ذلك ضد لما راعينا في خلق السماء والأرض من الخيرات فكيف نرضى بمن خالف أمرنا. وكذلك راعينا في خلق الإنسان فكيف نساوي بين المطيع والعاصي فبين ذلك بقوله) أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الآية: ٢٨). (فإن ذلك باطل، فإنه يلزم إما العجز أو الرضى بالشر، و لم يذكر ذلك لغاية ظهوره.

ثم بعد إتمام الحجة نبه على ما أودع في هذا البيان من الأدلة المتوافرة فقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ (المبارك ما كثر خيره. والكتاب إذا كان مباركا لابد أن يتضمن هدايات جمة يستنبطها من يتدبر، فيزداد علما ونورا ويطلع على ما أودع الله في فطرته من العلم وإصلاح العمل. وبين ذلك المعنى بما أتبعه من قوله) لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الآية: ٢٩).

وليكفنا هذا القدر للدلالة على منهج القرآن في ذكر حججه، وأن ذلك هو أقرب إلى بلاغة القول وطريق الفطرة. فإنه يخاطب العقل والقلب معا ويركب الأدلة الإنية مع اللمية ويخلط بالدلائل ترغيبا وترهيبا، فكما ينبه العقول من رقدته فكذلك يحث القلوب من غفلته. واخترنا الإيجاز في شرح هذه الاستدلالات، فإن لتمام إيضاحها مواضع تخص بها.

ومما ذكرنا تبين لك أن القرآن كثير الحذف لفضول الكلام، وكان المخاطب به هم الذين حبب إليهم الإيجاز وكانوا أبلغ الناس قولا، ثم ذلك أنفع لغيرهم فإنهم يتعلمون به إعمال الفكر والتدبر.

(٤)
بيان المطالب الثلاث التي يحتج عليها
وبيان النسبة بينها

اعلم أن المطالب التي كثر الاحتجاج عليها في القرآن ثلاثة : الألوهية، والمعاد، والرسالة. وإنما ذلك من جهة التفصيل، فإن الأصل فيها هو الأول وأما الثاني والثالث فمن فروعه. فإن المقصود هومعرفة الربوبية، وذلك بأن الله تعالى هو الرب وحده وأنه يدين عباده بالعدل والرحمة، وبرحمته أرسل إلى عباده الرسل يدعوهم إليه ليغفر لهم. وبالجملة فإن الدعوى ليست بمطلق المعاد والرسالة بل بأنهما من صفات الرب تعالى.

وعلى هذا فالأصل هو العلم بالألوهية، وإنما وقع الاحتجاج على الباقيين لأنهم بعد ما سلموا الربوبية لله تعالى أدخلوا الأباطيل في اعتقادهم بها، فأنكروا بصحيح التوحيد وبالمعاد والرسالة. ولما كان هذه الثلاثة هي الدعائم في الدين وعليها بناء الطهارة والنجاة وكانت الضلالة فيها أسوأ الضلالات، جعلها القرآن دعاوى مستقلة. وتفصيل أهميتها تجد في مبدء البيان لكل هذه الثلاث، وأما ههنا فنكتفي بجملة الكلام في نسبة بعضها إلى بعض.

فاعلم أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم فأعطاه استعداداً لغاية الكمال وهداه لذلك وألهمه ما يبلغ به إليه. فجعل له صراطا مستقيما

وهو الصراط الموصل إلى الرب، فإنه هو المقصود وهو على منتهى هذا الصراط كما جاء في القرآن :﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ (هود/٥٦). فالعبد سالك فيه، وقائده الرسول فيتبع خطواته. والعبد في ذلك ليس إلا مطيعا لربه سالكا في منازل قربه، والمعاد هو غاية هذا السلوك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾(الانشقاق/٦). وقال مخاطبا لنبيه : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ (الشورى/٥٢-٥٣). وأيضا:﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران/٣١). فتأمل في هذه الآيات ولها نظائر كثيرة تبين بعضها بعضا.

وبالجملة فالمطلب الأهم هو أن تعرف الباري تعالى بصفة الربوبية وبكمال الرحمة وتعرف الرسالة والمعاد لإتمام الرحمة وإكمال الخلق. كالزارع الذي يسقي ويحصد ويجمع الحب ويلقى العصف، وجاء هذا المثال في الحديث والإنجيل.

المقالة الثالثة

في حجج القرآن وفيها ثلاثة أبواب

الباب الأول

في أدلة الربوبية

(١)

الدعوى في هذا البحث على ثلاثة مواقف

( )[١] لما كان علم الربوبية أول المعارف ورأسها، وأصل العلوم وأساسها، ومشكوة الحكمة ونبراسها، ومقياس الحجة وقسطاسها جعله القرآن أصل المباحث وأمها وأجل المطالب وأهمها ومجتمع مسائلها ومعظمها. فهو مركز العلوم ومحيطها، فمنه البداية وإليه النهاية. ولذلك تارة يجعله القرآن دعواه فيثبته وأخرى يتخذه دليلا على سواه فيثبت به، وهذا أكثر.

فإن أكثر الخصماء وهم مشركو العرب ومبتدعو اليهود والنصارى لم ينكروا بالرب تعالى ولا بكونه متصفا بصفات الكمال. ولكنهم ذهلوا عما يلزمه واعتقدوا بما يخالفه جهالة من قبلهم ومناقضة لقولهم وردا للحق الظاهر بمحض الظن الباطل. فأكثر القرآن بما يزيل أوهامهم ويبطل ظنونهم ويدحض حجتهم، فألزمهم ما علموه واحتج عليهم بما سلموه، لكي يبين لهم ما في رأيهم من الاعوجاج وتشاكس القول في الاحتجاج حتى لا يترك لهم متمسكا إلا حميتهم الجاهلية. ولذلك تجد أكثر أدلة القرآن مبنية على صفات الله تعالى المسلمة عندهم، فهذه كالأصول الموضوعة في الاحتجاج بهم.

---

[١] كذا في الأصل.

ثم لم يقنع القرآن بهذه الحجج الخاصة، فإن المسئلة على غاية الأهمية، فإنها مركز الدين ومبدأ الإيمان. ولئن قلت فيها الخصماء من بني سام وآل إبراهيم عليه السلام فلقد كثرت من أمم أخر، فضلت فيها أحلامهم وتاهت بهم أوهامهم. فلذلك ربما أثبت اتصافه تعالى بكمال صفات الخلق والرحمة والعلم والقدرة والعدل والحكمة، ليتم به الحجة على سائر الناس ممن لهم دين واعتقاد بالإله.

ثم لما كان في الناس بعض المنكرين البحت، الغالين في الضلالة فأثبت وجود الإله الواحد لإسكات هؤلاء أقحاح الملاحدة.

ومما ذكرنا تبين أن الدعوى في الألوهية لكون الخطاب حسب تنوع المخاطبين على ثلاثة مواقف :

الأول : في الخطاب إلى المنكر البحت فيستدل فيه على وجود الإله الحق.

والثاني : في الخطاب إلى المقر بالإله، فيستدل فيه على اتصافه بصفات الكمال.

والثالث : في الخطاب إلى المقر بالإله المتصف بصفات الكمال فيستدل فيه على بطلان معتقداتهم المناقضة لما أقروا به.

ومن زعم أن أدلة القرآن إقناعيات لم يميز بين هذه المواقف، فإن كون الحجة قاطعة إنما هو بحسب المخاطب بها، فإذا فرقت بينهم تبين لك قطعيتها. وإنما نشأ هذا الزعم لعدم فهمهم ما بني عليه الاستدلال الخاص، وما هو البناء للاستدلال العام المطلق، وحينئذ توهموه ظنيا وإقناعيا. ولكن ليس من طريق الاستدلال أن يبرهن على كل مقدمة حتى ينتهي إلى الأصول.

فإن الأصول يكفي إثباتها مرة واحدة، ومتى كانت مسلمة عند المخاطب لا يحتاج إلى إثباتها أصلا.

وقد بين القرآن هذه القاعدة في الاستدلال حيث قال تعالى مخاطبا لنبيه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا (فهذا قد أقروا به، ثم نبه على ما يلزمهم من هذا الإقرار فقال) وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا ﴾ (سورة آل عمران/٦٤). أي إن لم يقروا بذلك فقولوا لهم إنا نقر به، فنحن مسلمون بالاتفاق. وفيه إشارة بأنكم لستم من المسلمين ما لم تقروا به.

ولا شك أن هذا الاستدلال قاطع مسكت للخصم، فإنهم قد آمنوا بالتوحيد. ولا شك أن التوحيد ثابت في نفسه بدلائله المطلقة. ولكن الخطاب ههنا ليس لإثباته فإن المخاطب قد أقر به. فإثبات نفس التوحيد عليه يكون فضولا ولكن احتج على ما يلزم هذا الإقرار من نفي العبادة لغير الله، وهذا لا يسمى إقناعيا [١].

[١] بياض في الأصل.

وجوه الاستدلال بالآيات الآفاقية

على الإله الحق وصفاته الكاملة

المقصود في هذا الفصل بيان الوجوه التي تدل بها الآيات الآفاقية على الإيمان بالله الحق واتصافه بصفات الكمال. وبناء هذه الأدلة على ما نشاهد في الخارج من الأمور التي لا نشك فيها، ومع ذلك تضطرنا فطرة العقل والفؤاد بأن ننسب هذه الأمور إلى ذات تكون مصدرا لها وقد سبق بيان هذه الضرورة في الفصل( )[1]. فهذه الأمور المشهودة التي يسميها القرآن آيات الله في الآفاق تدل على الإله الحق وصفاته من وجوه سبعة. وقبل ذكر الآيات نذكر هذه الوجوه، ونكتفي في هذا الفصل بذكر آية أو آيتين تحت كل وجه.

الأول : هو الحسن الرائق في المخلوقات التي تحف الإنسان من كل جانب، فإن ذلك لا يمكن إلا بتركيب وترتيب وتدبير حكيم ورحمة على النفوس. والإنسان لما ركب فيه الإحساس الشديد بالحسن إذ رأى حوله مظاهر الحسن والبهجة اضطر إلى الفكر والسؤال عن الصانع. فإن الحادث لم يخلق نفسه. فإن لم يكن قد غلب عليه الغفلة والجمود البهيمية هتف قائلا : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ (سورة المؤمنون:١٤). كما جاء في القرآن بعد ذكر خلقة الإنسان. وقال تعالى :﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ٧﴾

[1] بياض في الأصل.

(سورة السجدة: ٧). وسيأتيك لذلك نظائر كثيرة.

والثاني : هو المرافقة والموافقة الدالة على الحكمة والرحمة والربوبية والقدرة والعلم. فالنظر في المرافقة المشهودة في الخلق تدل على مفهوم الربوبية، وكلمة الربوبية جامعة للرحمة والحكمة والعلم والقدرة. وأما وجه الدلالة فذلك بأن المرافقة والموافقة تدلان على أن آحاد الخلق مربوطة بعضها ببعض كالزوج للزوج. فإن المترقي بنفسه لو فرضناه لا تصرف له في غيره وفيما هو أغلب منه وأبعد عن علمه. فسخر خلقا لخلق وفطر بعضها لبعض وأخرج به المصالح لهما أولغيرهما، كما قال تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ (سورة الذاريات/٤٩). أي يدعوكم للنظر في حكمة ربط الأزواج، وهذا يوسع النظر فيحتوي العوالم كلها فيدل على رب حكيم رحيم وسع كل شئ علما وقدرة ورحمة. وهذا معنى اسمه رب العالمين والقاهر فوق عباده، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ (الأنعام/١٨).وسيأتيك تفصيل ذلك في مواضعه.

والثالث : وجود الضد من الضد. فإن ذلك لا يكون بنفس العلل والمعلولات، قال تعالى : ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا ٨٠﴾ (سورة يس/٨٠). وأوضح الأمثلة لذلك خلق الحياة من الموت وعكسه، قال تعالى : ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥﴾ (سورة الأنعام/٩٥). فإن الولادة لا تأتى بالضد من الضد. فكيف تقولون بخلاف شهادة صريح العقل. ومن أعاجيب ذلك إخراج المصالح من المفاسد والخير من الشر، وهذا باب وسيع.

والرابع، وهو قريب من الثالث: وجود المختلفات من المتحدات.

فإنك ترى الخلق تزداد تنوعا في أجزائه بعد البساطة، فلا بد من مقلب ومفرق جعل الواحد اثنين، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾ (الرعد/٤).

أي من يعقله ينتبه بذلك ويتفكر في اختلاف ألوان كل شيء، فيوقن بأنه لابد من خالق متصرف بكمال الحكمة والقدرة والرحمة.

والخامس: مظاهر العظمة والجلال في المسخر المقهور، فيدل على أن الألوهية لا تنتسب إلى هؤلاء، وإنما المتصف بها من يكون أعلى وأجل. فإنك ترى الشمس والقمر والنجوم مع حسنها وكبرها، والأرض والبحر والجبال والرياح والسحب والصواعق مع سعتها وقوتها وجلالتها كلها مقهورة مسخرة مذللة تحت حكمة قاهرة، فمن هذا الحكيم القاهر. وفي ذلك آيات كثيرة تثبت أن للعالم خالقا واحدا عزيزا حكيما. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)﴾ (سورة الزخرف/٩). أي لابد لهم أن يقروا بأن لهما خالقا متصفا بالعزة والكبرياء والعلم، وهوالواحد لما يرون السماء والأرض كجزئين لخلق واحد، كما هو مبسوط في مواضع.

والسادس: التدبير القاهر المحيط. وذلك مما نرى قيام كبار الخلق وصغارها بين اختلاف القوى الشديدة، فإن كل قوة متوجهة إلى سمت واحد ولا تراعي النظام الأعلى، فتوجيهها إلى خلاف سمتها وردعها عن وجهتها

إنما ينسبان إلى مدبر قادر رحيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)﴾ (سورة فاطر/٤١).

وقد وقع غير مرة أن بعض الأجرام السماوية الكبار توجه إلى سمت لو استمر فيه لتصادم بالأرض. وأخبر أهل الرصد بأن الأرض في وقت كذا لابد أن تندك ولكن حين جاء الوقت الموعود انحرف ذلك الجرم كأنّ راكبا ثنى عنانه. وهذا باب عظيم ترى المخالفات جارية إلى غير سمتها الطبيعية، فإبقاؤها لابد له من حاكم حكيم يُجرى الخلق إلى أجل مسمى عنده لتكمل به الحكمة المرعية في الخلق. فلا يعجل بيوم الجزاء مع معاصي العباد فإنه حليم غفور، وصرح بذلك في مواضع.

والسابع: كون الحق والعدل والخير غالبا على أضدادها. ومن عجيب الحكمة أن الباطل والظلم والشر بعد التدبر في آثارها تكشف عن مصالحها كأنها رغوة تحتها زبدة. والقاصر النظر يظن أن العالم معترك الخير والشر وليس بينها أمر مشترك، وكأنّ للعالم إلهين متضادين بل ليس له إله قدوس عزيز حكيم. ولكن ذلك وهم نشأ من قلة التدبر والصبر، وتقصير النظر على الظواهر. وأزال القرآن هذه الشبهة بأن الرب تعالى حق يحق الحق بكلماته، ودعاهم إلى النظر في المصالح العامة التي تخرج من المصائب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)﴾ (سورة الأنبياء/١٦-١٨). أي في غاية الشناعة أن تنسبوا اللهو والباطل إلى خالق الكل كما قالت الوثنيون إن

آلهتهم يتفرجون بالنظر إلى أحوال الإنسان، ونسبوا إليهم كل فاحشة.

وبالجملة فإن النظر في تربية الخلق بين اختلاط النور والظلمة وتعاور الحق والباطل وإجرائهما إلى مصلحة وخير دليل على كون الرب قدوسا محبا للحق والخير ورفيعا عن مشاركة ضد ومعاند. وذكر القرآن قصص الأمم استدلالا على غلبة الحق وزهوق الشر، ولا يخفى ذلك على من سرح النظر في أحوال الأمم ورأى عروجها وسقوطها بأخلاقها وأعمالها. وهذه الآيات تشهد بأن إله الخلق مع كمال القدرة والعلم والملك قدوس حكيم رحيم.

هذا. والآن نذكر جملة كافية من الآيات الآفاقية وتجد هذه الوجوه السبعة ممتزجة فيها، فإنها هكذا في وجودها. وإنما فرقناها لبيانها وتوجيه النظر إليها واحدا واحدا.

الآيات الأنفسية في إثبات الألوهية وصفاتها

قد مر في الفصل[١] أن الإنسان أولا يتوجه إلى الظاهر ثم بعد بلوغ العقل يلتفت إلى الباطن، وهذا من جهة التوجه وإلا فالباطن هو الذي يريه الظاهر ويوجهه إليه وإنما لم ينتبه عليه لا لبعده بل لغاية قربه. ومن ههنا تعلم

فصل : في هذا العالم

نفس الإنسان هي الترجمان لمظاهر الجمال والجلال والحكمة والعدل والرحمة والقدرة، فإنما هي موجودة للواجد. وكما أن النور والغناء للبصير والسميع، فكذلك هذه المظاهر لمن ينظر فيه. ولذلك لابد أن تنظر في تفصيل فطرة الإنسان حتى يتبين لك غرفات الإدراك لهذه المظاهر.

تذكرة: في فطرة النفس إحساس الشكر والرحمة والعدل، والإيقان والاطمئنان بالواحد، والتصرف والإرادة والاختيار، والرغبة إلى الخير ومعالي الأمور، والطهارة والمحبة والوله والشوق إلى قربة الرب.

المقدمة للآيات الصفاتية: العلم بالذات يظهر من العلم بالصفات، ثم تصير الذات موضع الفكر، فيزداد بها البصيرة ويتبين الصحيح من السقيم وينتفي المناقض. وعلى هذا الأصل النظر في صفات الرب الحاصلة من الآيات يصحح ما كان من الخطأ.

[١] لعله يشير إلى الفصل التاسع و ما بعدها. وانظر أيضا الفصل الخامس.

أن الآيات الآفاقية مبنية على الأنفسية. فإن من آية في السماء والأرض وما بينهما إلا وقد زوجت بها آية من النفس حتى كمل لها استدلال بها، ولولا ذلك لكان الظاهر مظلما عليها. كما هو على الجمادات والبهائم وكذلك على الغافلين الذين لا يستدلون بالآيات التي بين أيديهم، وهذا قد مر مبسوطا.

والآن إنما نوجهك إلى هذا الباطن الذي هو أقرب إليك. ولا يخفى عليك أن الآيات التي في نفسك هي أقربها وأوضحها وأكثرها وأرسخها، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ (سورة الذاريات/٢٠-٢١). أي ما أعجب منكم أنكم لا تبصرون الآيات، وهي: (١) أقرب الأشياء فإنها في أنفسكم. (٢) وهي أبينها فكيف لا تبصرونها. (٣) وهي كثيرة فكيف لا تبصرون شيئا منها. (٤) وهي أرسخها لكونها في فطرة النفس فكيف عدمتم اليقين بها فإبصاركم إياها، كلا إبصار.

تمهيد لفهم الأمثال

اعلم أن المثل نوع من التشبيه ويخص المثل أن يكون للتعليم، وبذلك هو ضرب من الحكمة. فإنه إنما يضرب لإحضار الشئ عند الذهن في صورة شي، آخر يماثله ويشاركه في حكم هو أظهر في ذلك الشيء الآخر. وذلك ليتبين للذهن الحكم الذي يعطيه للشي. الأول إذا تصوره، فإنه إذا لم يتصوره أو تصوره خلاف ما هو عليه لم يحكم عليه بالحق وربما حكم عليه بالباطل. ومن ههنا لابد أن يكون المثل لتصوير الشيء بحيث يدل على حقيقة الشي،، وذلك هو طريق من يهدي إلى الحق. وأما المغالطون فيصورون الشيء على خلاف الحقيقة بأخذهم بعض المظاهر التي لا أثر لها في حقيقة الشيء. وهذا هو الغالب في التشبيهات الشعرية، وبذلك يلبسون على السامع ليحملوهم على حكم يوافق هواهم.

وعلى كل حال فلابد (١) أن يكون المثل واضحا في التصوير، (٢) وأن يكون الحكم واضحا في المشبه به. ثم في المثل الحق لابد (٣) أن يكون الحكم في نفسه ثابتا للمشبه، (٤) ولكن خفيا عند من لم يتصوره كما هو، فإذا صوره بالحق ظهر ذلك الحكم. وإظهار الحكم هو غاية المثل، وضرب المثل لغير غاية لغو في الكلام ولغاية فاسدة إضلال. ثم بعد ذلك أمر زائد يزيد المثل بلاغة، وهو تفصيل المشبه به وذلك لغرضين:

الأول : تطويل الذكر لكي يتمكن التصوير في ذهن السامع.

والثاني : تكميل التصوير لكي يتبادر الذهن إلى الحكم إما بمحض

كون المشبه متصفا بوصف المشبّه به أو بشدة ذلك.

ثم فوق ذلك أمر آخر وهو أن يكون تفاصيل المشبه به المـذكورة في المثل مطابقة لتفاصيل المشبه التي لم تذكر. وفي ذلك يحتاج إلى تفكر لمعرفة وجه التطبيق، وبه يكون حظ العاقل من المثل المفصل المطابق أكثر من حظ العامي، بل تتفاوت فيه العقلاء. فمنهم من يقنع بوجه ما من المطابقة لعدم اطلاعه على وجه المطابقة التي هي أتم.

ثم في النمط الأعلى من هذا القسم الأخير يقصد التنبيه على أحوال المشبه الخفية الحقيقية. ولما كان هذا القسم الأعلى محتاجا إلى مزيد الفكر والتدبر تفاوتت فيه الأفهام شديدا. وهذه حالة كل أمر غامض من مكنونات العلم والحكمة. فإن العقول درجات،وفي إعمال العقل ترويضه وزيادة قوته.

وقد أنزل الله كتابه متضمنا لوجوه لا تحصى من الحكمة وتعليمها ليتدبروه فيزدادوا فهما وعلما ولذلك صار انتفاع الناس به على حسب عقولهم وفكرهم. وربما ينقص انتفاع العقلاء به لخطأ في طريق فكرهم. ولذلك فاسد العقل يضل به لاسيما في فهم الأمثال، كما قال تعالى:﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾(سورة البقرة/٢٦). ولا بد أن نبين قاعدة تصحح النظر في الأمثال.

(٢) المقصود الآن وإن كان بيان طريق النظر في أمثال القرآن ولكن ههنا قاعدة كلية تجري في الأمثال وغيره، وهي قاعدة مشهورة ولكن متروكة في العمل، وهي تأويل القرآن بنفس القرآن. فإن فيه حقا محضا ليس فيه خلط من الباطل. كما قال نابغة الجعدي يصف النبي ﷺ:

ويتلو كتابا كالمجرة نيّرا

فمن ضم به شيئا مما أخذ من العقول الناقصة ربما يحمله على غير مراده. ولذلك كان نصيب الصحابة من القرآن أوفر من نصيب المتأخرين من العلماء الذين أخذوا العلوم من الأمم، لاسيما علوم المشركين مما تكلموا فيه من المنطق والفلسفة وغيرهما. فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يتعلموا شيئا من طرق هؤلاء، فكانوا على صفاء الفطرة. فكل ما تعلموه تعلموه من القرآن،وبحسب قوتهم النظرية عرفوا ما عرفوه من علومه وكانوا يسألون بعضهم بعضا عن مكنونات أمثاله كما روي في الصحيح.

ولا يوضح لك شدة احتياج العلماء إلى التمسك بهذا الأصل الراسخ مثل اطلاعك على تخليط الذين هم من أكابر العلماء. فالآن نذكر لك مثالا واضحا من تأويل الغزالي رحمه الله لهذا المثل خاصة وبذلك لا أكون خارجا عن موضوعنا. وأنت تعلم أن الغزالي رحمه الله تعالى كان على غاية قصوى في الذكاء والمعاطاة للعقليات مع غلوه في الزهد وحبه للحق وحميته للدين وخوضه على غوامض القرآن. وصنف في ذلك خاصة كتابا سماه جواهر القرآن، والقرآن كله أغلى وأعلى من الجواهر.

ولكنه رحمه الله إذ لم يتمسك بهذا الأصل ربما خلط عليه الحق بالأوهام والظنون. ولم يكن ذلك لقلة ذكائه أوزيغ في طبعه ولكنه قد أقبل بشرح الصدر من علوم اليونان على ما ظنه غير مخالف للإسلام، وكذلك

---

[1] صدر البيت: أتيت رسول الله إذ قام بالهدى

انظر جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام :٧٧٤/٢

على آراء الباطنية ومذهبهم الجمع بين حكمة الإسلام والفلسفة. ولذلك اضطروا إلى نبذ صريح النصوص وتحريف الكلم عن مواضعه. والغزالي رحمه الله يجمع بين هذه وظواهر النصوص ويعد ذلك توسطا وإنصافا، وهذا سبب خطأه في كثير من تأويل القرآن، فيدخل فيه ما ليس منه إذا لم يجده مخالفا للقرآن مخالفة صريحة. وذلك بأن ما لا يخالف القرآن صراحة ربما يكون باطلا في نفسه أوناقصا أومعوجا. ومن كل ذلك يدخل الفساد في الأصول والعقول، وبالنتيجة يصرف عن صحيح التأويل.

فإذا لم يصح لمثل الغزالي رحمه الله التأويل بغير القرآن فكيف بمن دونه. دع عنك ما تكلم به ابن سينا في تفسير سورة الإخلاص، فإنه رجل لم يمسه نور القرآن لتغلغله في فلسفة البطلان.

والآن فلنورد خلاصة ماقال الغزالي رحمه الله في رسالة سماها "**مشكاة الأنوار**" جوابا لمن سأله عن هذه الآيات وعن حديث : "أن لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره". ولعله أحسن شئ يبلغه من يجتهد في فهم القرآن ولا يتمسك به كل التمسك، ولعله تفطن بما في تأويله من التكلف والبعد، فختم الرسالة بقوله:

"إن السؤال صادفني والفكر منقسم والخاطر منشعب والهم إلى غير هذا الفن منصرف ومقترحى عليه أن يسأل لي العفو عما طغى به القلم أوزلت به القدم. فإن خوض غمرة الأسرار الإلهية خطير واستكشاف الأنوار العلوية من وراء الحجب عسير غير يسير، فأسأل الله العفو له كما أسأله لنفسي ولسائر المسلمين (ص : ٥٧).

التأويل حسبما ظهر لي بعد التدبر والتمسك بالقرآن وحده

لابد من تقديم بيان تعيين الأمور التي ضربت لها هذه الأمثال، فإن معرفة المشبه مقدمة على طلب التطابق بينه وبين المشبه به لا سيما إذا كان بينهما مطابقة من جهة التفصيل ودلالة على أمور دقيقة.

فاعلم أن الإيمان بالله تعالى حسبما يلزم مفهوم هذا الاسم،وهو كونه على غاية الرحمة هو الأصل الذي بنى عليه جميع العلوم. فمن حرم هذا الإيمان أظلم عليه السماء والأرض كما هو مبسوط في موضعه. فبهذا الإيمان يحصل العلم ويصلح العمل، فإن العمل الصالح متفرع على العلم الحق. وبعدم هذا الإيمان يعدم كلاهما، فالكافر يعمل باطلا لأنه لا غاية له إلا هذه الحياة الزائلة وكذلك لا علم له، لا بالأول ولا بالآخر.

فإذا حققت أمره وجدته في ظلمة علمية وبطالة عملية وهي ظلمة الأعمال، كمن يمشي ولا يعلم إلى أين يذهب. وبخلاف ذلك حال من آمن بالله الواحد الرحيم، فإنه يمشي في النور، يعلم ما يعلم باليقين ويعمل ما يعمل لغاية حسنى. كما قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾(سورة الأنعام/١٢٢). أي من أحيا الله قلبه بالإيمان وجعل له منه نورا فهو يسلك في ضيائه بين الناس بالأعمال الحسنة، فهل يكون هو مثل الكافر الذي يسلك في الظلمة. ومن أسوا ضرر

هذه الظلمة أنه لا يشعر بكونه في ظلمة بل من غاية الظلمة يحسب الظلمة نورا فلا يلتمس الخروج منها، فكفره حبب إليه الكفر، ولذلك ظلمة القلب أسوء الظلمات.

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سورة الملك/٢٢).وهذا وجه آخر لبيان ضلالة الكافر. فإن من أكب على وجهه ومشى لم يمتد بصره، فلم يعلم إلى ماذا تسوقه قدماه ولم يعلم هل صراطه معوج أم مستقيم. ثم لإكبابه كان أولى بالعثرات، فكيف يكون هذا مثل من هو بصير وسوي فاختار الطريق المستقيم واطمأن بأنه يبلغ مطلوبه وأمن العثار.

وتصوير الكافر بالإكباب في غاية المطابقة بحقيقة أمره فإنه مطلوبه هو هذه الحياة الدنيا. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (سورة الأعراف/١٧٦).وما أحسن موقع لفظ "هوى"، فإنه السقوط إلى الأسفل. وقد أكثر القرآن من ذكر هذين الفريقين : أهل العلم والبصيرة والنور، وأهل الجهل والعمى والظلمة.

وبالجملة فهنا أربعة أمور : (١) العلم الحق، و(٢) العمل الصالح، وخلافهما: (٣) الجهل المظلم، و(٤) العمل الباطل السيئ، ولكل من العلم والعمل نهاية، إما الفوز وإما الخسران.

فعلى هذه المناسبة ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثال، وإنما اكتفى بالثلاثة دون الأربعة لحكمة سيأتيك ذكرها.

الأول مثل النور، وضربه للإيمان، وأدرج فيه ذكر أعمال المؤمنين. والثاني مثل السراب، وضربه لأعمال الكافرين. والثالث مثل الظلمات،

وضربه للكفر. وإنما صرح بالمشبه والمشبه به في المثل الثاني، فجعل الوسط مصرحا ليدل بالمقابلة على ماقبله وبعده من المثلين. فإن التقابل بين العلم والعمل في غاية الوضوح كما هوبين النور والظلمة، وكما هو بين الإيمان والكفر. فجعل في غاية الوضاحة لمن يتأمل ما هوالمراد من هذه الأمثلة. ثم زاد على ذلك قوله في المثل الأول : ﴿ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (سورة النور/٣٥).فدل على أن المراد بالنور هو نور الإيمان، وقد كثر في القرآن نظائر هذا المعنى.

فإن قيل إن ابتداء الكلام يصرح بأن المثل الأول إنما هو لله تعالى، قلنا ليس الأمر كما زعمت فإن مبدأ الكلام هو قبل المثل، وإنما يبتدأ المثل بقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (سورة النور/٣٥).وهذا صريح في أن المثل إنما ضرب لنوره تعالى لا لنفسه. ثم ذكر المكان في المشبه به، وهو قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة النور/٣٦) صريح في كون المراد بالمصباح هو مصباح المساجد التي فيها رجال مسبحون ولا معنى لجعل هذا المصباح مثلا لذات الله تعالى. فإن قيل فما معنى قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الآية:٣٥)، قلنا هذا يتضح بعد فهم المثل الذي ضرب لنوره، وسنرجع إلى تأويله. فهذا مثل النور الذي في قلوب المؤمنين، وهكذا فهمه الصحابة كما روى ...[1]

(٢) وكذلك لابد من إحضار تفاصيل المشبه به قبل التأمل في

[1] كذا في الأصل.

تطبيقها على تفاصيل المشبه الذي ضرب له المثل. وهذا في المثل الأول في غاية الإيجاز، فإنه جامع لوجوه كثيرة من وصف المشبه به. وأما في الثاني والثالث فواضح، فاقتصرنا على ذكر تفاصيل المثل الأول فقط.

فانظر كيف ضرب الله مثلا لنور الإيمان حيث شبهه الله تعالى ١- بمصباح في ٢-زجاجة يوقد من ٣-شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد ٤-زيتها يضيء من غير نار. ووصف الزجاجة بقوله ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ (٣٥) ﴾ ، وذكر موضع المصباح فى ٥-مشكاة، وموضع المشكاة فى ٦-بيوت رفعت لذكر الله. فإن فيها رجالا ١-مسبحين لله ٢-المعرضين عن غفلات الدنيا ٣-الدائمين في ذكر الله ٤-المقيمين الصلاة و٥-المؤتين الزكوة ٦-الخائفين يوم القيامة. فانظر كيف جمع الأنوار من وجوه ظاهرة وباطنة. فإن في الزيتونة البركة وطيب المنبت، وفي الزيت غاية اللطافة والمناسبة بالنور، وفي المصباح أول ظهور النور، وفي الزجاجة اتحاد بالمصباح كأنها هو. ولذلك قيل لها ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ (٣٥) ﴾. وفي المشكاة انعكاس النور من القريب. وأما أنوار موضع المشكاة وأصحابه فلا تخفى مما سبق.

(٥) وههنا أمور أخر يجب التنبيه عليها لكونها مما يعين على فهم هذه الأمثال:

(الف) لا يخفى في المثل الأول أن أصل النور فيه واحد ولكن كلّ ما استضاء به سمي نورا، ولذلك سُمي القمر نورا حيث قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا (١٦) ﴾ (سورة نوح/١٦).فلذلك قال: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ (٣٥) ﴾ (سورة النور: ٣٥). فدل على تكثر أنواعه. وهكذا في مثل الظلمات أيضا

قال : ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ (٤٠) ﴾ (سورة النور: ٤٠) فصرح بتكثر أنواع الظلمة. وأما كونها أيضا من أصل واحد فنذكره في حرف (ب).

(ب) في مثل الظلمات ربما يخفى كونها أيضا من أصل واحد ولكنه إنما يظهر بتأمل يسير. أما الأمواج المتتابعة فكونها من البحر اللجي الذي هو أصل الظلمات ظاهر جدا. وأما السحاب فأهل العلم به يعلمون أن أصله أيضا من البحر. فانظر إلى حسن تطابق المثلين المتقابلين. فكما أن أصل النور المشبه به واحد فكذلك أصل الظلمة المشبه بها واحد، وكما أن للأول شعبا فكذلك للثاني. ثم انظر إلى حسن تطابقهما بالمشبه، فإن نور الإيمان هو منبع الخيرات كلها، وكذلك الكفر أم السيآت كلها.

(ج) قد شبه الكفر بالبحر اللجي. فانظر حسن موقع هاتين اللفظتين عند أفهام العرب، فإنهم كانوا يسمون البحر كافرا لأن الكفر هوالستر كما قال لبيد:

حتى إذا ألقت يدا في كافر

وأجن عورات الثغور ظلامها[1]

أي إذا غربت الشمس في البحر. وكذلك قوله :

وفي ليلة كفر النجوم غمامها[2]

ومثل ذلك حسن موقع لفظة اللجي، فإن الكفر هو أصل اللجاج،

---

[1] ديوان لبيد :٢٣١

[2] صدر البيت: يعلو طريقة متنها متواتر   في ليلة كفر النجوم غمامها

والبيت من معلقته في ديوانه :٢٢٠.

وقد ذكر القرآن كثيرا لجاج الكفار بالباطل.[1]

(د) قوله تعالى ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ يبين منبت الزيتونة، وذلك هو الأرض المقدسة- أرض الأنبياء والرسل، وهي أجود منابت هذه الشجرة المباركة. قال تعالى : ﴿ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة المؤمنون/٢٠). وهذه الأرض في وسط المسكونة كما هو ظاهر، فليست شرقية ولا غربية.

(ه) إنما ضُرب للمؤمنين مثل واحد وذكر أعمالهم من التسبيح ودوام ذكرهم الله وإعراضهم عن همزات الدنيا وغير ذلك تبعا لإيمانهم، ليدل على غاية الاتصال بين إخلاص الإيمان وإصلاح العمل، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الأنفال/٢-٤). فأعمال المؤمنين هي مظاهر عين إيمانهم، فهما في غاية الاتصال. وأما الكفر وأعمال الكافرين مع بطلان كليهما لا وفاق بينهما.

وبيان ذلك أن المؤمن له غاية واحدة وهي التقرب إلى الرب الذي آمن به، فكل عمله لهذه الغاية. فهو يمشي على صراط مستقيم، وحينئذ لا مخالفة بين علمه وعمله. وأما الكافر فعمله لدنياه وإلهه في أعماله هو هواه، فإنه إنما يعمل لاقتناء حاجاته الدنياوية فمطلوبه في الدنيا فقط. وهو قلما

[1] انظر كلمة "الكفر" في مفردات القرآن للمؤلف.

يخطئ في ذلك، فإن عقله يهديه إلى مصالحه الحاضرة. وأما اعتقاده فظنون وأوهام يتبع فيه ما وجد عليه آباءه، وليس له من دينه سبيل مستقيم. ولذلك ربما يفعل ما فيه خلاف لمصالحه الدنياوية بل خلاف عقله الفطري، فلم يحصل له من دينه ومعتقداته طريق يطابق مصالحه. ومن علامة الباطل التناقض والتخالف، فإنه أخذ الدين تقليداً ويعمل للدنيا تحقيقا حسب مصالحه الظاهرة إلا فيما اضطره دينه الباطل، فلا يتطابقان أبدا. فهو لابد على صراط معوج.

(و) في مثل المؤمنين قدم الإيمان وأدرج الأعمال تحته، وهذا هو ترتيب سوي وبيان صراط مستقيم. وفي مثل الكافرين ترى الأعمال متقدمة على العقائد. ولا شك أن الكفر خلاف الفطرة فلا ينشأ إلا من الأعمال السيئة، بل الكفر هو أصل العمل السيئ. فمن تغافل وتولى عن ذكر الرب تردى في الظلمات، فأضله عمل قلبه وإرادته. ثم يزداد أثره بالانهماك في شهوات الدنيا فتكون ظلمة على ظلمة. فلذلك قدم العمل وبين بطلانه، ثم ترقى فبين آثاره على عقله. وإلى هذا يهدي قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة المطففين/١٤). بارتكاب المعاصي أفسدوا قلوبهم وأعموا عقولهم.

فصول من كتاب الحجج من غير ترتيب

اعلم أن الحجة الصحيحة لايلزمها أن يضطر المخاطب إلى التسليم، ولا كل ما أورث في المخاطب إيقانا بصحة دعواه فهو برهان صحيح.

---

(١) لم يعط الله الإنسان على طريق الإلجاء والاضطرار إلا أوائل النعم، ثم جعل الإنسان يكسب غيرها بجهده وإرادته، وذلك ليبتليه كيف يفعل. فإن استعمل أوائل النعم وعرف قدرها و لم يضيعها أعطى مزيدا، وإن كفر بها أوشك أن يسلب ما قد أعطى من أوائل النعم وأعمها ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾.

قد ذكر القرآن أسباب إنكار المنكرين إجمالا وتفصيلا، ولنذكر لك لتعلم أن الحجة لا تلجئ إلى اليقين ولو كانت واضحة بالغة لذي قلب سليم. وبحسب هذه العلل هم على طبقات :

(١) من جادل بالشكوك والظنون وما تعلم واعتقد من قبل، فكان في أسر الإلف والعادة.

(٢) من فهم صحة الحجة و لم يجد محيصا عن تسليمها، ولكن اتهم الخصم ونسبه إلى سحر البيان وأن جوابها عند المتهم، فهو في أسر التقليد.

(٣) من بقي حيران مبهوتا لا يتحرك كأنه قد دمغ فغشي عليه، فهو

في أسر دناءة النفس من الجهل البالغ.

(٤) من عرف صحة الحجة وأيقن بالحق ولكن لم يقبله لموانع وهي ثلاث : (الف) الكبر والأنفة (ب) الحسد والشحناء (ج) حب الشهوات والدنيا.

(٥) من زعم أنه يطلب الحق وتوهم أن علامة الحق أن يكون ملجئا إلى اليقين، فإذا لم يجد اليقين زعم أن الحجة غير صحيحة.

(٦) من لم يلتفت و لم يرد أن يسمع لأحد أسباب ذكرناها فى القسم الرابع، أو لبلادة وغباوة كالأنعام.

(٧) من فسد نظره وعقله لظلم وسيئة اقترفها فلم يتأثر للحق واشمأز عن قبوله.

---

(١) من الآيات الأنفسية على النبوة

من الآيات الأنفسية على النبوة شدة احتياج الإنسان إلى التربية وخلقه على كمال الاستعداد لقبولها. فإنه يميل إلى التعلم ويشتاق إلى حكاية ما يرى ويسمع. ثم هو يصيخ إلى الناصح المشفق ويفرق بين الحب والبغض ونظر الرضى والسخط، وينشأ على محبة المدح وكراهة الذم. فبالتعلم يأخذ كل ما به يصير إنسانا بالفعل. فالإنسان إن جرى على فطرته إذا وجد داعيا إلى صلاحه وحسن أخلاقه، وناصحا مشفقا متصفا بجمال الخلق والخلق حثته فطرته ولبى قلبه من بين جنبيه إلى قبول تلك الدعوة لما وجد المطابقة بينها وبين فطرته. فتلقاها على بصيرة ودليل من فطرته لا على التقليد، بل التقليد

هو المانع في أكثر الأحوال.

(٢) الإيمان يعطيه الرب تعالى لمن يعقل ويفهم

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (سورة يونس: ١٠٠).

لا شك أن كل نعمة هي من عطية الرب تعالى والإيمان من أكبر النعم ولكن من النعم ما أعطاها الرب تعالى أولا ومنها ما يعطيها بعد عمل ربط بها، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة محمد/١٧).فالاهتداء يكون بعد الهداية، فهداهم أولا ثم من اهتدى به زاده بهدى زائد.

فهذا أصل راسخ، وبناء عليه أوضح الله تعالى آياته وأرسل الرسل ببينات من الهدى والفرقان. فمن عقل ونظر فيما حوله وفوقه وتحته من آيات لا تحصى أو عقل وسمع ما نبّهه الرسل عليه وتحرى الرشد أعطاه الله تعالى الإيمان. ومن تغافل وتعامى ربما يختم على قلبه، وحينئذ لم تنفعه هذه الآيات المشهودة ولا الإنذار من الرسل. فإن عدم قبول الحق بعد وضوحه جحدا وعتوا يجلب مقت الرب وينزل عليه الرجس فلا يرزق الإيمان.

وبالجملة فالإيمان هوفضل من الرب تعالى يعطيه لمن يشاء. ثم إنه تعالى يعطيه لمن يعقل ويفقه ما دل عليه الآيات المشهودة في الآفاق، والمتلوة على ألسن الرسل ودعاة الحق. ومن لا يعقل يغلق عليه باب الهداية، فإنه رد هدية ربه وكابر الحق. فثبت أن إنكار الحق بعد العلم له ضرر شديد، وقد بين الله ذلك في كثير من القرآن تحذيرا عن اللجاج والمراء في مخالفة الحق. فههنا

أربعة أمور لابد من تذكرها :

(الف) الإيمان هو بإذن الله ومشيئته، فليس للعبد ان يؤمن إذا شاء. وهذا مثل التوبة، فالمسوف بها ربما يحرمها.

(ب) الإيمان يعطيه الرب تعالى لمن يعقل ويفقه ما يـــرى ويـــسمع فيقبله ويخبت له ويركن إليه.

(ج) العقل والمعرفة للحق إنما يعتبر إذا أثمر التلقي، فـــإن الإنكـــار بالحق بعد وضوحه لا يستحق اسم العقل. وهذا الاستعمال شائع في الكلام وفي القرآن للعقل ولغيره من قوى الإدراك.

(د) من كابر الحق بعد الوضوح ونبذه وتغافل عن عقله وتصامم عن سماعه نزل عليه عذاب القسوة والحماقة. فإذا وقع ذلك لم ينفعـــه مـــن أسباب الهداية شيء، لا الدلائل العقلية ولا المعجزات الحسية. وقد بين القرآن هذه الأمور في مواضع لا تحصى، فمنها قوله تعـــالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (ســـورة يونس/ ١٠٠-١٠١).

(القسم الثاني)

مباحث الكتاب

من المسودة الأولى والثانية وغيرهما

ثلاثة أصول

تذكرة

الحق لا يبطل بباطل ولا العلم بجهل. قد أيقنا بأن لنا خالقاً ومنعما وله علينا حق، وهو أن نشكره ونعظمه. فإن أشركنا به من لم نعلم له حقا فأبطلنا حقا بباطل وعلما بجهل. وهدانا إلى هذا الأصل قوله تعالى:﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ (سورة لقمان: ١٥). فذكر الدليل على ترك الشرك كونه غير مبنى على علم. وفي هذا الكلام أيضا دل على أصل ثان، وهو:

٢- إنه لا يبطل الفرع الأصل، فإنه تعالى قال قبل ذلك:﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾(سورة لقمان:١٤). فإن جاهداك الوالدان على الشرك لا تهدم الأصل بهذا الفرع. ثم دل على أصل ثالث وهو:

٣- إنه لا يبطل الحق من الباطل إلابقدر ما هو باطل فلا عدوان. فلم يأمرنا بنبذ حق الوالدين بالكلية بل أمرنا بقوله:﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (سورة لقمان:١٥).

فصل

القسم العمومي في الأصول والأمور العامة

(فطرة الإنسان وموضع العقل السليم والعلم اليقين والعمل الصالح)

(٢) اعلم أن الإنسان بين طريقين : مستقيم، وجائر. والأول هو صلاح أمره وسلامة فطرته، والثاني هو فساد حاله وسقام خلقته. فنبين هذين الطريقين وأسبابهما. فنذكر الأول في هذا الفصل والثاني في فصل يتلوه.

فنقول إن الإنسان بفطرته يهتدي بالعقل، وإليه يطمئن وبه يحتج على من خالفه. ومنه يأتيه العلوم كلها إما بالبداهة أو بالنظر والاستنباط.

وأما الوحي فإنما جاء لتنبيه العقل وتسديده وتنويه أمره وتأييده ولذلك حث كثيراً على التدبر والفكر، ومدح أرباب الفهم والنظر. ألا ترى إمامنا إبراهيم عليه السلام كيف احتج على الكفار بصريح العقل وهم تمسكوا بمحض الظن والتقليد. قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي هل معك حجة أم تسخرمنا، فجاء بالدليل الواضح كما حكى الله عنه: ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأنبياء:٥١-٥٦). أي أنا على بصيرة وأرى الحق الصريح عيانا فأشهد به عليكم. وذكر القرآن من

احتجاجه مراراً وسنذكر بعضها في مواضع تليق من هذا الكتاب. فالاعتماد على العقل والاحتجاج به هو الأصل الأول لكتابنا هذا، والأصل الثاني الذي هو كالتفصيل.

الأول هو أن تتبع (١) العقل إلى آخر ما يهدينا إليه من (٢) العلم الحق، (٣) والعمل الصالح. فهذه ثلاثة أمور.

العقل، وهو نور إلهي الذي رفع الله به الإنسان على البهائم. ثم العلم الذي كرم به آدم على الملائكة، وهو ثمرة العقل. ثم العمل الصالح بالاختيار الناشئ عن العلم الحق و القلب السليم، وهو المراد بالتقوى. فكما أن العلم ثمرة العقل فكذلك العمل الصالح ثمرة العلم.

(وأن لا نلتفت إلى أباطيل الوهم وخزعبلات الظن وتسويلات الهوى. فإن هوى النفس لهذه العاجلة يثبطها عما هو أعلى وأبقى ويسدها الوهم برقاق الظنون عن سلسال اليقين كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾ (سورة القيامة:٢٠-٢١). وقال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة الأعلى:١٦-١٧). فإذا غلب الهوى لم يبرح الوهم يزين الظن في صورة الحق ويغطي الشر بحلاوة الخير حتى يغويا أهلهما في مهام الجهل والعمى ويلقياهم في هاوية الإثم والردى).

وبالجملة فلا شك أن لا نجاة إلا بالعقل فهو الرفيق الأعلى، وبالعلم وهو العروة الوثقى، وبالعمل الصالح وهو الطريق المثلى إلى السعادة الكبرى. وقد بين القرآن في غير موضع حاجتنا إلى هذه الثلاثة، ولنذكر منها بعض

الشواهد.

وأما العقل فقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة يونس:١٠٠). فصرح بلزوم الرجس بنبذ العقل. فمن لم يستعمل العقل لم يميز بين الحق والباطل والطيب والخبيث فلا بد أن يقع في كل شر.

وأما العلم فأكبر فائدته أن يعرف أن ما أنزل الله هو الحق وأنه يهدي إليه، كما قال: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾(سورة سبأ:٦). وقال: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

فبين أن الغفلة عما يهدي إليه العقل والعلم يجعل الإنسان كالبهائم بل أسوأ حالا منها. فهم كالأنعام في عدم تطلعهم إلى ما وراء الظواهر بل هم أضل لما أنهم أعطوا من القوى ما تلقيهم في الهلاك إن لم يسددوها. كمن ركب فرسا جموحا خليع العذار ولا ينفك يركضه. وإنما سموا غافلين لشناعة غفلتهم كمن أخذت النار في متاع بيته وهو يلعب على سطحه. فالبهائم أسلم من الإنسان فإنهم واقفون على مدارجهم والإنسان يترقى إلى السماء بسلم، فإن غفل وزلت به قدمه عظمت سقطته.

وأما العمل فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة التين:٤-٦). فمن ترك طريق الإيمان والعمل الصالح فأولئك الذين ردهم الله إلى أسفل سافلين. وقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الجاثية:٢٣). أي بعد أن أعطاه الله العلم فلم يتبعه وأطاع هواه السافل صار علمه جهلا و ضلالا. وهكذا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦).فالذي آتاه الله العلم وانسلخ منه واتبع هواه فهو الذي أخلد إلى الأرض وترك سبيل الرفعة الذى أعطاه الله فباء بسخطه، فرده الله إلى ما أخلد إليه. وذلك بما جعل الله الإنسان حرا مختارا فلا يكرههم، وسيأتيك تفصيل ذلك. ويتبين من ههنا أن الهوى هو الذي يغوي و يضل عن الرشد الذي يهدي إليه العقل والعلم.

ومما قدمنا تبين أن ذلك هو صراط الفطرة الذي سماه الله أحسن تقويم. فاتضح أن طريق الفطرة هي استعمال العقل وطلب العلم وتسديد العمل.

فساد الفطرة و موضع الغفلة و الظن و الهوى

(٣) وكما أن الإنسان يجري على صحة الفطرة بالعقل و اليقين والتقوى فكذلك يضل عن سبيلها بما يخالفها من الغفلة والظن والهوى. ونبين الآن كيف ينشأ هذه أسباب الضلالة، فنقول: إنه لا يخفى أن الإنسان يكسب العلوم ويترقى فيها ويستعملها للذة فيها ولاقتناء لذات أخر بها. ولكنهم على درجات مختلفة بحسب اختلافهم في أقسام الرغبات وتفاوتهم في درجاتها.

ومن ههنا تفرقت الهمم وتباينت المسالك. ومع كثرة هذه

الاختلافات كلهم مستعملون العقول ومتفقون في الأصول حتى أنك لا تسميهم إلا نوعا واحدا لأنهم لم يختلفوا في أصول الرغبات بل في مقاديرها ونسب بعضها ببعض. فمن غلب عليه رغبة خاصة انهمك فيها وغفل عن سواها. وبحسبها استعمل العقل وتعاطى من العلوم ما يناسبها. فإن لكل مقصد علما يخص به. وإذ كانت أمور الدنيا لعجلة استحصالها وسرعة زوالها وقلة خطرها وخفة نفعها وضررها لا يحتاج طالبها إلى الاطمئنان بها قبل الشروع فيها. فصارت عادته العمل على الظنون في كل ما يأتي ويذر.

ثم شدة انهماك الناس في هذه العاجلة ترسخ هذه العادة فيهم، فرضوا بالظن واطمأنوا به كما اطمأنوا بهذه العاجلة البائدة. وإذ لم يذوقوا برد اليقين فهم من حياض الظنون واردون على الماء الحميم ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ٥٥﴾(سورة الواقعة:٥٥). كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠﴾ (سورة النجم:٢٩-٣٠). أي الذين لا تهمهم الحياة العليا الباقية لاتهمهم العلم العالي، فهم قانعون باتباع الظنون والقول والعمل بمقتضاها. فمن اطمأن بهذه الحياة السافلة قنع من العلم بما يكفيه، ولم يرفع رأسا للعلوم التي هي العلوم لاختلاف حاجات هاتين الحياتين.

ولما كان العقل فطرته النظر إلى ما وراء الحس والطلب للباقي فمع شدة رغبتهم في هذه الفانية تنبعث فيهم أحيانا عواطف إلى ما فوقها وورائها. فلا يمكنهم الإغماض عنها بالكلية فيقصدونها ويصعدون إليها. ولكن يسلم الظن لما تعودوا به فيقولون في الدين ما ليس بالحق ويفترون على الله ما لا يعلمون،

فيضلون ويضلون كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ (أي في الدنيا لما نزل بهم العذاب وتهدم ما بنوا لفساد الأخلاق) وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ٢٥﴾ (سورة هود: ١٨-٢٥) إلى تمام الاستدلال من الأنبياء على المعاد. فبين الفرق بين الفريقين وصرح بأن الذي قصر نظره على هذه الحياة لا يهتدي إلى الحق[1].

وبالجملة فلا بد من فطام النفس عن اعتماده في الدين على محض الظن وعن انقيادها لهواها العاكف على العاجل الفاني. وذلك لأن الله تعالى ربط نعمه وأجرى أموره على نهج الصدق والعدل، كما قال تعالى:

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقًا وَعَدۡلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ (سورة الأنعام:١١٥-١١٦). وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ

[1] بياض في الأصل.

إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ ﴿٣٦﴾ ﴾ (يونس:٣٦). و قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (الأنعام:١١٩). فظهر أن النجاة لا تحصل بتقليد الناس ولا بمجرد الظن. ويدلك على ما ذكرنا النظر في تاريخ تربية الإنسان وكسبه العلوم والآراء والأخلاق والديانة.

لا يخفى أن الإنسان ليس كسائر الحيوانات جارية على منهج الطبيعة ومقتصرة عليها، بل إنه خلق على غاية الضعف والعجز في جوارحه ومداركه. ثم إنه أعطى استعداداً لينال به فضلا كبيرا على سائر الحيوان في الفكر والعمل والمنطق والتدبر. ولكنه يكسب كل ذلك أولا بالتقليد والسمع، و يستمر على ذلك برهة من عمره. فبعد ذلك إذا جرب خطأ من حوله جعل يستبد برأيه فيما حوله مع بقائه في أمور دقيقة على التقليد وآراء مأثورة من الخلف كابرا عن كابر فيستوثق التقليد في الدين. ثم حبه للعاجلة وغلبة الشهوات التي لم تقمعها تربية كبرائه وقد جبل على شدة الاحتياج إلى التربية لضعف عزمه ونسيانه وإبائه وطغواه عند استغنائه يغلب عليه ذمائم الأخلاق.

فهذا تاريخ تربيته يدل على أن الإنسان محفوف بأسباب الضلالة. والآن نذكر كيف نجاته من ظلمات هذه الأمواج المتلاطمة حول سفينته الصغيرة. فنقول إن نجاته أيضا موكولة إلى فطرته واستعداده، وهو ترك الظنون والبدار إلى مطمئن البر واستعمال صحيح فطرته وردها إلى حسن نظامها وقبول النصيحة لمن يهديه إلى طريق النجاة الواضح البين. والآن نبين ما هي طريق الفطرة الإنسانية وصحة نظامها وحسن قوامها الذي سمى

أحسن تقويم.

فإذا أعملنا فيها الفكر والنظر إن قدرنا عليه وجربناه في أمور كثيرة ووافق بنا آراء العقلاء، فإن عجز أحد عن النظر لا بد أن يتبع من كان أقوى نظرا وأوسع علما وأتقى عملا وهو مع هذا التقليد آخذ بحكم العقل الصريح، فإنه جعل العقل الراجح فوق المرجوح. ولكن الظن لا يغلب الحق، فلا تقليد فيما خالف الحق الصريح.

فطرة النفس هي حرية العقل و العمل

(٤) مما قدمنا تبين أن العقل السليم والعلم اليقين هما يهديان إلى الرشد إذا اتبعتهما الإرادة والعمل. وذلك هو طريق الفطرة للإرادة فإن الإرادة لابد أن تصرف إلى ما هو الخير وأحسن وأبقى. فإذا جعلنا الإرادة منقادةً للعقل والعلم تركناها على فطرتها واستقامة أمرها وذلك حريتها. فإن من تبين له الرشد ثم أخذ بخلافه فقد ناقض فطرته وأكره نفسه وساقها إلى غير طوعها الأعلى. وهذه الفطرة والإطاعة هي الرشد والدين. قال تعالى في أمر التوحيد : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة الروم:٣٠).

فبحرية العقل والعلم يتبين الرشد من الغي وبحرية الإرادة يُهتدى إلى الدين الفطري فلا إكراه فيه. ثم الدين هو الطاعة فالإكراه بالطبع مناقض للدين سواء كان إكراه العقل أو إكراه الإرادة. قال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ (سورة البقرة:٢٥٦-٢٥٧).

وذلك بأن الدين لا يكون إلا باعتقاد القلب. ثم في الإكراه إبطال حرية العقل والإرادة وهي فطرة الله. ثم الإيمان هو رأس الحسنات فكيف يترتب على غير الإرادة. ولو كان من نعم الله التي أنعم بها من غير سابقة عمل لأعطاه جميع الناس، ولذلك جعله شرطا متقدما لإخراجه المؤمن من ظلمات الجهل والهوى إلى نور العلم والتقوى. فأعطى الإنسان عقلا وإرادة من غير سابقة، فمن استعملهما واهتدى بهما فتح الله عليه باب الإيمان به. فإذا ولج ذلك الباب تمسك بالعروة الوثقى.

ولما كانت الإرادة حرة لا سبيل للخداع في دعوة الناس إلى الدين فلا نقول كما تزعم هذه النصارى بأن الإكراه والخداع والتمويه وركوب سائر المعاصي يحسن لإشاعة الدين، وأن الغاية الحسنة تحسن الوسائل السيئة، فبئسما زعموا. أيخدمون الرب بالإثم وليس ذلك من تعليم الإنجيل، و إنما اتبعوا فيه ضلال الفلاسفة فضلوا.

وأما المسلمون فألزمهم الله القيام بالقسط ويدعوهم إلى توسيع البر والإحسان ودعوة الناس إلى الرب بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (سورة النحل:١٢٥). ولم يأذن لنا بالشدة إلا دفعا لشر الطغاة ورد الجنايات حتى قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (سورة الشورى:٤٠). وهذا مبسوط في موضعه. وإنما المقصود ههنا أن

العقل ودين الفطرة على غاية الموافقة.

إنه لا مناقضة بين حقين وإلا أيقنا بصحة نقيضين وذلك محال. وبناء هذا الأصل على إقامة الميزان. فكل ما يتبين عند صريح العقل أو شهد به الشواهد وخالفه أو هدمه حكم آخر مثله أمعنا النظر ورجعنا فيهما الفكر حتى يتبين ما هو الأصل والأوضح. فإن الأصل يعم حكمه والجزئيات بالطبع تتبع الكليات. ثم الكليات أوضح وأجدر بتصميم النظر والترجيح للأوضح. فهذه أصول صحيحة واضحة.

الفرق بين العقل الكلي والعقول الجزئية وكذلك بين العلوم الكلية والجزئية

(٦) فإن قال قائل قد علمنا أن دين الفطرة موافق للعقل السليم ولكن كيف العلم بسلامته، فإنا نرى العقول متفاوتة ومظنة للفساد والزيغ وبالنتيجة آراؤنا مختلفة حتى أن الذين يدعون اتباع العقل لم يسلموا من التخالف بل هم أشد الناس اختلافا وأبعدهم اعتسافا. وأمر الدين عظيم، وقد أصاب أهل التقليد إذ لم يعملوا عقولهم الجزئية في دينهم واعتمدوا على من ظنوه أعقلهم أو على رأي اتفق فيه الجمهور. فاطمأنوا به فاستراحوا عن شبق النفس و شقاق العقل. قلنا إن هؤلاء المقلدين أيضا ضلوا كما ضل المفتونون بالعقل بل هم أشد الناس عنادا وأكثرهم إفسادا. ثم إنهم لم يتركوا إعمال العقل إذ اعتمدوا على من ظنوه أعقل، ولا خرجوا من سلطانه إذ أطاعوا من أطاعوه ظنا برجاحة عقله. وهذا يثبت أن الإنسان بفطرته تابع لعقله سواء أخطأ أم أصاب ودعا أو أجاب. وإذ لا محيص من إطاعة العقل

وهو فطرة الإنسان ونرى اختلاف الناس في آرائهم وأهوائهم لا بد من النظر في نهجه السوي الذي لو عمل عليه لهدى إلى سلامة فطرته. فالعقل هو الميزان الفاروق بين الحق والباطل، ولكن لاستعماله طريقا وأصولا. فنذكر أصول هذا الميزان وقد جاء بها القرآن.

الأول أن الحق الجلي الواضح لابد من اتباعه إيمانا وعقلا. وقال تعالى : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (يونس:٣٢).

الثاني أن الظن إذا خالف الحق الصريح يترك. قال تعالى : ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٣٦﴾﴾(سورة يونس: ٣٦، والنجم: ٢٨).

الثالث أن الظن الذي دلت عليه الشواهد يتبع إذا لم يخالفه ما كان أجلى وأقوى منه، وذلك حيث يسكت صريح العقل وكانت القضية من النظريات الخ.

الرابع أنه لا مناقضة بين حقين الخ.

(ألف) الاعتماد على الأوليات البينات.

(ب) ترجيح الحق المبين على الظن

(ج) ترجيح عقل الأقوى والأعلم في النظريات لا البديهيات.

(د) رجع النظر في توفيق الحقائق عند التناقض.

القسم العمومي

العقل هو الفارق بين الإسلام والكفر

اعلم أن سبيلنا سبيل العقل فلا نؤمن إلا بما يتقبله محض العقل ويطمئن به بالهدى الفطري. وإنما جاء الوحي والرسل موافقا له كالنور للبصر. وصرح به الكتب المقدسة كثيرا والقرآن أكثرها تصريحا. فهذا هو الأصل الأول لكتابنا. ثم الأصل الثاني وهو كالتفصيل للأول أن المؤمن يتبع العقل في جميع أحكامه، والكافر يتبعه فيما يوافق هواه وظنه كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ (سورة النجم: ٢٣). فيعشو عن هداه.

وقد ضرب الله مثلا لهداه ونوره والذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فقال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾(سوره البقرة:١٩-٢٠).

فهوى النفس لهذه الحياة الدنيا يثبطها عن القصد إلى أعلى الخير، وظنونها الباطلة تحجبها عن النظر في محض الحق ولم أر كالظن والهوى عدوا للحق والتقوى. فالظن يزين الباطل في صورة الحق، والهوى يغطي الشر بحلاوة الخير. فهما عثرتان في طريقي العلم والعمل. وأخبر الله تعالى في كتابه الحكيم عمن اتبع الظن وأقبل على الدنيا وأعرض عن أصل الخير ومحض الحق، فقال عز من قائل: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ

مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ ﴿٣٠﴾ ﴾(سورة النجم:٢٨-٣٠). أي لا يطلبون العلم الذي يحتاج إليه من يهمه الحياة العليا التي هي خير وأبقى، ونفصل ذلك.

تذكرة

نعقد فصلاً (بعد الفصل في الاعتماد على العقل المجرد) في ذكر أصول فاسدة وهي:

(١) تسمية الرب تعالى بالعلة وعدم الفرق بين المتقدم الفاني والخالق القيوم.

والعلل تدل وجودا وغيابا على معلولاتها، مثلا الشمس تضيء بوجودها وتظلم بغيابها، فاستدللنا على كونها علة الضياء. وهذا الاستدلال يجري في الطبيعي لعدم مناسبة بين العلة والمعلول. وأما الخالق فهو حي قيوم دائما أبدا، فلا يمكن هذا الطريق لإثبات وجوده. ولكن نستدل على نظر رحمته إلينا وجوداً وغيابا بتوجهنا إليه وغفلتنا عنه، وبذلك نستيقن بوجوده.

وكذلك نستدل على وجوده بلزوم المناسبة وهو استدلال أقوى وأقوم.

فإن وجود المعلول بوجود العلة وغيابه بغيابها لا يدل على نسبة الإيجاد إنما يدل على ربط بينهما. وأما لزوم المناسبة بين الخالق والمخلوق فضروري بل هو تعبير آخر للمعلوم كما يكون في عكس القضية. مثلا القوي الحادث لابد له من خالق أقوى. فإن الحادث لم يخلق نفسه للزوم تقدم الشيء وتزيده على نفسه كما قال تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾(سورة الزخرف:٩). فهذه عبارة عن كون السماوات والأرض موضعا للقوة والحكمة، فإن عُلِمَ حدوثهن تيقن وجود عزيز عليم لإيجادهن.

اليقين ضروري أودع في فطرة الإنسان

اعلم أن الإنسان مفطور على اليقين فلا يجد عنه منصرفا بل كل حيوان له يقين وإلا لكان كالجماد. والمنكر به يكذب نفسه ويناقض حسه، فإن إنكاره إقرار بأنه أيقن بوجود كلامه وأيقن بأنه يتكلم وأيقن بأنه يسمعك قوله حتى أنه في فكره أيضا حين يعارض نفسه ينقض رأيا ويبرم آخر هو موقن بعلمه وفكره. وكذلك كل فعل وحركة تتبع إرادة دليل على يقين. فكل نفس صارت مريدة، ولا نسمة بغير إرادة فقد صارت قبل إرادتها موقنة. فاليقين المطلق لا سبيل إلى إنكاره، ولذلك سميناه ضروريا لأنه قبل اختيارنا وعليه بناء كل علم وعمل.

مسلمات	مظنونات	مشبهات بغيرها	مخيلات

معتقدات	مأخوذات

واجب القبول	مشهورات	وهميات

١	٢	٣	٤	٥
أوليات	مشاهدات	مجربات	متواترات	القضايا التي قياسها معها

اليقين

(١) من أيقين بشيء فقد أيقين يقينا، واليقين بشيء متضمن ومبني على اليقين بخمسة أشياء:

(الف) اليقين بوجود الموقن.

(ب) اليقين بوجود ما يوقن به.

(ج) اليقين بصحة طريق إيقانه.

(د) اليقين بصحة فطرة الموقن.

(ه) اليقين بقدس الفاطر.

و ذلك بأن البناء لا يقوم إلا بقيام أساسه والأساس ما لو يهدم لانهدم البناء ، فوجود البناء مستلزم لوجود أساسه. و أما أنها المباني فلأن من شك في واحد من هذه الخمس لابد أن يشك في نفس يقينه، ولكن اليقين موجود على رغم أنف الشاك. وإذلم يجد سبيلا إلى هدمه فيوقن بفطرته اضطرارا، ولكن يحاول أن ينكر بأساسه لما أن منطقه الناقص لا يهديه إليه فيناقض نفسه يوقن بحكم الفطرة و يشك بحكم منطقه.

نقسم الناس إلى فريقين

الأول أهل السفسطة الذين يدعون أنهم لا يقين لهم. والثاني أهل الإيقان على العموم. أما الفريق الأول فمثار خطأهم وعلة شكهم أنهم اتبعوا الاستدلال اتباع الأعمى وتركوا البداهة الواضحة. وذلك أنهم وجدوا العقل والحواس تغلط فظنوا أن طريق العلم عنهم مسدود. وحجتنا عليهم أنكم

اعتمدتم على الاستدلال وهو مبني على اليقين بأصول النظر وصحتها. فإن قلتم إنكم لا توقنون بالنظر أيضا لتناقضه قلنا فدعوا الطريق الذي أضلكم وأخرجكم من اليقين إلى الشك. وذلك لأنكم اعتمدتم على النظر المحض وهدمتم ما عليه أساسه وهو البداهة. فإنكم وإن أيستم الآن من اليقين ولكنكم كنتم تطلبونه فكيف بكم إن وجدتموه و لا شك إنه بغيتكم. فعليكم أولا أن لا تخادعوا أنفسكم وتكذبوها، فإنكم موقنون بالظاهر المحسوس وبأصول النظر. و لم يمكن الشك لكم من قبل بل عرضكم، فلا تبطلوا اليقين بالظن فاجعلوه مبدأ حسكم. والآن فادخلوا في الفريق الثاني واسمعوا ما نقول لهم.

أما الفريق الثاني فهم ينقسمون إلى قبيلتين :الأول أهل الظاهر المحسوس ممن أنكروا بالروح والمعاد والألوهية.والثاني أهل الأديان على عمومهم من البراهمة والموحدين والمشركين. أما القبيل الأول فقد كثروا في هذا الزمان لأنهم لما اكتحلت عيونهم بالعلوم المحققة وجدوا في دينهم من الحمق و الفسوق ما تشمئز منه النفوس فرفضوه. وإذ لم يعرفوا من أديان أخر إلا ما كرهه إليهم كبراؤهم قالوا في أنفسهم إذا كان هذا حال ملتنا التي كنا نحسبها أوثق علما وأحسن عملا فما بال النحل الأخر الباطلة فساء ظنهم بكل دين، وعضوا على العلوم المحققة الظاهرة ومكارم الأخلاق عوضا من الوحي. وعدوا أنفسهم من حزب من اشتهر بالفلسفة في سالف الزمان كسقراط وفلا طن وفلان وفلان، فظنوهم أكرم جيلا وأعز قبيلا وأحسن قيلا. فحجتنا على الفريق أن ندعوهم إلى ما اعتمدوا عليه من اليقين بالمحسوس الظاهر وبداهة العقل. فاجتمعت الفرق الثلاث حول نقطة واحدة وهي بداهة العقل.

فطرة الفؤاد و مباديها

الطهارة و الشكر و الإحسان

(١) لا نشك في أن القلب يميز بين الطهارة والنجاسة ويرغب في الأولى ويتنفر عن الأخرى. قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ ﴾(سورة الشمس: ٧-١٠). والفجور والتقوى بناؤهما على إحساس بقاض بالحق عالم بما نفعل وفي النفس ظل ذلك القضاء والعلم ولذلك تلوم على الفجور وتعترف بالذنب وتستحيي من علم الناس به، وعلى إحساس بعدم ملائمة الذنب لصحة الفطرة ورضى الفاطر.

(٢) لا نشك في أن القلب قد جبل على الشكر للمنعم والرحم على الضعفاء. ومن أصل الشكر المكافأة بين الأقران، والجامع بينهما العدل. فمن العدل أن نشكر المحسن ونجازي الأكفاء. ومن الرحم الانتقام من الظالم والسخط به. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۝٥٥ ﴾ (سورة الزخرف: ٥٥). وأيضا هو ضد للشكر. وإذا أيقنا أن الشكر والمكافاة والرحم والمؤاساة والانتقام من الواجبات علينا علمنا أن علينا حقوقا يعزنا و نحن مطالبون بها.

ومع أن الرحم أصل مستقل فإنه من المخلوق فيما بينهم من باب الشكر. فإن الإنعام علينا من رحيم يحثنا على أن نحسن إلى من هم دوننا. قال تعالى: ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۝٧٧ ﴾(سورة القصص: ٧٧). وقد مر آنفا علمنا بالحقوق التي علينا للخالق والمخلوق وهو جامع للشكر والإحسان

وأداء الحقوق إلى أهلها يسمى عدلا. فإن شئت نظرت إلى العدل من حيث كونه جامعا أعلى وإن شئت نظرت إليه من حيث كونه قسيما للإحسان. وكذلك إن شئت نظرت إلى الشكر من حيث كونه جامعا أعلى وإن شئت نظرت إليه من حيث كونه قسيما للإحسان.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (سورة الصف: ٥). وقال تعالى في وصف كتابه ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ (سورة البقرة: ٢). وأيضا: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾(سورة لقمان: ٣). وعلمنا الدعاء بقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨ ﴾ (سورة آل عمران: ٨). أي رحمة الهداية المتزائدة.

فاعلم أن الأعمال السيئة تنشأ من فساد في الإرادة وهو الزيغ الأول. فإذا قوي ذلك ظهر في الأعمال وحينئذ ألقى عليه اسم الفسوق. وسنة الله توجيهه المثل إلى المثل فلا بد أن يجلب الفسق زيغا مزيدا فيكون حجابا عن الهداية.

(٢) الفسق يفسد القلب وحينئذ ينقلب النور ظلمة والإيمان شركا والحب بغضا، ومع ذلك يظن الزائغ أنه لم ينقلب. ولذلك محك من اختلاف الآثار عما هو المرجو إذا لم يفسد القلب. مثلا أثر الإيمان بالله وكتبه أن تسرع اليهود والنصارى إلى الإيمان بالقرآن وموالاة المؤمنين. قال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (سورة المائدة:٨٠-٨١). أي لم يكن إيمانهم بالله وبالنبي المكتوب عندهم إلا دعوى باطلة وظنا غلطا وقولا بأفواههم. وبالجملة فلا إيمان لهم إلا صورة، وذلك هو الفساد وانقلاب النور ظلمة والحب بغضا.

و في الأرض آيات للموقنين الخ

كل من له يقين فلا محيص له من آيات كثيرة على الألوهية والمعاد والعدل والرحمة وصفات ربه تعالى. قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (القصص:٧٢، الزخرف:٥١، الذاريات:٢١) تشنيع على عدم البصيرة، وذلك لإعراضهم عن اليقين الظاهر. ثبت أصولا: اليقين بأن كل أثر يكون لعلة وكل ميل ثبوت حسن. كل مسرة ثبوت رحمة. فطرنا باستحسان العدل والشكر، فالشرك ظلم وكفران.

هذا الاستدلال الأثري منطو على استدلال آخر، فإن النفس بإذعانها بموجود خارجي مذعنة بأنها ليست إياه.

محل التقوى من العلم و الهداية

لما كان للنفس قوتان تعرج بهما إلى كمالها، وهما العلم والإرادة. نبهنا القرآن كثيرا على محلهما، كما قال: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ

هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (البقرة:٢-٥). فالتقوى صحة الإرادة وسلامة القلب. والإيمان بالغيب رسوخ العقل فيستدل من المشهود على الغيب ويوقن به. وإنما يتبع العقل الإرادة. وفساد القلب يفسد العقل فلذلك قدم التقوى لأنها ملاك الأمر في الهداية. وهكذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة يونس:٦). وأصل التقوى العلم بالعدل والحق فيخاف عاقبة السيئة ويجتنب ارتكابها.

العلم اثنان

(١) العلم اثنان: علم بالوجود والعدم، وعلم بالخير والشر. الوجود اثنان: خارجي وذهني. العلم موجود ذهني سواء كان علما بالوجود الخارجي أو الذهني.

(٢) حكم الذهن بوجود الشيء وبكون الشيء شيئا وبكون الشيء حسنا مبني على فطرة الذهن أو السمع أو الاستنباط.

(٣) إذ ليس وراء فطرة الذهن بناء العلم، فالبناء ما كان من الفطرة فقط. ويسمى فطريا لكونه محكوما به أولا وبالذات من الفطرة.

(٤) الدليل على كون الحكم بديهيا ظهوره عند الذهن بذاته، لا بكونه مبنيا على دليل. وكثيرا ما يغلطون في معرفة كون حكم أوليا غير مبني ومأخوذ، فالتمسوا له دليلا. وهو اتفاق الناس مع اختلاف الأحوال والأسباب. وهذا الدليل دليل مؤيد لا مثبت بنفسه، فالمثبت هو الظهور الذاتي.

(١) من إدراكات النفس الإيقان الفطري بالأساس لما بني عليه، وبنائه عليه. وهذا من الاستدلال باللزوم بين اللازم والملزوم.

(٢) إيقان النفس بأن الصفات لابد لها من حامل يعطي مجرد العلم بوجود اللازم فلا علم بالحامل إلا من جهة صفة المعلوم. ولكن النفس بملاحظتها إياه تسميه حسب صفته وتصوره، وترى كأنها علمته متصفا بها قائما به صفته.

(٣) تمييز النفس بين الصفات المتمائزة بديهي وأساسي، فإنها لو لم يكن لها ذلك التمييز لم تعلم شيئا كما بسطناه في موضعه. ومع ذلك التمييز العام لها تمييز آخر، وهو أن صفات النفس من العلم وما يتفرع عليه لا يتصف بها إلا النفس. وكذلك أن صفات المادة لا تتصف بها إلا المادة. ولا أدعي ههنا أن هذا التمييز بديهي ولكن العامة والفلاسفة كلهم فرقوا بين النفس والمادة وشنعوا على أول قائل بأن الله قادر على أن يعطي المادة علما، وهذا جادة مسلكهم. وأما الماديون فلم يقولوا بأن المادة ذات علم، وإنما قالوا إن النفس نشأت من المادة.

(٤) إذ لا علم لنا بالحامل إلا بصفاته فمن أين جعلنا للعلم والفهم نفسا مجردة، وللطول والعرض ولسائر الصفات المختصة بالمادة مادة؟ أليس أنا وجدنا ذلك فينا أولا. فالنفس لم تجعل صفاها إلا لمثلها و لم تجعل صفات حسبها إلا لمثله. فميزت لما أنها أعطيت تمييزا بين صفات النفس والمادة. وذلك تمييز آخر، وهو تمييز التضاد.

اعلم أن الحجة ما يثبت به دعوى على خصم. والدليل ما تستدل به على أمر لنفسك أو على خصمك. والآية ما تبعث النظر والفكر فتستدل به على أمر، فهي كالمادة والسبب للاستدلال. فالحجة أخص من الدليل، والآية مادة لكليهما. ولكني اصطلحت الحجة بحيث تشمل كل ذلك، فإن كل ما يستدل به تثبت به الحجة لله على الناس.

والقرآن كثيراً ما يذكر الآيات ويستدل بها، فكونها دلائل والحجج بمعنى أنها كافية لمن يتفكر ويستدل بها، وقد صرح كثيرا بهذا الأمر، مثلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة الرعد:٣، الروم:٢١، الزمر:٤٢، الجاثية:١٣). أيضا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الرعد:٤، النحل:١٢). أيضا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سورة الروم:٢٢). أيضا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (سورة طه:١٢٨). أيضا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ سورة يونس:٦٧، الروم:٢٣). أيضا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (سورة الحجر:٧٥). وهذا كثير جدا بعبارات شتى.

وبالجملة فأكثر دلائل القرآن إنما هي لوامع تجلب النظر، وقوارع تنبه الفكر. وكان المخاطبون أذكياء فصحاء أهرع الناس إلى لطائف المعاني وأشدهم تهذيباً لفضول الكلام. فلو فصل لهم الدلائل المرتبة على طريق المنطق لأبعدهم عن نهج الفطرة في الفكر.

مبادئ الاحتجاج

الاستدلال الأعلى

نذكر هذا الفصل بعد فصل فرقنا فيه بين الاستدلال الفطري والمنطقي أو البسيط والمركب، وقبل الفصل الذى يبتدئ بإثبات اليقين.

اعلم أولا أنك لا تهتدى في طريق الاستدلال إلا بإلهام فطري. وذلك مثلا أنك إذا وضعت الصغرى والكبرى معا فاستخراجك النتيجة خطوة علمية، فلا نظر إلا ونفسه بداهة. فهذا سلوكك في طريق الاستدلال مما علمت وأيقنت به.

فأما أول العلم الذي لم يستخرج من قضية منطقية، فلابد أن يكون بديهيا. وذلك هو أول البديهيات. وليس الوصول إليه بمقدمتين بل تستدل عليه بنظرة واحدة كما علمت في إذعانك بالموجودات والمؤثرات. وأما في أمور الخير والشر ففيها أيضا بداهة، وذلك أنك إذا أحسن إليك أحد أو أحبك فلك خطوة أخلاقية فطرية. وذلك أن تشكره وتحبه وتبجله وتعظمه. وكما أن النفس تخطئ في سلوكها العقلي فكذلك تخطئ في سلوكها الأخلاقي.

ثم اعلم أن الخطأ في السلوك الأخلاقي كسائر الأمراض يفسد الصحة. فالسلوك الأخلاقي أقرب نفعا وضرا، كما قال: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (سورة المطففين:١٤). أو كما قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٠١). فكما أن في المنطق العلمي مغالطات فكذلك في المنطق العملي مغالطات. وبيناها في كتاب

الهدى، وبحسب مقصد هذا الكتاب ذكرناها في الفصل...... تحت عنوان أسباب الجحود والكفر.

موضع الحجة في الدين

(١) وهي جزء عظيم من علم القرآن. و(٢) طمأنينة للعقول السليمة، وهي درجة عليا بنص القرآن. (٣) ضرورة علمها لبقاء الاحتجاج بالخصماء، كما كان في حين النزول. (٤) وهي المعيار الذي يحكم به على الأديان كلها، فلو لا هي لكان الفرق بين الحق والباطل بمحض التحكم والمصادرة. (٥) وهي المعتمد في أصول العقائد التي هي مبان للشرائع. (٦) وهي أقدم من الاحتجاج بالمعجزة على صحة ما جاء مع النبي عموما. (٧) وفيها الرحمة. (٨) وكذلك أبقى منها. (٩) وأدل على الدعوى لكونها أدلة قريبة خاصة وأثبت منها رسوخا في القلب، كما مر في كونها طمأنينة للعقول السليمة. (١٠) وأمرنا الله بالتفكر والاستدلال، فلا يسوغ الغفلة منها لأهل العلم والنظر.

نفصل هذه الأمور كلها ونبين الفرق بين الإسلام والأديان الأخرى من هذه الوجوه إن شاء الله تعالى.

(٢) ماهية الحجة و طرقها حسبما نذكر في هذا الكتاب و هي أقرب إلى الفطرة

اعلم أن طريق هذا الكتاب ربما يخالف مذهب المنطقيين والفلاسفة

والمتكلمين في الاصطلاح والتقسيمات وفي الأصول. فنبين لك هذه الأمور حسبما تجدها في كتابنا هذا.

فاعلم أن الحجة اسم من الاحتجاج وأعني بها إلزام أمر على الخصم مما هو مسلم عنده بطريق واضح لا يدع له مجالا للإنكار إلا مكابرة ظاهرة. فلابد للحجة من ثلاثة أمور:

الأول مادتها التي هي مسلمة عند الخصم، وهي المقدمات. والثاني ما هو المطلوب إثباته، وهوالمسمى بالنتيجة.

والثالث تأليف المقدمات على هيئة تثبت بها النتيجة، وهو المسمى بصورة الحجة.

والحجة تنقسم بحسب المادة إلى قسمين، وذلك بأن المادة إن كان بناؤها على شهادة الفطرة الإنسانية بها سميت فطرية، وإن كان بناؤها على تسليم فريق خاص إياها سميت جدلية. فالحجة تتم من جهة المادة بمحض كونها مسلمة عند الخصم، وإنما يعم الاحتجاج بها أو يخص بفريق حسب كونها فطرية أو جدلية.

وكذلك تنقسم الحجة من جهة الصورة إلى قسمين. فإن الصورة إن اشتملت على مقدمتين صغرى وكبرى ونتيجة فقط سميت منطقية وإلا خطابية. وأنا أوضح لك الفرق بينهما بمثال مشهور في المنطق، وهو قولهم حسب التأليف المنطقي: العالم متغير (الصغرى). وكل متغير حادث (الكبرى). فالعالم حادث (النتيجة). وأما على التأليف الخطابي فلها وجوه لا تحصى، مثلا تقول: العالم محدث لا شك فيه لأنه لا يزال يتقلب من حال إلى

حال ومن كون إلى فساد، فلا يدوم منه شيء. وهذه الحالة لاتليق بالقديم، فلا يكون العالم قديما غير محدث. أو تقول: لا نرى لشيء في هذا العالم بقاء على حال واحدة، فما من جزء منه إلا ويجري عليه التبدل ويحول فيه التحول. فأجزاؤه متشاكسة، وما تخالفت أجزاؤه ضعف بناؤه. فتبين أنه لم يثبت بنفسه ولم يستقل في وجوده، فلا بد أنه لم يكن فكان.

ومن المقابلة بين قسمي التأليف يتبين لك أولا أن التأليف المنطقي يجري على تسليم الكبرى من قبل، وأن الكبرى لهي الأساس والأصل ولا تتم الحجة إلا بإثباتها. ولكن المنطق لا يتصدى لإثبات المادة وإنما يبحث عن تركيبها على هيئة تنتج المطلوب بعد أن سلمت. وفائدة ذلك أن يتبين ما هو المحتاج إلى الإثبات فيطلب إثباته. فإن منع الخصم الكبرى أُثبتت بحجة أخرى مثلها، وهلم جرا. فيجري الكلام بين النقض والإبرام و يخرج من حسن النظام إلى المغالبة والخصام.

وثانيا أن التأليف المنطقي بناؤه على التحليل وذلك يخالف جريان الفكر والخطاب على الأكثر. فإن الفطرة تورد الأمور مركبة والنفس تحس بها وتدركها كذلك، ثم تأخذ بعضها وتركب بعضها مع البعض. وأما التحليل فيكون بالنظر الثاني، وذلك بأن العقول تنتبه على المعاني وتميز بين الحق والباطل من غير تحليل منطقي. ولكن إذا التبس الأمر وأحس العقل بخلل في الدلائل استعمل أصول المنطق وعمد إلى التحليل للنظر في أجزاء القول. وهذا كما يستعملون علم العروض في النظم، فإن الشاعر وإن كان عالما بصناعة العروض لا يستعملها حينما ينظم أبياته. وكذلك السامع حتى إذا أحس بخلل أو التبس عليه وزن بوزن آخر فحينئذ يقطع البيت ويعرضه

على أصول العروض. فكذلك بالمنطق يحلل الحجة إلى أجزائها الأولية ويصرح بما حذف منها ويخلصها من الزوائد كما يفعلون في علم الصرف للوقوف على مادة الكلمة.

ويؤيد ما ذكرنا أنك تجد المصنفين من الأولين إلى الآخرين لا يراعون في احتجاجهم تأليف الحجة على صورتها المنطقية. ولو فعلوا ذلك لثقل عليهم وعلى السامع، يمله السمع ويشمئز عنه الطبع، ولذلك كانوا يجرون على سجية الفكر ويتلقاها السامع حسب سجية الفهم.

ومما ذكرنا تبين أن التأليف المنطقي خلاف الفطرة وأن الماهرين في هذه الصناعة أيضا لا يراعونه لبعده عن سهولة الكلام. وإنهم مضطرون إلى التأليف الخطابي لا سيما إذا تكلموا في المطالب اللطيفة التي يصعب على الناس تخييلها كالإلهيات أو يعسر عليهم قبولها كمسائل الأخلاق والشرائع أو ما تختلف فيها الدلائل. ويريدون التلبيس فيجانبون التأليف المنطقي لكيلا يتضح ضعف حجتهم.

وعلى كل حال فإذ كانت وظيفة المنطق هي البحث عن الصورة فقط وهو أمر صناعي، والحجة سواء أُلفت على الشكل المنطقي أو الخطابي لا تقوى ولا تضعف لمحض صورتها بعد أن صحت في التأدية إلى المطلوب. وذلك قلما يخفى على العقول المتوسطة ضربنا الصفح عن الصورة وأشكال المنطق، فتخلص لنا البحث عن المادة فقط. فإنها هي الأصل وبها تقوم الحجة أو تسقط. لا حاجة ههنا إلى ذكر مواد الحجج الجدلية، فإنها تكون من مسلمات فريق خاص ويكفيك العلم فيها بكونها مسلمة عنده، وذلك يعلم من بيان المأخذ.

والآن فعلينا بتجريد النظر في مادة الحجج الفطرية. فاعلم أن بنائها على اليقين بصحة الفطرة. وهذا اليقين أيضا فطري، فإن النفس إن لم تكن موقنة بها بالفطرة لم تكن لها علم ولا إرادة و لا فكر ولانظر ولا طلب للتحقيق والاطمينان. فنقدم الكلام في ضرورة اليقين وإبطال الشك المطلق. وبعد الفراغ عنها نبين مجارى اليقين الفطري، وهو المقصد الأعظم.

تعريف الحجة و تقسيمها الأولى و طرقها إجمالا

(٣) الحجة هي إثبات أمر بما علمنا وأيقنا به، وذلك مبني على اليقين بصحة فطرتنا في علمها ومجارى أعمالها الأولية. فكل ما علمنا باضطرار الفطرة جعلناه أساسا، ثم جرت عليه قوى الفكر حسب فطرتها كما بينت في فن المدارك والمنطق. والعلم قسمان:

(١) جسماني، و(٢) روحاني

أما الجسماني فهو علم بأمور تدوم وتصح بدوام هذا العالم وفطرته، فمتى بقى بقيت كحرارة النار وزيادة الأجسام بالحرارة وتجاذب الأجسام وانعكاس الشعاع على زوايا خاصة وغير ذلك.

وأما الروحاني فهو علم بأمور تبقى أبدا كشناعة الظلم وشرافة الإحسان ولزوم الشكر، أو كلزوم وجود العلة لكل حادث وشرف العلة على معلولها ووجود حامل لكل عرض وغير ذلك من اليقينيات الروحانيات العقليات الثابتة وإن فنيت الأرض والسماء أو تبدلت أركانهما وما بينهما. ثم هذا القسم الجسماني من العلوم بناء كلياتها على الاستقراء و إنما البديهي

جزئياته. والاستقراء لا يربو على الظن.

وأما القسم الروحاني من العلوم فكلياته كجزئياته متيقنة، والنفوس مفطورة على الإيمان بها. ثم لما أن الحجة تبتني على الكليات، والقضايا الجزئية التي تحصل بالتجربة لا تثبت شيئا حتى تزيد عليها قضايا كلية مأخوذة من العقل. فكانت الحجج الجسمانية عيالا على العقل، فهو حاكم عليها بكلياته اليقينية مع كليات مظنونة استقرائية. فالحجج الجسمانية مع كونها مظنونة مبنية على العقليات.

ولكن الحجج العقلية الروحانية تغشاها الشهوات والأهواء. فمع كونها حق اليقين يذهل عنها الغافلون المنغمسون في غمرات الشهوات وظلمات الأهواء فتخفى عليهم وهم عنها عمون. فلزم هذا القسم من الحجج ذكر المواعيد والزواجر وتصوير المنافع والمضار وأخذهم بالحسنات والسيئات لعلهم ينتبهون. ولزم أيضا تطهيرهم من الأخلاق المظلمة بالصبر وقمع الشهوات، وحثهم إلى الأخلاق الزكية من المحبة والتقوى.

وباطل ما زعموا أن هذه الحجج ليست يقينية كقضايا الطبيعيات، كلا بل هي أقوى وأجلى ولكن الغفلة والأعمال السيئة صارت سدا وحجبا وغشاوة على اليقين المودع جذر فطرتهم.

ثم هذه الحجج العقلية الروحانية لا تثبت مجهولا لكونها فطرية كما مر، وسيأتيك بيانه، بل تذكرهم ما قد علموا. والقرآن بين هذا الأمر كثيرا فقال: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾(سورة العنكبوت:٤٩).

والحجج الروحانية الفطرية أقوى وأوثق، وأكثر المستدلين زعموا الحجج الرياضية أوثق فاستعملوها في الإلهيات. وقصارى أمرهم إبطال الدور والتسلسل فضعفت دلائلهم و لم تبطل الشكوك و لم تشف الغليل. وأما القرآن ففيه الحجج الفطرية التي بلغت القلوب، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴿١٤٩﴾ ﴾ (الأنعام:١٤٩)، وجبلت عليها النفوس.

الأوائل من المتكلمين والفلاسفة أثبتوا الإلهيات بالدلائل الرياضية، والمتأخرون يثبتونها بالطبيعيات. وذلك لأنهم اعتمدوا على ما كان أرسخ في قلوب الناس ولكن فيه ظلما على الإلهيات. فإنها من العلوم النفسانية، فالاعتماد فيها على فطرة النفس لا على فطرة الأجسام ولا المقادير.

وما ذكرنا ههنا يستدعي كتبا كباراً للبحث عنه والتفصيل له وكشف شبهات المبطلين. ونطاق موضوعنا لا يسع كلاماً مشبعا، ولكنا ندخل في بعض التفصيل لما قدمناه إجمالا قبل أن نتلو عليك من القرآن آيات تنطوي على هذه الحجج والأصول.

الفرق بين الأدلة الدينية و غير الدينية

قد مر أن الحقائق والعلوم قسمان : علم الكون وعلم الأمر. والدين معظمه الأمر فأدلته لا بد أن تكون مبنية على علم الأمر. وعلم الكون المحض لا ينفع في الدين، مثلا محض العلم بأن للكائنات خالقا لا توجب عليك أن تشكره وتطيعه حتى تأخذ ذلك من علم الأمر والنهي وهو علم الخير والشر. وبداهة هذا العلم كبداهة ذلك. ومن جهل هذا الفرق ظن أن أدلة القرآن

خطابيات ولا برهانيات. نعم هي خطابيات لكونها تخاطب قلبك وتسأل ذوقك، ولكن حكم قلبك وذوقك كحكم عقلك بل هذا أولى وأعظم.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ (٢٩)﴾ فخاطبكم بما لا تشكون فيه. ثم أثبت به ما هو أعظم يقينا، فإن المخلوق أدون وأضعف من المملوك، فإشراكه بالخالق أشد بطلانا وشناعة. ثم بين أن ذلك بأنكم اتبعتم الهوى وتركتم العلم فحكمتم بالظلم الصريح، والهداية مسدودة عن الظالم، فقال: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾(الروم:٢٨-٣٠). فثبت وتبين أن الشرك ظلم وجهل واتباع لمحض الهوى ومخالف لما فطر الناس عليها من الرغبة إلى الخير و العدل والحكم به.

بيان الطريق الخاص للاحتجاج الفطري
و بيان الفرق بينه و بين الطريق العام

لا بد لصحة الحجة من الانتهاء إلى يقين ثابت بنفسه حاكم على العقل الذي لا يسع العقل أن يعصيه. ونسمي هذا اليقين باسم الفطري، وهو أساس البديهيات لبنائها عليه، كما أن البديهيات أساس النظريات. فإن الفطري إذا فرض خلافه هدم البديهي.

الفطري أول في حكمه على العقل ولكن الالتفات إليه بعد الالتفات إلى البديهي، كما أن الالتفات إلى البديهي أيضا بعد الالتفات إلى المحسوس الخارج. فالعقل ينتبه بالمحسوس أولا. ثم بالتفكر يهتدي إلى العلم بالبديهي، ثم إذا تفكر في البديهي اطلع على الفطري. فهذا ثلاث مراتب.

والأول قد جاء فطرة من غير كسب وعمل، ويستوي فيه العاقل والغافل بل الإنسان والبهائم. مثلا أحس بالنور واللون والصوت والطعم، فأيقن بوجوده وبإدراكه وبوجود الخارج المؤثر المتصف بصفات متمائزة. وبعد ذلك تفكر فاطلع على يقينه بصحة فطرته، فإما وقف على هذا الموقف وإما تفكر في حدوث نفسه. وإن ذلك لا ينسب إلى نفسه الضعيفة الجاهلة في أول أمرها فكيف قبل وجوده ووجودها. فحينئذ وهو موقن بصحة حكمها تبصر فاطلع على يقينه بكون فاطره متصفا بالقدرة التامة والرحمة العامة. فيقينه بصحة فطرته ورحمة فاطره حاكم عليه من الأول، ولكنه يطلع عليه بعد التنبيهات من الحس والفكر. فإن العلم يقع أولا ثم يقع العلم بهذا العلم، وكذلك يقع اليقين، ثم يقع العلم بهذا اليقين، ثم يقع العلم بمبدأ ذلك.

ونوضح هذه المسألة بالأمثلة. الإنسان من أول نشأته يحس بفقره بإحساس حاكم عليه، فيلتصق بلبان أمه و لكن لا يطلع على فقره هذا إلا بعد الفكر. ثم عند بلوغه الرشد يحس بحسن الشكر و الإحسان، وقبح الظلم والكفران. ولا يطلع على كون ذلك حقا وواجباً إلا بعد الفكر. وكذلك هو يفرق بين الموصوف الحامل وبين صفاته من أول إدراكه، فإن عمله يشهد بذلك ولكنه يطلع على هذا المبدأ بعد الالتفات وصرف النظر إليه.

ما يتعلق به اليقين

خلاصة ماذكرنا من الأدلة

(١) الجزئي المحسوس. هذه النار قد حرقتني (هذا مبني على ربط الحادث بعلة، وربط الأثر بمتصل به مكانا وزمانا).

(٢) الكلي المستنبط من الجزئيات. النار تحرق. (هذا العلم الكلي يبتني على نفي الإرادة ولزوم الطبائع والتسخير في الأجسام. وهذا يحصل بتكرار الجزئيات، وهو المسمى بالتجربة.

(٣) ما عليه أساس الجزئي والكلي. لنا حواس صحيحة وعقل صائب، وعالم في الخارج. (اليقين بالعالم الخارج مبني على تمييز فطري).

(٤) ما عليه أساس هذه القضايا الكلية. (لنا خالق حكيم رحيم واحد.

(٥) ما هو المستنبط من هذه القضايا. الخالق عالم قديم قادر على كل شيء.

التقسيم المنطقي الذي
صار منشأ للشك والضلالة

(١) لا شك في أن الدعوى لا تصح بمجرد كونها منتجة من مقدماتها، بل لابد مع ذلك من كون المقدمات صادقة في نفس الأمر. ولذلك احتيج في المنطق إلى ذكر مادة القياس وهي المقدمات المنتجة. فقسموها إلى

قسمين:

(١) يقينيات منتجة للنتائج اليقينية.

(٢)ومظنونات منتجة للنتائج الغير اليقينية. وجعلوا اليقينيات قسمين

(١)تجربيات تشهد بصدقها الحواس.

(٢) وأوليات يشهد بصدقها العقل.

وجعلوا المظنونات ثلاثة أقسام :

(١) المظنونات التي غلبت صحتها على الأذهان و لكن لم تبلغ حد اليقين.

(٢) والمشهورات التي اشتهر في الناس صدقها.

(٣) والمسلمات التي سلمها العقلاء أو أكثرهم أو الجمهور. وصرح أرسطوا بأن هذه المواد إنما تصلح للخطابة والمجادلة ولا نصيب لها في العلوم البرهانية. وهذا التقسيم صار مغلطة عظمى لما فيه من الفساد كما سنذكره :

(٢) الفساد في هذا التقسيم من وجوه:

الأول من جهة تداخل الأقسام. فإنه لا يخفى أن المشهورة ربما تكون مسلمة ومظنونة، وربما تكون المجربة مسلمة عند جماعة من المجربين فتصير مشهورة فيهم. والأولية ربما تكون أولية عند طائفة من الذين يدعون البداهة فيها. ولهذا الخلط في الأقسام اختلطت اليقينية بالمظنونة ونشأ من ذلك غلط عظيم في الأفهام، فجعلوا كل مشهورة ظنية وإن كانت مبنية على أوليات الفطرة. وكذلك جعلوا المجربة ما يجربه الناس عامة،فأنكروا بالمجربة التي لم يجربوها، وهي مما قام بها البرهان عند من أدركها بصفة الأولية.

والثاني من جهة عدم الفرق بين البرهانيات، فظنوا أن البرهانيات ما يقوم به البرهان على الكل. فجعلوا العموم من شرطه وبذلك فتحوا باب الشك في كل شيء. فإن البرهان إنما يلزمه أن تنتهي مقدماته إلى ما هو مسلم عند من يقوم عليه الحجة.

فمنهم من يشك في الأوليات أيضا فكيف يقوم البرهان عليه بما لا يسلمه. ومنهم من يسلم ما جربه خاصة. ومن ذلك تقليده لرجل خاص جعل شهادته كشهادة حواسه التي جرب صدقه، أو كشهادة آلة جرب صحتها. ومنهم من سلم قضايا اتخذها أصولا موضوعة أو استنبطها من تلك الأصول الموضوعة.

وبالجملة فالأمر اللازم في البرهان محض بنائه على المسلم عند المخاطب. فإن كان مسلما عند الجميع وهذا قليل جدا على طريق المنطقيين قام به البرهان العام. وإن كان مسلما عند فريق خاص لابد أن يقوم به البرهان على ذلك الفريق.

تذكرة

(الجوهر و العرض)

اصطلاح خاص للصوفية

عند هؤلاء ليس من حقيقة العرض أن لا يقوم به عرض آخر، بل كل ما لم يقم بغيره فهو عرض. فإن قام به عرض آخر فهو جوهر لعرضه وعرض للذي يقوم به. فعلى اصطلاحهم هذا حقيقة المادة والنفس والعقل كلها أنها

أعراض. ودليلهم أن الممكن ليس وجوده من ذاته، والوجود فيض أعيرله. والوجود ليس نفسه مادة أو قائما بنفسه، فكيف يجعل مستعيره قائما بنفسه. فلابد أن الممكن في كل آن ينال وجودا من وجود واحد قائم بنفسه، فهو في كل آن موجود بغيره، وعلى هذا عرض. والجاهل بحقيقة الإمكانية يذهل عن احتياجه إلى قيومه فيظنه جوهرا.

مثار الضلالات

(١) إنا وجدنا المتفلسفين إنما وقعوا في الضلالة من قبل غفلتهم عن أصول العلم. ونسردها ههنا :

(ألف) العلم بوجود الشيء جله مبني على الالتزام. مثلا تحس بتصور و توقن به، وبالالتزام توقن بوجود نفسك وبالخارج.

(ب) العلم بوجود الشيء قد يحصل من غير تصوره. فإن الصورة كلمة مبهمة ومتبادر معناها المبصرة المحدودة. فإنك تتصور الفرس وسائر الحيوانات والأشجار والجبال والأنهار وأمثالها بأشكالها. فإن سألت الناس عن تصور الهواء والكهربائية قالوا بأنهم يعلمون أمثالها بآثارها مع عدم الصورة.

(ج) الانتباه هو أصل لحصول العلم، فإنك تنتبه على العلم بالشيء بعد الإحساس بأثره. وعلى هذا إذا فقدت المنبه لم يحصل لك العلم مع أن فيك قوة تعلم بها. فالمنبه هو الذي يجعلك على جد وحذر وتوجه. الوقوع في مصيبة محيطة ينبه على الإيمان والإيقان المضمر في الفطرة بالإله الرحيم القادر. قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (سورة لقمان:٣٢). أيضا : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ

قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴿٣٠﴾ ﴾(سورة الأنعام: ٣٠). قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (سورة الطور: ١٣-١٥).

تذكرة

تقصير المنطق من وجوه

(١) الفكر يتعلق بالشيء ويعن له جوانب شتى فيأخذ بعض الجوانب حسب ميله وغرضه ويترك الباقي . فالشيء المعروض على الفكر يكون آية ودليلا على أمور كثيرة، والنفس مستدلة ببواعث كثيرة.

(٢) الآية مهيجة، وترى المعارف والاختراعات نتيجة لهذه المهيجة.

وانتقال الفكر بهذا الطريق غير ما ذكر في المنطق فإنه يبين الانتقال الخاص، وهو ما ينقل فيه الحكم من العام إلى الخاص إيجابا أوسلبا.

فلسفة سقراط وفلاطن (أرسطاقليس)

(١) كان فلاطون لقبا لأرسطاقليس، وإنما لقب به لكونه عريض المنكبين أو الجبهة. وكل ما قال جعله مأخوذا من سقراط. وأصل فلسفته البناء على العقل والعلم ورأي كل شيء متغيرا إلا الكليات والعقل فاعتمد عليهما.

لو كانت البصيرة منحصرة في الدلائل المنطقية لهلك الناس كلهم، ولكان القرن الأول في أسفل درجات الإيمان. ولو كان الإيمان جائزاً بمحض التقليد لكان الوثنيون معذورين﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (سورة البقرة: ١٧٠).

---

(١) نوقن بالنتائج باستدلال خفي أحيانا. العقل يجري على أصول من غير تردد، لو لا ذلك لما نطقنا على أصول النحو في لساننا.

يحمل النظير على النظير من بدء أمرنا، فنجعل للمذكر والمؤنث علامة. وكذلك في أمور أخر، فنوقن بأن ذلك علة ذلك لتقربنا لما علمنا من علة بالتجربة.

اعلم أن بناء الاحتجاج على وجود اليقين. فلا احتجاج لمن لا يقين له ولكن اليقين فطرة النفس ولازمها كما شهدت به أفعالها وإرادتها.

أقسام الاستدلالات

(١) الاستدلال من محض اليقين وضرورته - على قادر رحيم واحد.

(٢) الاستدلال من محض الكون (أي وجود المحسوس الموقن به) على خالق مريد قديم.

(٣) الاستدلال من محض النظام في العالم وجريان أموره على قديم

واحد غالب على كل ما سواه.

أقوى الحجج ما فيها يبتدأ بتسليم قول الخصم وإخراج الدليل منــه. وكل ما كان أوفق بما قال الخصم كان أقوى، ويسمونه في علم البيان "القول بالموجب"

جملة القول في الحجة

(١) بناء الحجة على أمرين : النظر، وما ينظر فيه. أما الأول فما هو مغروز في فطرة النفس من قوة الفكر والاستنباط واليقين والاطمئنان بصحة إدراكها من المحسوس والمعقول. وأما الثاني فما يحيط بالإنسان من الآيــات المهيجة للنظر والتفكير. ومثال ذلك ما يبصر الإنسان، فإن لم يكن له قــوة الباصرة ولم يكن النور والألوان لم يبصر.

تذكرة للفصول التي نفصلها

(١) الإنسان مضطر إلى استعمال النظر والاستنباط. ولم يزالــوا يستدلون على حسب ما حاولوا من العلوم، وبحسب ذلك اختلف مدراجهم في النظر. فالعامة جروا على الظنون وما اعتقدوا به من المشهور. والخاصــة التمسوا معرفة الحقيقة ولكن حسبما احتاجوا في مقاصد علومهم ومباديهم.

الدليل من النطق

ليس من حاسة ولا فهم إلا وفيه نقص وافتقار والمخلوق ليس له غــنى، فكل حاسة مفتقرة إلى تائيد وشهادة. واليقين الحاصل منــها ضــعيف، فلــزم الشهادة. مثلا ترى جسما وتظن أنك تراه مجسما بالنظر، وإنما هو من شــهادة اللمس، وكذلك حس المسافة. فكل حاسة محتاجة إلى الشهادة وكذلك العقــل فإنك جربت خطأه. وإيمانك بأنك تنطق مبني على شهادات من السمع والفكر وإحساس حركة القوى الناطقة وأعضاء النطق، فلا تشك في أنك تنطق. فهــذا دليل جامع للشهادات.

طريق القرآن في الاحتجاج وهو طريق الفطرة

القرآن جعل بناء الحجة على اليقين الضروري الفطري لا يسع العقل أن يعصيه. واليقين فطرة الله فلا يثبت، فإنه أول فلا يثبته يقين آخر مثله، ولا يثبته بديهي فإن البديهي فرع عليه وهو أساسه. و اليقين ربما يأتي من التقليد والتمرين، وهذا ليس بفطري ولا ضروري. فالاعتماد على اليقين الفطــري هو الأصل الأول. والأصل الثاني أن الضعيف لا يهدم القوي، فالظن لا يهدم يقينا. قال تعالى :﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ (فــإن ذلك هو المفهوم مــن كلمــة الله)وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ (يــونس:٦٦). أي يقولون بالتخمين. وقــال تعــالى : ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ ٣٦ ﴾

(سورة يونس:٣٦، وسورة النجم: ٢٨). وكذلك من الظنين لا يهدم الضعيف القوى.

القرآن يستدل بالحجج البينة التي تبلغ النفوس وتشفي القلوب السليمة الباقية على صحة الفطرة. ولكن المتفلسفين اخترعوا طرقا معوجة واشتغل بها المسلمون أيضا، فضربت أسداداً دون سبيل الفطرة. فلا بد أن ندلك على فساد طريقهم وخيبة من سلكها، لتعلم أن منتهى أمرهم صريح العمى ومحض الحيرة. ثم نرجع بك إلى الصراط المستقيم الفطري الذي جبلت النفوس عليه، لتعلم أن الإنسان خلق في أحسن تقويم مستعدا لقبول الهداية والرقى بها إلى غاية كماله من جهتي العلم والعمل، والإيقان والطهارة. فالآن نذكر لك جماع طرق المتفلسفين. قد مر بك أن الإنسان مضطر بفطرته إلى النظر والاستدلال ليعرف ما يرى حوله ويلتمس طريق الخير واللذة حالا ومآلا، ليطمئن بما هو فيه وبما يجري إليه. فكان أول أمرهم استعمال النظر.

اعلم أن الإنسان لما ركب فيه العقل والنظر ووضع بين آيات تحيط به من كل جانب من مظاهر العظمة والهيبة، ولطائف الحكمة والصنعة، وعجائب الحسن والبهجة. فهو مضطر ليتفكر ويستدل على ما يهدي إليه هذه الآيات.

طريق استدلال القرآن

استدلالنا من الظاهر على الباطن ومن البادي على الخافي ومن الفرع على الأصل. فإن كان الباطن أصلا و أساسا لقد كان الظاهر سببا للعلم ووسيلة إلى المعرفة وذريعة إلى اليقين، وذلك هو طريق القرآن. وهو العبرة بالآيات الدالة على حقائق خفية بينات في صدور الذين أوتوا العلم الذين يستدلون بالمشهود على الغيب، فهم على بصيرة، وذلك هو الصراط المستقيم. فإن الظاهر متصل بالباطن بطرف منه. ومن نظر في أطرافه وجوانبه اهتدى إلى أصله ومبدئه. وأما الملحدون فيحيدون عن هذا الطريق السوي وينكصون على أعقابهم أو يقفون كالأعمى فلا يرون ما وراء الظاهر. فهم القانعون بالقشر من اللب وبالصدف من الجوهر.

عذر العلماء لعدم التفاقم إلى أدلة القرآن. إنهم كلموا الناس على قدر عقولهم، وهم اليوم متهالكون على الفلاسفة. وعرض الدلائل البسيطة مع صحتها لا يعجبهم ويمدهم طغيانا بأن المسلمين جاهلون بما عندهم. فردوا عليهم بأسلحتهم وعملوا على ما قيل: لا تلقوا الدرر بين أيدي الخنازير. وقد تفطن بضعف طريقتهم أهل النظر البالغون مثل الرازي وابن رشد والغزالي وابن تيمية، ووجهوا الناس إلى أدلة القرآن.

ذكر ما شغل الناس عن التدبر في أدلة القرآن
وما في ذلك الشاغل من التقصير و قلة النفع

اعلم أن دلائل القرآن كانت واضحة بينة ولكن الناس اشتغلوا بما وضع ارسطو في المنطق وفي ما بعد الطبيعة. ومن الأول اختاروا ما كان متعلقا بالبرهان فتلقوه بالقبول، ولكنه لم يكن إلا صناعة صورية. فلو نزلوه مترلته لم يضرهم كثيرا ولكنهم ظنوا أنه الغاية القصوى، فمنعوا عن التدبر في الهدى الفطري الذي جاء به القرآن. وكان حريا بهم أن يتخذوا لهم منطقا أعلى مما كان لليونانيين، وسندل عليه. وأما الآن فنذكر مبلغ هذين الفنين:

أما المنطق فتجد فيه مقالات طويلة لأرسطو مقسمة في قسمين: أنالوطيقا أي التحليل، وطوبيقا أي الخطابيات. وفي القسم الأول وهو أعظمهما تفصيلا و تشقيقا تكلم على تحليل القضايا و تكلم في أجزائها، وهذا كالمقدمة. ثم تكلم في تركيب القضايا في الاستدلال بحيث إذا سلمت وركبت على هيئات خاصة لزمت النتيجة. فكان عمله مختصا بتركيب الكلام و أطال فيه غاية الإطالة.

ولا يخفى أن الاستدلال لا يصح بمحض صحة التركيب بل لابد فيه أن تكون القضية المستعملة في الاستدلال صادقة مطابقة بنفس الأمر. وفي هذا الباب لم يزد شيئا على أن مادة القياس(١) إما هي الأوليات اليقينية أو المستنبطة منها. (٢) وإما هي التي تغلب على ظن كل الناس أو على أكثرهم أو على عقلائهم إما أكثرهم أو أشهرهم. (٣) وإما هي التي شبهته بالغالبة على الظن، وإماهي التي فرضت في علم كالأصول الموضوعة التي سلمت و لم

يبرهن عليها.

ولاشك أن اليقين الصحيح يختص بالقسم الأول، ولكنه لم يزد فيه على أن اليقينيات هي المحسوسات والأوليات التي أوقن بها أولا من غير أن تستنبط من غيرها. ولكنه لم يتصد لبيانها بل اعترف بأنه لا سبيل إليها بهذه الصناعة. وقال إن العلم الذي يهدي إليها هو رأس العلوم، وأشار إلى ما بعد الطبيعة، فتخلص من القسم الأول إلى القسم الثاني.

وجعل موضوعه المظنونات وصرح بأن المقصود بها الجدال والغلبة على الخصم ولا تستعمل في العلم البرهاني. وفي هذا القسم لم يقنع بالجهة الصورية، بل ذكر فيه مواد القضايا المظنونة والمشهورة، والمسلمة؛ وطرق استعمالها في الجدل. (والمتأخرون لم يأخذوا فيما أخذوا من المنطق إلا القسم الأول الذي يتعلق بالبرهان). فذلك قصارى المنطق المتداول، وتراه محض صورة لا روح فيها. وهو أشبه شيء بصناعة النحو غير أنه نحو المفاهيم.

وأما ما بعد الطبيعة فظن أن منتهى علمنا هو أعلى الكليات، فتكلم على المقولات العشر و لم يتعدها إلى بيان ما هو الأساس و مبنى اليقينيات في كل علم. ولا يخفى أن الأمر الذي هو الغاية القصوى في العلم ليس مفاهيم المقولات والأسماء التي هي أعم الأسماء. ولكن ارسطو ذهب في سبيل التحليل فوقف حيث وقف التحليل و لم يلتمس اليقين ومنتهى ما يوقن به. ولعله لم يخطر بباله هذا السؤال أو عجز عن النظر فيه.

ولو اقتصر على بيان هذه المقولات الأعم لسلم عن العثرات، ولكنه عرج منها إلى استعمالها وتكلم في مسائل الإلهيات. ولا حاجة بنا إلى ذكر ما فيه من العوج والضلال، فإن المتكلمين منا نقضوا ما كان أبرم ولكنهم مع

ذلك لم يسلموا من ضرره، وهو اشتغالهم عن النظر في الدلائل الفطرية التي جاء بها القرآن وهدى بها العقول إلى معرفة الربوبية.

والناظر في دلائل المتكلمين لا يخفى عليه أن الاحتجاج فيها وإن كان لنقض الفلاسفة فإنهم جروا على حذوهم، فلإن أصابوا في الهدم فقد أخطأوا في البناء. فهذا جملة الكلام فيما شغلهم عن الاهتداء بالقرآن لتسديد العقل والنظر. ولو لم يكن ضرره غير ذلك لكفى به ضررا ولكن زاد على ذلك من وجوه.

كلام كلي في طريق احتجاج القرآن

اعلم أن القرآن يحتج على الناس بشهاداتهم الفطرية وربما يحتج على فريق بمسلماتهم الخاصة. وبالجملة فلا يطالب المخاطب إلا ما قد سلمه. ولا حجة أبلغ ولا أدمغ من هذه. أما الشهادات الفطرية فإن الإنسان يشهد بلسان حاله على أمور وإنما ينكر بنفس تلك الأمور على طريق المكابرة. فالقرآن ينبهه على شهادة فطرته، فإن الله تعالى جعل في الإنسان نفسه شهداء له على نفسه، فيناديه وهم يجيبون من بين جنبيه، كما قال: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ (سورة القيامة: ١٤-١٥). وهذه الشهداء: (١) إيقانه بالخارج، (٢) وبنفسه (٣) وإرادته، (٤) واختياره، (٥) ولومه، (٦) وتمييزه بين البر والفجور وسائر ما ذكرنا من مجارى اليقين الفطري. وإنما أشهده ربه باضطرار الفطرة. فلو لا فطر على الإقرار لما أتم عليه الحجة. وعلى هذا احتجاج القرآن يسمى فطريا واضطراريا. فأما الأمور التي يشهد عليها بلسان الحال فنذكره ههنا جملة على طريق الإيجاز.

(١) إيمانه بالغيب. فإنه قد آمن بالمشهود الحاضر، وفي كل ذلك إنما آمن بما غاب عن حواسه، وهو فيه مستدل من الأثر على المؤثر ومن الصفة على الموصوف الذي ليس هو نفسه. وبعبارة أخرى هو يسلم نفس الاستدلال و أصوله.

(٢) إيمانه بصحة حواسه. فإنه لو لم يؤمن بها لما استدل بها على شيء خارج عنه ولا على أمر داخل فيه من اللذة والألم. وإذا لقي جامدا خامدا لا يتحرك بل لا يتفكر.

(٣) إيمانه بصحة عقله. فإن ذلك منطو في استدلاله من المؤثر الداخل أو الخارج جاءه من غرف الحواس.

(٤) إيمانه بصحة قلبه. فإن ذلك منطو في تمييزه بين الشر والخير، والضار والنافع. فإنه مجرى جميع إراداته وحركاته. فلو لا ذلك لم يفعل ولم يتحرك، ولكنه دائما يفعل ويجتهد. فكما آمن بصحة عقله فكذلك آمن بصحة فؤاده.

(٥) إيمانه بأصول الترجيح والاختيار عقلا وقلبا. ومجراه إقراره بالأحسن والأقبح. وبعبارة أخرى هو موقن بالاختيار لنفسه في العمل. فإن ذلك منطو في جميع إراداته وأفعاله وتركه.

(٦) إيمانه بالعدل والحق. فإنه منطو في إنكاره حقا لم يثبت عليه. فإن ذلك منطو في جده وغضبه وخصامه ومعاشرته مع غيره ومطالباته.

واعلم أن أصل مكابرته هو اتباع شهواته الدنية الدانية وتغافله عن الآيات المنبهة على الأعلى الآجل مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، فيناقض حكم عقله

وقلبه بأصل الترجيح.

(٧) إيمانه بالفاطر. فإنه منطو في إيمانه بما ذكرنا.

تذكرة

اعلم أن الحجة الصحيحة لا يلزمها أن تضطر المخاطب للإيقان بالمطلوب. وإنما تتم الحجة بأن تكون لازمة لما سلمه المخاطب اضطرارا كما قد مر آنفا. والآن نزيل شبهة تجدها تنشأ في بعض النفوس، وهي أنهم إذا سمعوا حجة و لم يجدوا في أنفسهم إيقانا ظنوا أن الحجة ناقصة. وإنما المانع أمران.

(١) الأول أن الاضطرار إنما يكون في المحسوسات فإن الحس منفعل. وأما المعقول فالنفس فيه فاعلة، فإنها بالإرادة تعقل وتفكر وتستنبط (بل ترى أثر الإرادة في المحسوسات أيضا. فإنك لا تضطر للسمع من أراد أن لا يسمع قولك ولا تضطر للنظر من أراد أن لا ينظر. فمع أن الحس منفعل هو تحت الإرادة، فكيف بما هو كله بالإرادة). والإرادة تتبع الرغبات فمن غلب عليه الشهوات وخمد فيه الشوق للمعالي والنظر في العواقب أغمض عن الحق بعد التبين أو تغافل عن النظر في العواقب

(٢) والثاني أنه من حيل النفس التشكيك وترجيح المظنون المحض على الحق اليقين وذلك بسبب النظر في الحاضر، فإن المشهود أشد تأثيرا من الغائب. فالنفس تغمض العين عن التشوف للغائب الحق وتستمد بالخيال وتأثيره، فتكب على الحاضر المشهود، لا ترفع رأسا إلى ما ورائه. من ههنا

ترى أن النصح قلما ينفع في الغافلين مع علمهم بالصلاح.

ومما ذكرنا تبين أنه لا إلجاء ولا إكراه في الدلائل. وإنما الهداية والتوفيق لقبول الحق يأتي لمن يريد الاهتداء ويطلب الحق ويقهر نفسه اللجوج على الإذعان له. وقد نبه القرآن على ما ذكرنا في غير موضع، فمنه قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة يونس:٤٢-٤٤).

و منه قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الفرقان:٤٣-٤٤). ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الروم: ٥١-٥٣). في هذه الآيات سمى الصم العمي من لا يعقل ولا يهتدي إلى الحق الذي يدل عليه السمع والبصر. فظاهر سمعهم وبصرهم كلا سمع ولا بصر، كالجسم بلا روح والشجر بلا ثمر.

المقصود ههنا أن الهداية إلى الحق إنما يأتي من باب العقل والفكر. فإذا أراد الإنسان استعمال النظر والفكر واجتهد أعطاه الله الهداية. وليس ههنا إلجاء من النبي والمرشد، فإنما هو يتلو عليه الدلائل. وكذلك لا إكراه من الله تعالى، فإنما هو يعطي الهداية لمن اجتهد لها وطلبها. ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ

ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (يونس:٤٤).
وكذلك قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ الآية. (سورة البقرة:٢٥٦).

المتأمل في حجج القرآن إذا مر على حجة يعلم موقف الخصم وحينئذ يظهر عليه هل كانت الحجة عامة أم كانت خاصة ومفحمة للخصم المخاطب وإن لم يفحم خصما آخر، كما قال:[1]

وربما يجمع القرآن حجة عامة وخاصة كما قال في إثبات الرسالة وهذا القرآن: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (سورة الأنعام:٩١).

فالظاهر أن الخطاب ههنا إلى اليهود ولكن بدأ الكلام بدليل عام، فبين أن الإنكار بإنزال الوحي من الله استخفاف بقدره العظيم وهو الهداية والتربية والحكمة. ثم استدل على صدق هذا القرآن بأنه يعلمكم مالم تعلموه مع ما أنزل عليكم من النور والهدى. فإن كان ذلك منزلا من الله فهذا القرآن الذي زاد عليه أولى بأن يكون من الله.

ثم في هذا الدليل إشارة إلى ما جاء في التوراة أن الله تعالى يعلمهم

---

[1] بياض في الأصل

بالنبي الموعود ما لم يعلموه، كما هو مبسوط في موضعه. ولجمع الأدلة المختلفة أمثلة كثيرة لا حاجة إلى ذكرها ههنا، فإنك تجدها في مواضعها. ومن أجمع آيات للدلائل المختلفة ما جاء في سورة الأنعام حيث قال عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ (أفسد صورتها وبنيتها، ثم أخرج منها ما هو أكبر منها وأعظم وأكثر) يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ (في فلق الحب والنوى دليل على إخراج الحي من الميت، وأسهل منه إخراج الميت من الحي. فإن السلب أيسر من الإعطاء) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ (أي فكيف تشركون به وأنتم تقرون بأن الخالق هو الله وحده) (الفالق للحب والنوى هو الخالق للموت والحياة وهو الفالق للصبح والجاعل الليل سكنا، والمجري الشمس والقمر على قدر. فإن هذه الأفعال تصلح وتمد بعضها بعضا، فلابد من واحد عزيز لم يغلب على إرادته، قادر على موت وحياة وعلى جميع الخلق من السماء إلى الأرض إلى نواة، عالم بأحوالها ومقاديرها وأجزائها. فإن الخلق يلزمه العلم التام) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ (كما أنشأ حبات جمة من حبة واحدة) فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ (لكل روح قرار في الأمكنة المختلفة، ثم هو مستودع يخرجه الله حسب آجاله، فعلى كل حال في قبضته) ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ

شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ۖ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾(الأنعام:٩٥-١٠٥). وهكذا في أول يونس (٣-١٤)

الدلائل بالأمثلة مبنية على أمرين

(١) إن الله تعالى لا يخالف سنته، وقد علمتم من سنته ما دل على صفته. وصفاته واجبة، فلا بد من إجرائها على العموم.

(٢) الأمثال ربما تكون جوابا لمنع، والمنع منفي بدليل لمي. ولكنهم ربما منعوا للاستعجاب، فرفع عجبهم بالأمثلة. وبين إن تعجبكم بناؤه على الكفر بصفاته تعالى فبناء الدعوى على صفات الله. والمثال يزيل الشبهة والمنع، والقرآن صرح بهذا كثيرا.

لا يخفى أن طريق الاستدلال من صفات الله تعالى إما باللزوم أو بالخلف. فنؤمن بكل ما يلزم صفاته، ونبطل كل ما يخالفها ويضادها.

لا بد للاحتجاج من أمرين

(١) الإنسان مطالب بما يذعن له عقله.

(٢) الإنسان خلق حرا في فهمه وإرادته. وهذا واضح جدا.

(دفع شبهة على حرية العقل والإرادة)

سمعت بعض المسلمين يقولون بأن القرآن هدانا إلى الإيمان بالله ورسله والمعاد سواء ثبت بالعقل أم لم يثبت، فإن في أوائل آيات هذا القرآن قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾(سورة البقرة: ٢-٧). فجعل الهداية للمتقين ووصف المتقين بأنهم الذين يؤمنون بالغيب ويعملون الصالحات ويؤمنون بكتاب الله وجعل الفلاح لهؤلاء. وأما الذين كفروا فهم الذين ختم الله على قلوبهم فلا يؤمنون. فلو كانت الهداية والفلاح بأعمال العقل لما جعلهما للمؤمنين بالغيب ولما ختم الله تعالى على قلوب الذين كفروا، بل خلاهم يعملون فكرهم ويهتدون. فالأمر كله بيد الله ومنه الهداية والضلالة. والإيمان والكفر كلاهما بمشيئته وهو مالك خلقه يفعل بهم كيف يشاء كما دل عليه آيات كثيرة لا حاجة إلى ذكرها.

فهذا خلاصة كلامهم في إبطال حرية العقل والإرادة. وهو مدفوع

عقلا ونقلا. أما عقلا فإن الإنسان إنما صار مخاطبا ومسئولا من قبل حرية عقله وإرادته. ولا سبيل للحجة على من اعتمد على التقليد أو اتكل على التقدير. وأما نقلا، فإن القرآن أكثر الكتب المنزلة خطابا للعقل وتنبيها له على الدلائل العقلية ومدحا للعقلاء وذما للغافلين. وهذه من محكمات القرآن وبيناته لا يشك فيها أحد. والقرآن لا يناقض نفسه، فالاستدلال بآياته على إبطال محكماته لا يصح، ولا منشأ له إلا سوء الفهم و قلة التدبر. وهذا جواب عام و أصل كلي يعتمد عليه عند اختلاف الآراء. والآن نكشف عن صحيح تأويل الآيات التي تمسك بها المخالف. فاعلم أن هذه الآيات من أكبر الدلائل على تقدم العقل والاعتماد عليه.

الحكمة والميزان

مرادنا بالحكمة هي معرفة العلم الفطري الذي يهدي إلى السعادة الأبدية والعمل به. و أما الميزان فهو علم الاستدلال بأصول الفطرة.

أما الحجة فما تلقى إلى مخاطب كما قال: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴿٨٣﴾ ﴾ (سورة الأنعام:٨٣). وكما قال للقاسية قلوبهم: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴿١٥﴾ ﴾(سورة الشورى:١٥). وكما قال لمن تشبث بحجة زائغة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿١٦﴾ ﴾(سورة الشورى:١٦).

أما الذكرى فما ينبه عقلك مما ترى من آيات الله وآلائه ومما يلقى إليك من كلام، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (سورة ق: ٣٧). أي من يفهم من قبل فكره أو من يسمع الكلام من غيره بالتوجه الصحيح. فالذكرى ما يذكرك ما ذهلت عنه وكان بك علمه إما فطرة أو نظرا في آيات الله.

أما الآية فهي مثل الذكرى ولكن جهة التفكر فيها أغلب. فالآية ما ينبهك إلى أمر إما بطريق البرهان أو على سبيل الذكر والعبرة، كما أن رأيت طللا فذكرت الظاعنين عنها. وللعبرة وجوه لا تحصى، وكثر في القرآن استعمال هذه الكلمة ليبعث قوى التفكر فيك فتوجه إلى الله تعالى وآلائه من كل شيء. فالآية كلمة جامعة كما سترد على تفصيلها.

أما البينة فما يملأ قلبك باليقين والسكينة سواء كان من جهة الفطرة والبداهة كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة هود:١٧)، أو شاهد من البرهان والوحي أو آيات متظاهرة كما قال: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة البينة:١-٤). والمعنى الأول أرفع مكانا وأقرب بحالة القلب الطاهر.

وأما البصيرة فمثل البينة بالمعنى الأول ولكنها أقرب إلى قوة الاستدلال كما أن البينة بداهة القلب. ثم تستعمل البصيرة لما يعطيك البصيرة، فتكون مثل البينة بالمعنى الثاني، كما قال: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة الجاثية: ٢٠) ذلك، ثم لهذه الكلمات مرادفات كالنور والهدى والعبرة والبرهان والسلطان.

المستدل و منصبه الرفيع

(٣) الرسول معلم للأمة رؤوف بهم وأعلمهم، فلا يخاطبهم كأحدهم فيحزنه إنكارهم الناشئ عن الحمق والتكبر والتمادي في الغي كأن أبا شفوقا يعطي دواءاً لابنه. وهو يحاجه ولا يتدبر فيما يقال له. فربما يلين له القول وربما يعرض عنه لعله يرجع، وإذا أنكر قولا لم يصر عليه كالمستدل الولوع بالرد والنقض بل تركه وأخذ دليلا آخر لعله ينتفع به. كما فعل إبراهيم عليه السلام بالملك الذي حاجه في ربه : ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (البقرة:٢٥٨). فلم يلح إبراهيم عليه السلام على هذا الاستدلال لما رأى الملك سلك مسلكا باطلا، فأخذ في دليل يبكته. فحينئذ ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (سورة البقرة:٢٥٨). فلم يكن هذا الاستدلال أصح من الأول ولكنه كان أبلغ وأوقع. فإن رأيت أبا وكان له ابن خصيم أو رأيت مصلحا في قوم لد عرفت حال النبي مع مخاطبيه.

(٤) لو كان يعلم الرسول ما كان الناس يهتدون إليه ويطمئنون به لم يكن لنا احتياج إلى الأنبياء. ولو خاطبنا بما يخالف العقل ويبعد عنه لم يؤمن به إلا ضعفاء العقول وإلا تقليداً بمعجزة وآية، و لم يثبت تعليمهم و لم يؤمنوا قبل

وقوع المعجزة. وإذ قد وبخوا على الإنكار قبل المعجزة وآمنت بتعليمهم العقلاء، وثبت في قلوب الحكماء الذين نبذوا التقليد تبين لك أن تعليمهم كان مما يُراه العقل فيقبله. كمن يهدي إليه أخوه الودود ثمرة من أرض بعيدة فيطعمه ويلتذ به كأنه كان مشتاقا إليها من قبل.

وبقولنا إن العقل لا يهتدي إليه لم نرد أنه محال، وإنما المراد غلبة أسباب الضلالة. فإن هذه الحياة الدنيوية مكبوسة تحت شهوات الحواس وآلامها، وكما أن السماء تضيء الأرض بنجومها فهكذا سماء روحانية تضيء القلوب بنجومها. فلا شك أن في قلب الإنسان استعدادا لقبول تعليم الأنبياء كما أن في قلوب الأنبياء استعداداً لقبول الوحي. وليس ذلك إلا حاسته الذكية التي أصلها المحبة والشفقة العامة، فإن تلك التي بها يتطهر القلب من أرجاس هذه الحياة ويتوجه إلى مفيض النعم و يتحنن إلى الناس لما أنه عرف النعمة فشكر بها كما أن الضرع يشكر باللبن. ولذلك الأنبياء أسمح الناس وأشدهم رافة وحنانا بعباد الله، وهكذا أسبق الناس إيمانا أرحمهم والمؤمنون هين لين.

الشكر أول الحكمة

(٥) وأشار القرآن إلى كون الشكر أول الحكمة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ (هذا ملاك الحكمة. ثم بين أن الله تعالى لا احتياج له إلى شكرنا بل هذا لشرف أنفسنا وطهارة أخلاقنا فقال) وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ (ثم بين أن الشكر

ينفي الشرك لأنه كفران نعمه، فقال) ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) (ثم بين بداهة حسن الشكر وأنه بفطرة الله، فأثبت حق شكره بحجتين لو تدبرته، فقال) وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (١٤) (ثم بين أمر المصير وأنه هو المولى. فبرهن على نفي الشرك ولزوم القيامة والفضل لعلمه.فبعد هذا أمر بالصلاة لكونها شكرا، ومصيرا بالفعل إلى المولى، ونفيا للشرك، وتسليما بالكلية. ثم أمر بإصلاح الناس وسائر الخيرات. ثم أمر بالصبر ونفي القساوة والكبرياء. فبعد هذه الأمور قال) أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً (ثم نفى الشرك. فبعد ذلك قال) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ (أي يكن موحدا) وَهُوَ مُحْسِنٌ (أي أحسن إلى الناس وأدى حقوق الشكر كما قال) ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ (٧٧)﴾ (سورة القصص:٧٧). ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٢٢)﴾ (سورة لقمان:١٢-٢٢). فبين لزوم المصير إلى الله أي الجزاء والبعث.

فانظر كيف جعل الشكر أصل الخيرات والدين. و على مثل هذا الأسلوب ما قال في سورة الزمر: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٥) بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ (أي

الذين أشركوا) وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ (الآيات:٦٤-٦٧). ومثل ذلك ما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) (انتهى قولهم) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) (أي تومنوا بالبعث لكونه ربا) وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥)﴾ (الآيات:٩-١٥). فجعل الشرك كفرا بالمنعم وجعل التوحيد دليلا على البعث كما مر.

تذكره

الشكر أول الإيمان كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾ (سورة النساء:١٤٧). قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ (الإنسان:٣).

أمثلة الحجج[1]

(٢) ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (سورة المائدة:٥٦). شرحها: من يتول الله ورسوله فهم حزب الله وأن حزب الله هم الغالبون، فمن يتول الله ورسوله فأولئك هم الغالبون. فهذا يشبه الشكل الأول ولكن شذب عنه الفضول.

(٣) ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (البقرة:٩٧). شرحها: زعمتم أن جبريل عدوكم فأنزل الكتاب على غير بني إسرائيل، فاعلموا أنكم أعداء الله تعالى، فإن جبريل إنما نزل الكتاب بإذنه. ثم إنكم بذلك مكذبون بكتابكم الذي بشر بهذا القرآن، فجاء تصديقا له. فهدمتم أساسكم الأول. ثم إنكم أعداء أنفسكم لأنه إنما نزل للهدى، ثم إنكم أعداء أنفسكم من جهة أخرى لأنكم تشقون بهذه البركة التي وعدت لكم إن آمنتم به. وكل هذه الأمور كانت معلومة لليهود من التوراة، فنبهوا عن غفلتهم وكشف لهم عن شناعة قولهم.

---

(٧) فإن تأملت وفهمت ما تقدم تبين لك ثلاثة أمور: الأول أن الأنبياء يخاطبون الناس بأمور واضحة ولكن بحيث أن يتقبلوه بالفهم والبصيرة

[1] هذا البحث يتعلق بالفصل الثالث " أمثلة من الحجج لتعرف بها طرقها"

والإيقان والسكينة.

والثاني أن النبي إنما ينبههم ويذكرهم ما قد أودعوا من العلم وذهلوا عنه ونسوه بغلبة المحسوسات والشهوات. وبذلك تميز نهج استدلاله عن نهج النظر المنطقي في الأمور المشاهدة كما بيناه في المنطق الأعلى.

والثالث أنهم لا يتمسكون بالمعجزة إلا كآخر الدواء و يحزنهم طلبها، فإنهم يعلمون أن المعجزة ليست إلا شهادة، ومن لم ينفعه القول الحكيم والحق المبين قل فيه رجاء المعجزة. ألا ترى المسيح عليه السلام كيف غضب على من طلب منه آية و تأسف على هؤلاء المنافقين الذين لا يفهمون كلام الله و ينبذونه وراء ظهورهم ثم يطلبون المعجزة، ولذلك ترى الصالحين آمنوا من غير معجزة. هذا، والحاصل أن محاجة الوحي لا تكون إلا بطريق العقل والفهم، ولذلك كثر في القرآن مدح التدبر والتفكر. والمراد من التدبر استعمال الفكر على وجه صحيح عقلي، فإن لكل قوة سوء استعمال. وأما موقع المعجزة من النبوة فالبحث عنها في كتاب العقائد.

(٨) فاعلم أن الرسول وكل من يدعو إلى الصلاح حل أمره أن ينشأ في المخاطب حركة أخلاقية من حبه الخير وبغضه الشر. فهو في خطابه يثير في المخاطب ما جمد وطمس عليه من عواطفه. فهو كمن يركض مركبه ويهمزه، فإذا رأى فيه جماحا ربما أمهله وربما زاده ركضا وضربا بالسوط، فإن التحريك ربما ينفع فيه الموالاة. ومن أمثلة ذلك ما ترى في كلام موسى عليه السلام إذا خاطب فرعون كما جاء في القرآن، ونذكره لك قولهما على سبيل المكالمة. وهي تبتدئ بعد ما سأله موسى عليه السلام أن يخلي سبيل بني إسرائيل، فقال:

١
موسى : ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾.
فرعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾

٢
موسى : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾
فرعون : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) ﴾.

٣
موسى : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾.
فرعون : ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) ﴾.

٤
موسى : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) ﴾.
فرعون : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) ﴾. لم يلتفت موسى عليه السلام إلى قوله السخيف وجرى في كلامه من غير قطع وأشار في آخر قوله إلى جواب قوله.

٥
موسى : ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾.

٦
فرعون : ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) ﴾.

٧
موسى : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) ﴾.
فرعون : ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) ﴾

(سورة الشعراء:١٧-٣١).

فحينئذ أراه موسى من الآيات، فانجر القول إلى الفعل. فانظر كيف كان موسى يزيد شيئاً فشيئاً فيما يلقي إلى فرعون من التحريك فيزداد فرعون غضبا، ثم رضي بأمر يفصل بينهما. وقدم الدليل وبناه على اليقين والعقل فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، و﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)﴾. فجعل الإيمان برب السماوات والأرض ورب المشارق والمغارب من أجلى البديهيات لتكثر الشواهد والآيات حتى لا يكفر به إلا من حرم اليقين والعقل. ولا يحرم اليقين إلا من غلب عليه الغفلة فأماتت فيه العزم والتثبت.

(٩) والآن نفصل بعض وجوه خفاء الاحتجاج على الذين تعودوا طريقا مولداً واصطلاحات عجمية. فأول ذلك الإيجاز والدقة. والعرب كانت تحب الكلام المحكم والإشارة، وكانت أسماعهم تمج الهذر والبسط الذي لا طائل تحته. والقرآن يعلمنا هذه الجهة في أسلوبه بعبارات مختلفة.

١- فربما يقرن قولا بقول أو كلمة بكلمة لينبعث التدبر لاستنباط المناسبة، فيهتدي إلى أمر جامع.

٢- وربما ينبه بعد إيراد الحجة بمثل قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ و ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) ﴾ (سورة آل عمران:٧).

٣- وربما يدعونا صراحة إلى التدبر والتفكر ويشنع على الغافلين تشنيعا شديدا، مثل قوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (سورة محمد:٢٤). وقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ (سورة يوسف:١٠٥).

فمن الإيجاز أن لا يذكر جميع المقدمات على الهيئة المنطقية بل يكتفي

على أسلوب الكلام العادي الذي تراه عاما حتى أن المتكلمين والماهرين بالمنطق يتجنبون في الاستدلال ذلك المنهج الوعر الذي يأباه جريان المحاورة.

وأما الدقة فهي حذف ما دق عن فهم غير الأذكيا، فإن العرب تعودت ذلك بل فُطرت على إعمال الروية. فكانوا يتفطنون لدقيق الأمور من غير تكلف (انظر كتابي على خصال العرب). وأما أمثلة الإيجاز والدقة فبعضها قد مرت من قبل وسيأتيك بعضها من بعد.

(١٠) والوجه الثاني أن أمور المذهب لا يتعلق بمحض العقل كمسائل الطبيعيات والرياضيات بل بما يمس العقل والنفس معا. فإن الإيمان بالحق يوجب على الناس ترك ما حبب إليهم من الشهوات وزين إليهم من الجهالات.

فههنا كان من واجبات البلاغة أن تخلط الحجة بما يعمل في النفوس من التبشير والإنذار وتصوير ما فيه الرغبة ومنه النفرة، وإخراج الكلام مخرج الغضب والحسرة والتأكيد وغير ذلك من أسباب البلاغة. فنفس مضمون الكلام الأخلاقي يستدعي خلط الحجج بالمهيجات، فإن الإحساس بحسن الشكر والعدل وبقبح الكفر والظلم وكل ما يتعلق بأمور الأخلاق لا يهتدي إليها العقل المحض، بل القلب السليم وهو المسمى باللب. والقلب صلاحه الخشية وداؤه الشهوة، والعقل المحض إذا لم يمده القلب السليم يتقلب بالظنون وينسلك مع الشهوات. ومن ههنا كل حزب بما لديهم فرحون. فكان من واجب البلاغة بعث نقطة التقوى و إزالة سكرة الهوى كما بيناه في أول هذا البحث، وخلط الحجة بالمهيجة.

(١١) ثم بعد ذلك أمر ثالث في ترتيب الدلائل، وهو أن الدليل

يوضع حيث يسهل قبوله فيذكر بعضه الذي مهد له من قبل ثم يترك حتى يتمهد له فيؤتى بالباقي. وهذا مثل ما ترى في تعليم اقليدس، وهذا يستدعي إيضاحا ولكنا نحوله إلى الأمثلة. وبسط الكلام في بحث الترتيب والنظام. و إنما ذكرنا هذا القدر لكي تنتبه لأسلوب الاحتجاج وإشتباك الدلائل بالوعد والوعيد.

حجج القرآن

أصول الاستدلال كما يستنبط من القرآن

(١) ثبوت الشيء ثبوت لوازمه قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(سورة الزخرف:٨٧). وإن المعلوم يهدي إلى المجهول عبارة عن الأصل الأول.

(٢) المعلوم يحكم على المجهول، و﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (سورة النجم:٢٨، يونس:٣٦) عبارة عنه، وقوله: ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾(سورة الجاثية:٢٤). فالحق ما هو اليقين الواضح، والظن ما هو خرص وتوهم.

(٣) العلم بالشيء ثم الجهل بلوازمه من الغفلة وقلة الفكر، فلزم إعمال الفكر ونبذ الغفلة.

١- (من طريق القرآن في الاستدلال) الدعوة إلى أمر مسلم بين الفريقين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (سورة آل عمران:٦٤).

٢- (طريق القرآن) جعل اليقين أصلا ورد الظن إليه. وهكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "دع مايريبك إلى ما لا يريبك"

واليقين فطرة الله فلا يثبت فإنه أرفع من أن يثبته يقين آخر. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۝٣٦﴾ (سورة يونس:٣٦، والنجم:٢٨). ومثله كثير. ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ (سورة المؤمنون:١١٧). أيضا: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۝٤٢﴾ (سورة غافر:٤٢).

(من طريق القرآن) الأخذ بالأقوى، وذلك أصل راسخ في الظنيات واليقينيات، وهو المراد بأصل الشهادة. ومتمسكنا قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ أي حصلت لي فيه بصيرة منه. ثم قال لهم حسب موضعهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١﴾ (الأنعام:٨٠-٨١).

عند تعارض الدلائل الظنية يؤخذ بالأقوى أيضا كما ذكر في استدلال إبراهيم عليه السلام وعلى هذا بنى أكثر أعمالنا في الدنيا.

اليقين أيضا يأتي من التقليد والتعود وهذا بناء فاسد ولكنه داء عام. فلابد من كشف فساده والكف عن الاعتماد عليه.

إثبات الخالق[1]

(٤) الاستدلال بوجود الخير والشر

كما أن للحوادث انتهاء إلى ثابت بنفسه فكذلك للخير والشر انتهاء إلى خير بنفسه. ولذلك وكل الرواقيون الخير إلى الفطرة، أي كل فعل موافق للفطرة فهو خير والفطرة هي فعل الفاطر. ثم فطرتنا معيارنا وفطرة العالم معياره. فإذا اختلفنا فلأيهما الترجيح، فلا بد لهاتين الجهتين من المصير إلى فاطر ذي إرادة خير ورحمة.

(٥) الاستدلال بضرورة حس الملك والحق

كما أن للحوادث انتهاء إلى قدم فكذلك للملك والتصرف انتهاء إلى مالك مستحق للأمر والنهي والتصرف بأي حق يتصرف في العالم. قالوا إننا لصلاحنا حولنا حريتنا إلى الملك بالعهد ولكننا نتصرف في الحيوانات ونستعبدهم ونذللهم، فما ذا حقنا.

فنقول إن الله تعالى خلق الخلق فهو مالكهم بالحق وهو المربي والراحم عليهم، فلا ملك بالاستحقاق إلا له ولمن أعطى له ذلك الحق. فقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ (سورة الأعراف:٥٤). وقال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۝١٠٢﴾ (سورة الأنعام:١٠٢). وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن

[1] قد نقل من هذا الفصل مباحث (١)، (٢)، (٣) ببعض التفصيل في الجزء الأول من هذا الكتاب و ما بقي منها وضعناها ههنا حسب ترتيبنا.

قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سورة البقرة: ٢١-٢٢).

فبين لنا أنه لا حق إلا للخالق، وبهذا يشهد صريح العقل. فمن لم يؤمن بخالق واهب منعم عليه فقد ظلم في تصرفه فيما ليس له. وإذ هو خالقنا وفاطرنا ومربينا فكل ما ننتفع به هو ملك ربنا. ولا حاجة له إلى رزق و متاع فلا بد أن كل ما يصلح لتمتعنا ورزقنا فهو لنا. وقد رأينا في نظام الفطرة أن بعض المخلوق لنفع بعض آخر فعلمنا أن ما يصلح لنفعنا يكون لأجلنا لكون الرب غنيا ولكون الخلق عبثا لو لم يكن فيه نفع لأحد.

ثم هدانا بطريق الفطرة لمصالحنا وانتفاعنا بخلقه وجعل لنا شاهدا في الحيوانات، فكلهم يهتدي إلى ما قدر له كما قال: ﴿ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة الأعلى: ٣). ثم علمنا أنا نستحق استعمال ما في الأرض لما جعلنا أقرب إلى حضرته بما كرمنا بالعقل ومحاسن الصفات، ولما أنا مملوكه فنسأل ربنا ما نحتاج إليه، ولما أنا نشكره ونعبده فكيف يبخل عنا وهو الكريم. وقد صرح القرآن بهذه الأمور في مواضع.

(٦) الاستدلال بضرورة الحس بالبر والإثم

نرى في فطرتنا الاستحسان والاستكراه لأفعال شتى ونرى الشهوات تبغي خلاف ذلك. فإذا راعينا مصلحة هذه الحياة وأيقنا بخفاء ما نفعل من الإثم فحينئذ لم يبق محل للمعصية والسيئات، ولكنا نحس بالإثم وتلوم أنفسنا على ارتكابه. فضرورة الفرق بين البر والإثم تشهد على منتهى هذا الفرق،

وهو الإحساس بأنا تحت رقيب يرضى ويسخط كما قال تعالى: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة القيامة: ٢). وأيضا: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة العلق: ١٤)[1].

(٧) وليس كل حس يظهر في كل حال، فإن للإحساس موقعا وشرائط. فمن وقع في أمر صعب وضاقت ذرعه ونفدت حيله وبان عجزه أحس بربه الذي أودع فيه هذا الإحساس، كما أن العقل ينتبه بعض قواه عند شدة الحاجة. ولذلك لم تكن في الدنيا أمة إلا كانت تعبد الرب ولم يعبدوا إلا الله، ولكن لجهلهم بصفاته صوروه بخلاف ما هو، فصار معبودهم غير الله.

من الآيات التي ذكرنا وفسرناها قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ (فهذه آيات في الآفاق) وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ (وهذه آيات في النفس) وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ (آيات في الآفاق على الربوبية والنعمة والنقمة) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (سورة الذاريات: ٢٠-٢٣). فقوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ استدلال بصفة ربوبيته على كون الجزاء كما يظهر من مساق الكلام. أي بعد كونه تعالى رب كل شيء كيف لايجازيهم ويتركهم سدى ويساوى بين المحسن والمسيء كما قال: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة القلم: ٣٥-٣٦).

والاستدلال بالصفات أكبر وأوثق فحسن أن تذكر على أسلوب القسم كما ذكرها في المثال الأول على أسلوب الاستفهام. وكما ذكر مرتين

---

[1] بياض في الأصل

آيات الآفاق مما في الأرض ومما في السماء ثم جعلهما آية واحدة لما نرى تسخير الأرض والسماء لمصالح أخرجت من بينهما. فعلمنا أنهما تحت رب واحد يدبرهما لمشيئته ومقادير حكمه.

فكذلك ذكر آيات النفس مرتين فقال بعد القسم ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾. فدل على آية جليلة واضحة في أنفسنا وهي النطق. وما أدراك ما النطق، أليس هذا دليلا على كون الإنسان ذا إرادة ومشيئة وعقل ووحدة في جسمه. فكما أن نطق الإنسان شاهد على روحه وصفاته (في هيكله وعالمه الصغير) تحت تشعب الأركان وتكثر القوى والأعضاء، فكذلك الأرض والسماء وما بينهما ينطق جهراً بشهادة وجود الرب وصفاته.

وهذا الاستدلال أوسع وأحكم مما اتخذه بعض الفلاسفة أساسا لفلسفته، وسيأتيك التفصيل عند ذكر الأمثلة للآيات النفسية إن شاء الله تعالى.والآن نشرع في القسم الخصوصي من الكتاب ونذكر الحجج ونفسرها على سبيل الإيجاز والله الموفق والمعين.

المتفلسفون يثبتون الخالق بطريق معوج مضلل يزعمون أن الحادث لابد له من علة والعلل الحادثة تنتهي إلى قديم، ويضطرون إلى إبطال التسلسل فيصعب عليهم الأمر. وأما طريق القرآن فإن كل مخلوق فبفطرته محتاج إلى خالق ولا خالق إلا هو، فليس هناك سلسلة. وأما الحوادث التي يسمونها عللا فإنما هي درجات الخلق، فإنها كلها خالية عن قوة الخلق بل كلها متصرف فيها فلا فعل لها ولا علم لها بالخلق. فالخالق هو الله الواحد القهار وما سواه فمخلوق. وكيف يخلق ما لا يعلم الخلق.

أيظن أحد أن الماء يخلق الشجر أو الشرر يخلق النار أو الوالد يخلق الولد، كلا. المجبور المضطر الذي لا يقدر على بقائه ولا يعلم كيف خُلق هل يخلق غيره مثله، وهذا أمر ظاهر. وقد سعى بعض المتفلسفة كل السعي في إبطال العلة، فقال إن هذه الحوادث ليست عللا إنما هي أشياء متوالية على قاعدة معينة. وأراد بذلك إبطال ضرورة العلة لكي يبطل الدليل الذي عليه مدار إثبات الإله. فإنه ينكر بنفس العلية، ولكنه في سعيه هذا شهد بأمر حق، وهو أن هذه العلل ليست بعلل، فقطع بذلك مادة الضلالة. وأما نفس العلة فبديهي، لا يمكن إبطاله. ثم شهد بأمر آخر، وهو أن هذه الحوادث المتوالية مربوطة بالقسر على،قاعدة معينة ونظام قائم. فشهد بذلك على الإله القادر الواحد القهار. وهذا الدليل صرح به القرآن غير مرة، فمنها قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٠١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ (سورة الأنعام:١٠١-١٠٧).

(١) إثبات الفاعل المريد من الكون

تذكرة

الفعل لابد له من الإرادة فإن الفعل من غير إرادة في الحقيقة انفعال. ولابد للانفعال من الانتهاء إلى فاعل مريد، كانتهاء المخلوق إلى خالق. ولا جدوى لفرض عدم تناهي السلسلة. فإن هذه الضرورة من جهة الذات، فإن الانفعال هو فعل عن خارج، فكل منفعل دليل على فاعل مريد.

(٢) إثبات صفة الرحمة من الكون المحض

وكما أن كل حادث لابد له من فاعل فكذلك كل إرادة دليل على وجود خير عند المريد. فكل حادث كما أن له علة فاعلة فكذلك له علة غائية. أي الخالق لم يخلق شيئا و لم ينشئ نشأة إلا وقد أراده وعلمه خيرا أي حسنا. وكل ما نشأ فكما كان فكذلك حسن. وكونه لجهة حسنه وحقيقة حسنه هي حقيقة كونه، فإنه تعالى فعل ما شاء: ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (سورة السجدة:٧). والحسن هو كونه موافقا لمشيئته، فما أراد فهو حسن، وهو جهة الخير في المخلوق. والخير المحض إرادته، ولا معنى للخير ولا الحسن إلا كونه حسب رضى ذي رضى واستحسان.

وحقيقة المخلوق هو كونه شيئا، أي شاءه الله وأراده ورآه خيرا من جهة خلقه. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ إلى قوله ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة يونس:٥). والخير إن كان لنفس الفاعل فهو ناقص، والقديم كامل وواحد وغني عن العالمين وحميد في ذاته وإلا لم تطمئن النفوس برأفته وخيره. وعلى هذا بناء اليقين بصحة فطرتنا كما مر. فلا خير في إرادته إلا الرحمة على الخلق. قال: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴿١٢﴾ ﴾ (سورة الأنعام:١٢). فهو رحيم في حد ذاته لكونه مريدا ولكونه فاعلا. ولو لا الرحمة لم تكن إرادة ولا فعل، ولذلك سمى نفسه الله والرحمن أقدم أسمائه الحسنى.

(٣) إثبات التوحيد من الكون

هذا الكون دليل على قديم متوحد. أما القديم فلضرورة فقر الحادث. ولايجدي فرض عدم التناهي فإن الضرورة لا تبطل به كما مر. وأما المتوحد فلأن الخلق إحاطة القدرة إحاطة تامة، وهذه تنفي الشركة. وأما قدرتنا فليست تامة بل محدودة وتحت قدرة تامة. قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ (كثيرة) إِلَّا ٱللَّهُ (الذي علمنا من صفته القدرة التامة والعلم المحيط) لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ (أي مالك العالم بأسره) عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سورة الأنبياء:٢٢). أي عما يجعلون له من شركاء.

فالتكوين كمال القدرة وتمامها وإحاطتها. ثم إن كان العالم تحت آلهة كثيرين استحال توافقهم لتضاد المخلوقات، فإن بعض الكون إبطال بعضه. ثم كونهم ناقصين يخرجهم عن الألوهية الحقة، وكونهم كاملين موافقين مشتركين يجعلهم عبثا باطلا. والله هو الحق.

(٤) إثبات التوحيد من محض وجود اليقين
وهو صحة الفطرة واليقين

هذا الاستدلال مر في باب اليقين، فنفس اليقين والعقل دليل على إله واحد. وهذا دليل مستقل برأسه، ثم هو تحت دليل الوجود فإن الشركاء يفسدون كل موجود حتى العقل واليقين، حتى أن وجود شيء ما برهان على وجود الإله الواحد.

(٥) إثبات الخالق العالم الرحيم

من محض وجود النفس

النفس عاقلة بأنها لم تكن ولا صفاتها فلابد لها من خالق، كما أنه لابد للماديات من خالق. وإذ جعل الحكمة والهداية فيهما لابد أنه عالم قدير رحيم. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (سورة يونس: ٣٤-٣٦).

إثبات العلم التام والقدرة التامة

لا بد لك من أن تؤمن بخالق عالم بكل شيء وإلا لم يكن خالقا بل مركبا لما خلقه غيره. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (سورة الملك: ١٤). وكذلك الخلق أكبر التصرف، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ (سورة الزخرف: ٩).

إثبات الخلق وإبطال تعدد القدماء

القابلية العجيبة في المادة لا بد لها من حكمة، وفرضنا المادة غير عاقل حكيم. فلابد لها من خالق حاكم عليها وفاطرها، فخلقها بهذه

القابليات العجيبة الموافقة لمصالح عظمى، فاستدللنا من خلقه على رحمته. ولا يمكن عدم التناهي، فإن فقر المادة إلى خالق ضروري.

ترتيب ظهور قوى الفطرة

الحواس كالغذاء للعقل، فبها تشتعل جذوة العقل. والعقل كالغذاء للروح، فبه يسطع نور الروح. مثلا تحس باللذائذ فتؤمن بإله رحيم فتحبه وتشكره. وربما يتبادر الروح العقل فيسطع بعد الحس المحض كحكمه بالشكر وكراهية الجور الخاص. وهذا يدل على كون العدل قد أودع فطرته.

إثبات الخلق وإبطال القدماء

ما ذكرنا من فقر المادة يشبه ما للنفس من القابليات والنشأ والتحول في الصعود والهبوط مضطرة. فهي في حد ذاتها غير قادرة على تقلبها، وهذا التقلب منبع المنافع الكثيرة والمرافقات التامات بالعالم. فلابد أن ينسب إلى فعل حكيم قادر عليها، لا إلى نفسها المضطرة لا تعلم بما فيها من القوى الحاكمة عليها.

القديم هو القادر المطلق

التأمل التام في صفة القِدم يدل على أنها كمال الوجود وتمام القوة، وأنها لاتُسلّم لشيء تقلبه أيدي الآثار وتعطيه وتسلبه أخص صفاته على الكره والاضطرار. ثم هو في ظلمات الجهل عما جرى ويجري عليه من الأطوار.

فكيف يقال لهذا الذليل الحقير أنه مع تذلّله وعجزه السارى في جميع أجزائه غير عاجز في أصل وجوده. أي دليل وشاهد في نفس وجود هذا الشيء على قدمه غير ما يتشبث بالجهل، وهو القول بعدم العلم وهذا باطل. فإنهم قد علموا بفنائه ونشأه (كفناء النور والبرق وليسا عارضين لحركتهما مع سكون الجسم الذي يسريان فيه. وأما فرض الأثير فتحريك الجسم لا يحركه، والنار والنور والبرق تنشأ كل ذلك من التحريك والتحكيك في الجسم). ولذلك قالوا إنه مفروض ومبني على بداهة عدم الوجود من العدم وعكسه فيه مغالطة وقعت لهم.

(القديم) الدليل على القديم هو الذي يثبته، وأما الظن فلا يثبت شيئا. فالقول بقدم شيء لابد له من دليل، وإنما أيقنا بالواحد القديم لدليل لا محيص منه. ثم يتضح به جميع العلوم ويضطر إليه ما أيقنا به.

الاستدلال من الأصل الأول
والثاني على الخالق الفعال

اعلم أنا نرى الملازمة بين الجسم و آثارها ونرى أنها متواترة ولا تتبدل، وأنها مقدرة على قدر معلوم ووزن مخصوص ليس للمؤثر أن يجري خلافه. ونسميها طبائع المؤثرات وفطرتها وخواصها. فلو ظننا -لانقول أيقنا- بأن الآثار بالإرادة لما وثقنا بها بل عاهدنا بالمؤثر، أو أعلمناه بما نريد منه، أو سألنا منه حاجتنا، أو عملنا بما يحبه أو يبغضه. ومع كل ذلك ما وثقنا بل كنا على خوف كدأبنا بذوي العقول والإرادة، ولكنا واثقين بلزوم الآثار بعد علمنا بها. وإنما

نجتهد في توسيع علمنا بطريق التجربة أو الكشف عن الآثار اللازمة بالنظر كما نفعل بالرياضيات.

وأما الإرادة والفعل فلا تراها إلا في نفسك. وإذا رغبت في شيء وأردت كسبها فتصرفت وشئت فكان واستحسنته (التوراة). فهذا هو فعلك وإرادتك ورضاك، وذلك بتعيين وعطف وتركيب. لأنك لم ترمنه إلا بقاء على صفة لازمة به فصرفته عن جريانها الخالى عن مرادك فنزل فيه أمرك (القرآن).

فهذا اختيارك وفعلك ينطوي على كون المتصرف فيه مسخرا لك. فما علمت بإرادتك وفعلك إلا وقد علمت معه انفعال مسخر لك. ففرقت بين الفاعل والمنفعل، وفرقت بين الإرادة ذات استحسان والتركيب وبين الأثر المتواتر المقدر. وهذا الفرق أمر فطري لايشتبه على نفس.

الفرق بين الإرادة والأثر

انظر في سورة الرعد الآيات: (١-١٩).

(١) الإرادة إما أن تكون لمصلحة المريد أو لمصلحة غيره. الأول يستلزم علمه بنفسه والرضاء والكراهية لشيء دون شيء، والتبدل عن مجرى واحد. والثاني يستلزم علمه بحال المنتفعين به، والرضاء والكراهية لما يتعلق بهم، والتبدل حسب نفعهم وضرهم تابعين لرضاه وسخطه ولذلك عبدوا الكواكب.

وأما الأثر المحض فلا علم هناك ولا تبدل ولا رضاء أو السخط بل

اللزوم المحض. وإنما نوقن بالآثار الخاصة لما نرى اللزوم بين المؤثر والأثر بالتجربة ولما نرى المؤثرات بغير إرادة فيزيد علمنا باللزوم.

ثم لا نرى نسبة بين المؤثر والأثر، ولذلك أيقنا بأن لا إرادة هناك ولافعل بل انفعال محض وعلاقة مجعولة. وإذ لا نسبة بين جسم وطبيعة خاصة فكل طبيعة على بعد سواء منه. وإذ كانت الفطرة من أول وجود الجسم فلا يكون في نفس الجسم علة هذا التخصيص، إنما يكون خارجا منه ومقدما عليه. ثم لابد أن يكون هذا المخصص ذا إرادة واختيار فاختار وخص، فإن اختصاص شيء لشيء من بين المتساويات هو الإرادة والفعل.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ (سورة الطلاق:١٢).

معرفة الرب تعالى بديهية

البداهة في القضايا هي حكم الذهن بضرورة حمل المحمول على موضوعها. وذلك يكون بعد تصور الموضوع مع المحمول. فإذا لم يتصور الموضوع أو المحمول لم يحكم الذهن بضرورة حمله. تقول ببداهة حرارة النار وضياء الشمس بعد تصور النار والحرارة والضياء والشمس. وكذلك تقول الخطان المستقيمان المتوازيان مهما امتدا لم يحيطا مكانا و لم يلتقيا. ولكن القول بأن هذين الخطين مستقيمان متوازيان فربما تشك فيه بمجرد النظر. وهكذا تقول

إن الظلم قبيح والشكر حسن والإحسان حسن، ولكن هذا الفعل ظلم وهذا شكر وهذا إحسان فربما تخطئ فيه.

الإلهام بوجود المريد

وقوع الحوادث من غير إرادة تأباه الفطرة والعقل. أما العقل فلما ذكرنا من لزوم الإرادة لكل فعل. وأما الفطرة فالإنسان ملهم بنسبة الآثار المفيدة والمضرة إلى مريد. ولذلك لم يزالوا موقنين بالآلهة لضرورة أن كل حادث عظيم لابد له من محدث مريد. وهذا الإلهام نشأ من ضرورة الشكر والسخط على المفيد و المضر وللزوم الغاية في الفعل. فكما أنه ملهم بضرورة العلة الفاعلة فكذلك هو ملهم بضرورة العلة الغائية، فلا يطمئن بما يقع عبثا.

الحِكَم الظاهرة في العالم (بتركيب العلل وترتيبها)، والمحاسن الباهرة في الآفاق (بتركيب أجزاء الحسن)، والعدل الذي شهدت فطرته بضرورته ولقيام كل شيء به تضطره إلى اليقين بالغاية. فتوقن أن ما يقع فلأجل نفع ولضرورة عدل. فتثبت للعالم فاعلا مريدا كما تثبت لهيكله فاعلا مريدا. وتحس بكونها هو. فحسها به بالذات ومن وجوه كثيرة، وكذلك علمها بالفاعل المريد للعالم بالفطرة ومن وجوه كثيرة. أما كون هذا العالم بالفطرة ومن غير واسطة فعليه دلائل.[1]

---

[1] ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (سورة الأعراف:٥٤). الأمر لابد أن يكون موافقا بالفطرة، والخالق هو العالم بالفطرة وبغايتها وبطريق إكمالها. فكون أمر موافقا بالفطرة وغايتها وإكمالها دليل على كونه من الخالق. ثم الأمر لا يستحق له أحد غير الخالق، لكونه مالكا ولكونه عالما بغاية ما خلق. فأمره إجراء خلقه إلى غاينه، فإنه أهل البركات وهو رب العالمين.

الآيات والاستدلال على حدوث كل شيء

إلا الله الواحد القهار

(١) نرى السماء والأرض والجبال والشجر الدواب والناس مقهورين مسخرين لنفع غير أنفسهم، فلابد من قاهر حكيم يجريهم لحكمة.

(٢) كل هؤلاء في حركة وزوال وصعود وهبوط واضمحلال. والقِدَم يقتضي رسوخ القدَم.

(٣) ....

(٤) الحكم المندمجة في الماديات تدل على وضعها فيها من حكيم. فإن الحكمة التي في فطرتها لا تنسب إليها، ولابد من نسبتها إلى حكيم قبلها. فالقول بقدامتها قول بوجود الصفة من غير موصوف والفعل من غير فاعل والإرادة من غير مريد.

(٥) الحكمة الحاصلة من تقلب الماديات لاتنسب إلى الماديات لضرورة خلو محض المادة عن الإرادة. وأما نسبتها إلى نفوس فيها كما زعمت الوثنيون فكونها مسخرة مقهورة يأبى تلك النسبة، فذلك قول بالظن وخلاف للعقل.

في بيان التوحيد

اعلم أن القرآن كثير الاحتجاج على التوحيد، وإبطال الشرك في الدعاء، والشفاعة لغير الله، والتحليل والتحريم (وهو أمر كبير عليه مدار العبادة الباطلة. وكثر في القرآن ذكر ذلك). فهذه أربعة أمور عظيمة. فرق

القرآن بين حقها وباطلها وبين فيها الحجة لما أن الخطأ فيها أوقع في الشرك كثيرا ممن آمنوا بالله وكتابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ (سورة يوسف:١٠٦). وليس هذا موضع تفصيل هذه الأمور ولكن نذكر وجه الخطأ في هذه المسائل ليتضح تأويل الحجج التي نذكرها.

أما التوحيد فيثبت بأظهر صفاته وهو كونه خالقا وقادرا مطلقا، وبرحمته الواسعة وغفرانه، وعلمه المحيط، وعدله الذي لايرضى بالظلم فكيف بأكبره وهو الشرك. وكما يثبت من كمال القدرة أنه لا مجال للشركة فيها فكذلك تشنيع على اتخاذهم المخلوق حتى أضعفهم آلهة،كما قال في ذم الأصنام: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ (سورة الحج:٧٣). وهذا هو التشنيع الذي مثل لهم إبراهيم حين "جعلهم جذاذا". ثم قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء:٦٣). فأذعنوا لهذه الحجة الدامغة وأقروا بأنه لا نطق لهم.

ولا أرى قولا بليغا مثل هذا الذي يصور كونهن أضعف من الذباب وأخرس من البهائم عند أكبر الذلة. ولذلك لم يقل فاسأله، فإن المظلوم أسرع إلى إظهار ظلمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾ (سورة التكوير:٨).

فما كان من صفاته تعالى فيثبت منه التوحيد وغيره من صفات الكمال على سبيل النقض والخلف. فتثبت العقائد الصحيحة في الألوهية بإظهار بطلان العقائد الفاسدة. وأما إثبات وجوده تعالى فهو أصل هذه الحجج وأمها،

فذكرناها في القسم الأول من هذا الكتاب. فنخص هذا الفصل بذكر صفات الله الكاملة التي تلزم الألوهية. فالمنكر بها منكر بالله وإن ادعى أنه يؤمن بالله كما صرح به القرآن (١٠٤-١٠٥) يونس، وسورة الكافرون.

(إبطال الشرك من صفاته تعالى)

قال تعالى بعد ذكر عبدة الشمس : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾ (سورة النمل:٢٥-٢٦). أي أن الله تعالى يبرز ما استكن في السماوات والأرض. والشمس إنما تبرز الخارج، ثم هي في نفسها أعمى لا تعلم شيئاً فما أبعدها عن أن تعطي نور البصر والبصيرة، ولكن الله يعطي كليهما. ثم هي مسخرة تحت قدرة مليك مقتدر، فالله تعالى هو الملك ذو العرش العظيم.

ومثل ذلك ما قال عز من قائل: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ﴾ (سورة فصلت:٣٧). فإن المخلوق لا يصلح أن يعبد. فكون كل شيء مسخرا ومجرى لغرض برهان على كونه مخلوقا لحكيم قدير.

والدليل الكلي على إبطال الشرك كماله وألوهيته. وإيجاب العبادة لله تعالى ونفي الأنداد يثبت بكونه خالقا، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) ﴾ (الأنعام:١٠٠-١٠٢). فيثبت الملك من الخلق، فكل مخلوق عبد للخالق. وإذ لاشرك في الخلق فلا

شرك في العبادة. ثم هو الوكيل والرب المتكفل فلا رجاء إلا إليه، فلا حاجة إلى عبادة سواه. وإن عبدنا ربا سواه أنكرنا بحق خالقيته وبصفة وكالته وكفايته.

تذكرة

في أمر الدعاء آيات (١٠٥-١٠٧) سورة يونس تبين أن الله وحده كاشف الضر. (١) فلا تدعوا إلا إياه. فإن دعوتم غيره فقد أشركتموه بالله في النفع والإضرار. (٢) بل ربما جعلتموه أكبر منه لما زعمتم أنه يرد قضاء الله. (٣) ثم هذا يصرف وجوهكم وإخلاصكم عنه. (٤) بل ربما يجعلكم غير راضين بالله لما رجوتم من غيره دفع مصيبة أصابكم الله بها. فهذه أربع مفاسد. وبناؤها على مفسدتين: (١)صرف الحب عن الله. (٢) وسوء الإيمان بكمال صفاته.

إثبات الإله الواحد الرحمن الرحيم من نفس اليقين

(قد نقل بعض هذا الفصل في المبيضة تحت عنوان (٩) الطريق الحقيقي للعلم واليقين وأساسهما الراسخ في "بقية الفصل المتقدم"، وما بقى فنذكر ههنا):

(١) وإما أحسنت الظن بفاطر خلقك واستدللت بما ترى من نعمه وحكمه فحمدته وآمنت به. ونعمه الظاهرة في السماوات والأرض ونفسك تدلك على رحمته، وهذه تدلك على صحة فطرتك. فالإيمان بعلة أولى غير

عالم رحيم لا يحل إشكالا حتى تؤمن بخالق عليم رحيم. ولذلك جاء في القرآن كثيرا صفة الله تعالى بكونه عالما حيا كما قال في آية الكرسي وغيرها كقوله : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨ ﴾ (طه:٩٨). فوصفه بالوحدانية والعلم. وضرورة الإيقان بالوحدانية نبينه في الفصل الآتي.

(٢) ثم لا يأمن أحد سوء عاقبة الشك إلا أن يؤمن بخالق واحد رحيم قاهر لاينازعه شريك. فإن المجوس كيف تطمئن بأن بارئه ليس هو أهريمن أم كيف يطمئن مشرك بأن لم يخبط فطرته إله كان ضدا لإلهه. وإلى هذه حالة المشركين تلمعنا قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١ ﴾ (الحج:٣١).

وإذ كان القلب مجبولا على طلب الاطمئنان في علمه ولا سبيل إليه إلا بأن يؤمن بالله الواحد الحميد، فالظاهر أنه مفطور على التوحيد. وهكذا هدانا القرآن حيث قال: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ٣٠ ﴾ (سورة الروم:٣٠). أي لا ينبغي لأحد أن يبدل هذه فطرته التي كتبها الله في قلبه ظلما واتباع هوى وجهلا، فإنه تعالى قال قبل هذه الآية : ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ (أي أشركوا) أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩ ﴾ (الآية:٢٩). أي بعد أن اتبعوا أهوائهم سلبوا نور الهدى نتيجة لما فعلوا حسب فطرة الله التي جعل النتائج السيئة للسيئات. ولذلك قال بعد آية ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ ﴾ الخ. ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ (لكي يفيض عليكم الهداية) وَٱتَّقُوهُ (لكيلا يضلكم) وَأَقِيمُواْ

ٱلصَّلَوٰةَ (لكسب الإنابة) وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ (الذين اتبعوا أهواءهم فضلوا وزين لهم الباطل كما قال بعد هذا) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾(سورة الروم:٣٢). ثم ذكر بعد ذلك أن التوحيد فطرتهم من جهة أخرى ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ ٤٣ ﴾ (الآية:٤٣). وقال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾ (سورة الرعد:٢٨). أي عن الريب والهوى.

التوجه إلى الله أقوى ما جبلنا عليه

مما مر بك ظهر أن الإيمان بالله ليس بجبري ولا نظري مكتسب بل هو مما أودع في جذر فطرتنا وصميم علمنا. و إنما يكشف عنه بالفكر في أنفسنا. وهذا من جهة العلم. وإذ أن النفس ذات إرادة ورغبة كما هي ذات علم فلها توجه إلى ربها قبل كل رغبة. وانبعاث هذا التوجه بالفكر والذكر.

لا محيص عن الشك إلا بالتوحيد

(١) قبل النظر وبلوغ العقل يقدم ما يظهر أولا، وبعد النظر والبلوغ يقدم ما كان أساسا. قال تعالى في ذكر وعظ لقمان: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (سورة لقمان:١٤). ثم بعد ذلك استدل على تقدم الشكر لله بوجوه مختلفة. فانظر كيف قدم الوصية بالوالدين ثم قدم الشكر لله.

(٢) البالغ النظر والسليم القلب يوقن بالأساس ويهديه الظاهر إلى الباطن فإنه لا يمكنه الإنكار بما يلزم اليقين الفطري (أيقن بالحق والعدل فلا يشك في ملكوت الله وأن الأمور بيده وحسب آجالها كما صرح به في أول سورة الروم. ولذلك النبي ينذر الناس على حين هم مطمئنون في الترف وبلهنية العيش. ولما تظهر علامة من العذاب المستقبل فهو يخوفهم وهم يضحكون، وهو يرى الهلاك محيطا بهم ومطلا عليهم، فيصيح بهم وهم لايسمعون.

والسبب أنهم لا يرون إلا الظاهر والنبي يرى الغيب عيانا ويزهل عن الظاهر فإنه باطل ومنقض. فالأساس مع كونه باطنا هو الأثبت عند أولى العقل والتنبه. قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله ﴿ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة الروم:٧-١١).

أول علم النفس بكونها مربوبة محتاجة
وهذا العلم يهديها إلى ربها

بعد ما علمت أن دلالة الأثر على المؤثر بديهية فطرية نوجهك إلى ما نرى في النفس من آثار علم مكنون نستدل عليه بما نرى من أثر هذا العلم. وهو علم النفس بالفقر أي بكونها مربوبة محتاجة، فإنها في أول أمرها طالبة لغذائها وملازمة لمربيها. ولاشك أن هذا أثر علم فيها وإن لم تحس به ولم

تلتفت إليه. فإن علم العلم أمر يتبع الفكر و رجع النظر وربما يحتاج إلى التنبيه والذكر. ولا تزال النفس ترى جميع الخلق محتاجا مربوبا مسخرا فتسجد لرب غني رؤف وتشكره.

ولكنها ربما إذا وجدت عندها ما يقضي حاجاتها الحاضرة نسيت عجزها واستغنت. ولم تكن لها أن تنسى لو علمت أنها محتاجة في كل آن وأنها لما تخرج عن قبضة ربوبية خالقها، ولكنها كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة العلق:٦-٧). فأتبع هذا قوله العزيز: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ (الآية:٨). أي كيف يستغني فإن مرجعه إلى ربه.

فمعرفة الرب أول علم الإنسان وأجلى البديهيات له ولكنه ينسى كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ (سورة يس:٧٧-٧٩). فمن لم ينس أول علمه أيقن بأنه مربوب وراجع إلى ربه القادر العليم المنعم عليه. وتجد تفصيل هذا الاستدلال في محله.

وههنا إنما أردنا ذكر الأصول الموضوعة الأولية. وإنها مع كونها بديهية يذهل عنها ولذلك يذكرها الله تعالى. ولكونها بديهية ربما يذكرها بأسلوب التعجب كما قال: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (سورة إبراهيم:١٠). ومثل هذا كثير وسنورد بعضه في فصل الأدلة.

فهذه ثلاثة مبادى في جذر فطرة النفس: معرفة الرب، محبته، وتقواه.

والقرآن دل على كونها في الفطرة وأن منكرها ظالم لنفسه مبطل لأبين الحقائق. أولئك كالأنعام بل هم أضل والإعراض عنهم أولى، كما قال تعالى: (يونس٦-٩): ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾. فذكر في هذه الآيات: (١) التقوى، (٢) والتروع إلى لقاء الله، (٣) والإيمان، (٤) والعمل الصالح. وذكر أضداد ذلك من(١) الاطمئنان بهذه الحياة، (٢) واليأس من لقاء الرب، (٣) والغفلة عن آياته، (٤) وكسب السيئات. ذكر مآلهما من الجنة والنار.

الآيات الآفاقية على التوحيد

(١٦) أما الآيات الآفاقية على الألوهية فالأصل فيها (١) الحسن المشاهد في العالم كما قال: (سورة السجدة:)﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾. (٢) والرفد بينهم كما قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾(سورة الذاريات:٤٩). فهذا دليل من جهة كونه حكيما أي بوجود إله حكيم. (٣) والرحمة كما جاء كثيرا في القرآن. (٤) والعدل كما جاء أيضا كثيرا، ومنه يستدل على القيامة والنبوة. فإذا رأينا في العالم حسنا ورحمة عامة وتلاؤم أجزائه بعضها ببعض أيقنا بكونه مخلوقا لإله واحد حكيم رحيم. وذكر القرآن هذا الدليل مرارا، فمنها قوله تعالى في سورة

الحجر الآيات: (١٦-٢٢). ثم اثبت بذلك النبوة والقيامة من جهة ربوبيته.

والخلق نفسه دليل على كون الخالق، عليماً بكمال العلم وقادرا بكمال القدرة كما قال في سورة الزخرف:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ (الآية:٩). وكما قال: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ (سورةالملك:١٤). وكما قال:﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (سورة الأنعام:٩٦). ومثله قوله: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (سورة يس:٣٨). وملكه العام وعلمه التام لا يترك مجالا لإله غيره ومجيرا عليه، كما قال في سورة المؤمنون : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾(الآيتان:٩١-٩٢).

فاعلم أن (١) جريان أمور العالم من السماء إلى الأرض على حسب الحكمة، (٢) وقيامه بين اختلاف القوى الشديدة، (٣) ومساعدة طبائع الخلائق بعضها لبعض، (٤) وتوجهها إلى غرض ما لها به علم ولا عليه قدرة، (٥) ورجحانها إلى جهة الحكمة حين ليس في طباعها رجاحة إلى أحد من الطرفين.

لا يكون إلا بأمر مدبر حكيم وسعت قدرته وعلمه ورحمته كل شيء. والقرآن ذكر كثيرا من آيات في الآفاق دالة على وجود إله حق، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ

﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (سورة النمل:٨٨). أي إنك تحسب أن الجبال جامدة بنفسها، والأمر خلاف ذلك فإنها يوم القيامة تصير كالسراب بل تسير كالسحاب. فالحقيقة أن قيامها وإتقانها بصنع الله تعالى الذي أتقن كل شيء.

فإن صفات الأجسام من الصلابة والنعومة والحرارة والبرودة والحركة والسكون وغير ذلك، وهكذا صفات النفوس من العلم والقدرة والرغبة والنفرة وغيرها ليست من مادتها وإلا لتساويت فيها أفراد خلقت من مادة واحدة؛ ولما انقلبت من صفة إلى صفة ولم يتركب لها أجزاء مختلفة الهيئة والطباع. وبمثل ذلك جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ (فاطر:٤١).

الآيات النفسية على التوحيد

(١٧) وأما الآيات النفسية على الألوهية فاعلم أن للنفس جهتين: جهة العقل- النظر والعلم والقلب، وجهة الذوق واللذة. ولنا آيات على الألوهية من كلتيهما، وينبغي أن نذكرهما على حدتهما في بابين.

باب العقل والإدراك

اعلم أن النفس من جهة إدراكها وفهمها ونطقها (١) توقن بأنها ربة هيكلها ذات إرادة وحكم، فعلمها بوجودها وعلمها وإرادتها واختيارها أولى لا تشك ولا تحتاج إلى دليل في هذه كلها. (٢) ثم تعلم أنها واحدة ذات علم

وإرادة واختيار، فإن سلبت بعضها لم تكن نفسا بل كانت خلقا آخر. (٣) ثم علمت أنها صارت ذات علم وإرادة، فهي من حيث أنها نفس حادثة. فأما من حيث أنها كانت خلقا آخر عاريا عن العلم والإرادة كجوهر لطيف، فهل كان هذا الجوهر قديما أم حادثا؟ فلها برهان على حدوثه أيضا.

فإن العلم يتعلق أولا وبالذات بنفس العالم، فالنفس عالمة بذاتها أولا وبغيرها ثانيا. فلو كانت قديمة لم تضق ذرعها عن القدم الذي هو صفتها. ولكنها تحسر دون تصور القدم وتعجز عن دركه وتقصر عن غوره، فلا بد أن جوهرها الذي هي محيطة به حادثة.

فمن هذه الأصول الثلاث للنفس من ذاتها آيات: (١) على أن في العالم الكبير إلها مدبرا متصرفا. (٢) وعلى أن هذا الإله واحد وإلا لم يكن إلها بل فقيرا عاجزا حادثا. (٣) وعلى أن للنفس خالقا فهي ليست جزءا منه بل هو الذي خلقها وسواها وجعلها سميعا بصيرا. فتصرفها ووحدتها وعجزها آيات على ربها المتصرف الواحد القادر القديم.

باب الفؤاد

النفس ترى الكفران سوءا فلا يسعها التكبر والذهول عن الشكر بعد علمها بنعم الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ (سورة فاطر:٣). وكذلك الطبع لا يحتمل شريكا في الملك. وعلى هذا بناء أكثر أحوال البشر وقوام معاشهم.

ولذلك في التوراة كثيرا شبه المشركين بامرأة خانت مولاها، وشبه العبد الموحد الخالص بالابن. فالإنسان لا يحتمل أبوين ولا شريكا في عرسه. وبئسما فعل المبطلون إذ اتخذوا هذه الأمثال حقيقة خلاف المقصد، فقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه. فجاء القرآن بجلي الأمر وتجنب هذا النوع من المثل. فكل ما ترى في التوراة والإنجيل من استعمال الأب والابن مجازا، فذلك في القرآن عبر عنه بالرب والعبد والخليفة. والتفصيل في كتاب الأمثال. وههنا نكتفي بأمثلة الاستدلال ونبين وجوه الدلالة.

باب الصفات الإلهية

في بيان صفة إحاطته بجميع الأشياء

لا يكون العلم بشيء إلا باتصال العالم بالمعلوم. هكذا علمنا(١) من التجربة في اللمس والذوق والشم والسمع والرؤية كلها. (٢) ومن نفس حقيقة العلم. فإن المنفصل على سواء، فكيف يُعلم بعض ويُجهل بعض آخر بل لا تُصوَّر علما بالمفصول عن العالم.

وإنما قلنا اتصال العالم بالمعلوم، فإن الاتصال بين غير العالم والشيء لاينتج علماً، وهذا ظاهر. بل لا اتصال هناك. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾(سورة الحديد:٣). فعلمه بكل شيء دليل على كونه محيطا به زمانا فهو الأول والآخر، ومكانا فهو الظاهر والباطن. وهذه الإحاطة ليست كإحاطة الماديات والزمان والمكان الفارغين عن كل صفة غير القابلية المحضة للظرفية بل هو عليم. فهو تعالى محيط إحاطة

علمية من عالم بما يحيط، وهي الإحاطة في الحقيقة.

ويعبر عن هذا الاتصال بكلمة الإدراك تمييزا بين اتصال الماديات والعالِم. قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾(سورةالأنعام:١٠٣).اللطيف لنفوذ وجوده وإحاطته بكل شيء من جميع الجهات، والخبير لأن النفوذ المحض من غير العلم بعد شاسع.

ويعبر عن هذا المعنى بالشهادة. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٤﴾(سورة فصلت:٥٣-٥٤). فصرح بأنه شهيد على كل شيء غير بعيد غائب، فكيف الإنكار بلقائه و هو معهم. و معيته إحاطته من كل جانب داخل وخارج. ثم هو محيط بقدرته كما هو محيط بعلمه ووجوده.

سبب الجحد والكفر

(١) إن كان العلم الإلهي أشد ما يوقن به فمن أين هذا الجحود والكفر؟ فاعلم أنه ما من علم و حس إلا و شرطه سلامة قوة تدرك بها، ورفع الحجب. وصرح القرآن كثيرا بذلك، ثم بين أسباب الضلالة بحسب أن تطمئن بها العقول الراسخة. فههنا نكشف عن هذا البحث مقتبسين من كلام الله العزيز[1].

(٢) ذكر الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا

[1] بياض في الأصل.

عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (سورة يونس:٧٨). فأنكروا بمحض أنهم لم يرضوا ترك مشتهاهم. وكذلك ذكر عنهم: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة النمل:١٤). ثم فيه قلة التدبر، فرضوا بالتقليد. ثم فيه دناءة النفس.

سبب الجحد والكفر

(١) دناءة النفس تصرف عن الشكر، فيكفر بالرب ولا يرى على نفسه ذمة وشكرا.

(٢) حب الشهوات يصرف عن النظر في لزوم العدل والجزاء، فينكر بالنبوات. قال تعالى: ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ (سورة المطففين:١٢).

(٣) قلة الخشية تطلق عنان الهوى. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ (سورة النازعات:٤٠).

(٤) قلة التدبر تذهل عن الخشية فيطغى ويستكبر. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾ (العلق:٦-٨).

(٥) سقوط الهمة يقره ويمسكه على اللذات الفانية. ﴿ وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة النجم: ٢٩-٣٠). ﴿ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ (سورة محمد:١٢).

(٦) قلة الفكر تغفله عن الإيمان بالرب وتوحيده، وتعميه عن الدلائل الباهرة.

(٧) النعيم يورث كبراً وغفلة عن الآخرة ويفتح أبواب الشهوات

ويصم عن الملامة. ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾ (سورة العلق:٦-٨). ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ (سورة الإسراء:٨٣، فصلت:٥١). ﴿ مَتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ ﴿١٨﴾ ﴾ (سورة الفرقان:١٨).

تفسير قوله تعالى:

﴿الله نور السماوات والأرض﴾ الخ.

ضرب الله تعالى مثلا للإيمان والبصيرة كما قال: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴿٢٥﴾ ﴾ الخ. (سورة الزمر:٢٢-٢٥).

فنور من الرب هو الإيمان الذي يعطيه الله لمن صلح قلبه واستقام فهمه فخشي ربه واقشعر باستماع كلامه فرغب في ذكره. وضدهم من كان قاسيا قلبه فحرم نور الإيمان، فضل بما أن الله تعالى لم يعطه نورا منه. وظهر من ههنا أن الله تعالى يعطي هذا النور لمن استعد له، فاستعداده نور بالقوة. فإنه لو كان قسي القلب فطرة لكان كأعمى لا ينفعه ضوء.

فالخشية ولين القلب كنور البصر، والمعطي للنور ذو النور، كما أن

معطي العقل والقدرة والرحمة أهلها ووليها. والاستعداد التام يكاد أن يخرج من القوة إلى الفعل، فإن الله تعالى لا يمنع عطاءه.

التضرع جالب للرحمة

فإن التضرع جالب للرحمة، والاعتداء ضده. وإنما تعلق الرحمة بكل شيء أولا، لتجرد الأشياء عن كل استحقاق ولسعة الرحمة. فخلقهم. ثم إذا كانوا وأظهروا أعمالا باختيارهم استحقوا قربة أو بعدا. فالرحمة بالمتباعد أن يدعى، فإن أبى فليس من الرحمة سلب الاختيار عنه بل أذاقته مرارة البعد ليرجع. فإن أبى فليس من الرحمة أن يتركه سدى بل لابد من تطهيره بأي طريق شاء. ولا استبعاد في حرمانه عن الرحمة بالكلية. ثم ليس من الحق والصدق أن يجعل المحسن والمسيء سواء. فقوله: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (سورة الأعراف:٥٥). مبني على ربوبيته ورحمته وعدله وحكمته.

للحجج

آيات الفطرة الجامعة

الدينونة علة غائية وأفعال الحيوان صائرة إلى الغايات، وبذلك تتميز عن الجماد. العالم من هذه الجهة كالحيوان لكون أفعالها صائرة إلى غايات (لنا ولها أيضا) قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ من النبات، والحياة بعد الممات، ورزقنا فكأنها حية ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ ﴾ هذا أقرب إلى الفهم لكونه بديهيا ﴿ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ من المطر والرزق والعذاب. فكأن الأرض والنفوس والسماء هيكل حيوان واحد من جهة غاياته ومرافقة بعضه لبعض، ومع كون تسخير الجماد فيهما للنفوس يدل الجميع على رب واحد لهم ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾ أي الدين وهو تمام الغايات ﴿ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (سورة الذاريات:٢٠-٢٣). في النطق دلالات على الغاية، ووجود المتصرف في أقرب أمره أي الخيال، وترتيب أبسط شيء على نظام عجيب والكلام. فهل ترى كيف؟

[1]سازجا لو بقى ألف ألف سنة لم يكن كلاما فجعله كلاما. وهكذا الأمر في كل ما يصيّره إلى الغايات والنظام عاقل حي متصرف فيه.

ثم في النطق دلالات عديدة على وجود العاقل وتصرفه حسب مشيئته وإلى غاياته. وهذا أبلغ الأمثلة وأقربها وأعلاها في إثبات التدبير. في العبرانية التدبير هو الكلام. (قد بسطنا ذلك في تفسير سورة الذاريات).

[1] بياض في الأصل

من الآيات الفطرية

الأخلاق لابد من اليقين بإطلاقها، ولا إطلاق من غير أن تجعلها مبنية على الواحد الخير المطلق تأسيسها على فطرتنا. ولو عمت عند الجمهور لا يجعل الأخلاق حقا ثابتاً مستقلة بنفسها. فمن هذه الجهة للأخلاق نصل إلى الدليل على التوحيد ورحمته، وكذلك من الحسن إلى كونه تعالى حميداً. والحسن وجه من الرحمة وكذلك العدل.

الجزاء لا بد أن يكون بعد الموت

اعلم أن المجازاة من تمام حكمة الخلق والعدل والرحمة. وحكمة الخلق أن يبرز الآثار المنطوية في المؤثر، فإن الله تعالى إذا خلق شيئا لم يخلقه خاليا عما هو مغزه وعنصره. ولكن الآثار المودعة تظهر بالترتيب لتسلسل الآثار وترتب بعضها على بعض حسب حكمته، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٢٥﴾﴾ (سورة النمل:٢٥). فيخرج ما خبأه فيهما من الآثار وغيرها. وهذه المخبوآت لا بد من خروجها فإنها مخلوقات مطويات، فكأنها مواليد في بطون الحاملات فهي مثقلة بها.وينبهك على ذلك قوله تعالى في إتيان الساعة: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴿١٨٧﴾﴾ (الأعراف:١٨٧). وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (سورة الزلزلة:٢).

فإن صح ذلك فاعلم أن العقل يمتاز عن الحواس بهمه للحق الدائم

الباقي. فالغيب والمشهود عنده سواء لخلاف الحواس فإن همها الحاضر. وفطرة العقل وكمال نشأه أن ينظر بنوره ولا يتكل على الحواس فيؤثر الحق الباقي على الحاضر الفاني، ولا تغره زخارف الحواس. ولذلك لابد للإيمان من كونه مبنيا على العقل المؤمن بالغائب عن الحواس. فمن آمن بعد مشاهدة العذاب فإنما آمن من جهة الحواس، ولذلك إذا رفع العذاب كفر.

وهذا تكميل العقل هو تمام خلقه وسر فطرته وهو أشرف الخلائق، لكون صفة العلم وإرادة الخير أشرف من الجهل وإرادة الشر. فذلك مقصد الخلقة، ولذلك قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الملك:٢). ولابد لتربية العقل من انخلاعه عن أسر الحواس وفطامه من لذاتها باعتماده على مشاهدته الخاصة ونزوعه إلى رغبته الفطرية. وهذا لا يمكن لو كان الجزاء مشهوداً قريبا فلذلك أخفاه الله تعالى. وجعله بعد الموت الذي لا سبيل للحواس إلى العلم بما ورائه.

ودلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ (فان الشفاعة بغير إذنه يناقض التربية والقسط كما هو مبسوط في موضعه) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ (سورة يونس:٣-٤)

فقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ دل على أنه لا بد من الموت والبعث بعده للجزاء بالقسط. وفرق بين جزاء الخير وعاقبة السوء. فلم يقل ليجزي الذين كفروا

تنبيها على أن المقصود هـو الأول. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ (ذكر دلائل للعقل ليشاهد أن الحق هو المقصود من الخلق) إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة يونس:٥-٦).

كما أن ضياء الشمس ونور القمر وتقدير منازلهما وبناء السنين والحساب يعلّم العقل بكون الخلق للحكمة، فكذلك توالي الأضداد وذهاب الشيء وإيابه وكل ما يرى من المخلوق بأنواعها المختلفة ينبه العقل على انقلاب الأمور على حسب الحكمة. فحينئذ تفتح عينه للمجازاة، فيتقي الله وعواقب الأعمال. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (سورة آل عمران:١٩٠-١٩١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ (هذا ذكر استيلاء الحواس على العقل. فمن فرط الجهالة لا يرجوا لقاء الرب، ومن سقوط الهمة اطمأن بالدني، ومن ذهاب الحس بالعدل وتمام غروره بالمشهود غفل عن الآيات الظاهرة المتوالية المتكاثرة) أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ (رتب الأثر على أعمالهم تنبيها على اللزوم بينهما كما سبق) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ (ههنا نسب الهداية إلى ربهم لتعلم الفرق الذي ذكرنا، وأيضا نبه على أن الإيمان يستزيد الهداية حتى تبلغه الجنة كما تفهم مما يتبعه) تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ (قف وتأمل في هذا الحذف الذي وصل الهداية بالجنة) دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (يونس:٧-١٠).

هذا قولهم ﴿ سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ هتاف بالشكر والحمد لما وجدوا الغيب الذي آمنوا به، ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ لما خلصهم الله عن الابتلاء حين ظهور الباطل وكمون الحق و ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لتمام النعمة واعترافهم بأن ذلك من فضله ورحمته، كما فصل هذه المعاني في آيات أخر ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ (أي ليس من رحمة الله أن يأتي بالجزاء السيء لأعمالهم كما يستعجلون إنكاراً وخروجا عن الشبهة لجهلهم بعاقبة ما يطلبون) فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ (أي فلا بد أن نتركهم في ترفهم وطغيانهم لا يهتدون) وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا (أي في المرض والسفر والحرب، والله أعلم) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ (أي راقت الشهوات هؤلاء فسريعا يغفلون عما ينبههم) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ

ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ (قوله: ﴿ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ ﴾ أي لم يكن مطمع في إيمانهم فأهلكهم الله. وهكذا إذا خلا قوم من كل خير أبيد كما ينبذ الهشيم في النار. فدل على كون الخلق لحكمة وغاية) ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾. (سورة يونس:١١-١٤). ﴿ لِنَنظُرَ ﴾ أي ليبرز عنكم حتى يرى. فهذا تدبير الله في خلقه وإبراز كل ما فيه إمكان الخير.

(القسط الثاني في المعاد وفيه فصول)

(في الكلام الكلي على المعاد)

(١٨) أما الاحتجاج على المعاد فالأصل في هذا الباب هو العدل والحق بمعنى الغاية والعقل. فإن المخلوق من دون العدل ظلم وشر أخلاقي، ومن دون الحق عبث وحماقة، ومن دون العقل محال (نفصل هذه الأدلة ونذكر الدلائل على كلها. وكذلك نذكر الأصول في كل قسط ليسهل على الناظر فهمها إن شاء الله تعالى).

فربما يثبته وربما ينفى الشبهات عنه. أما الإثبات فماكان بصفات الله. فهو ١-بخلقه، ٢-وقدرته، ٣-وعلمه، ٤-وعدله، ٥-وحكمته، ٦-وولايته، ٧-ورحمته.

(١) أما الخلق فيثبت منه العلم بداهة، كما قال: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة الملك:١٤). و قال: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس:٧٩)

وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ (سورة يس:٨١). وهذا من قسم القضايا التي دليلها معها (ومن العلم يثبت المعاد كما ستعلم).

(٢) وكذلك يثبت من الخلق القدرة وهي تبطل الإنكار بالبعث. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (سورة النمل:٨٨). أي لا يمكن الإتقان إلا بعد العلم التام. ثم بعد هذا الدليل الكلي نبه على أنه عليم بأفعالكم فكيف لا يجازيكم.

وهكذا قوله تعالى في إثبات المعاد: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (الملك:١٩) فتأمل.

(١) أما العلم فبأنه يعلم السر والعلانية من أفعال العباد فكيف يتركهم بعد العلم بهم. وفي هذا الدليل ربما لا يذكر عدله وهو منوى لأنه بعيد عنه أن يجعل المحسن والمسيء سواء.

(٢) وأما العدل فبأن العادل كيف يرضى بالظلم.

(٣) وأما الحكمة فبأن الله خلق كل شيء بالحق والحكمة فيبتلي العباد، ثم بعد الابتلاء لا بد من المجازاة ومصير الأمور إلى غاية.

(٤) وأما الولاية وهي التوحد بالملك فبأن التصرف المطلق له، فلا بد للعباد من المصير إليه وإلا لكان الموت فوتا وانما يتوفاهم الله ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة الحديد:٥). ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴾ (النساء:١٢٦). فإن لم يصيروا إليه لم يكن محيطا. وفي سورة التين ﴿ فَمَا

يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ (أي الجزاء) أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (الآيتان:٧-٨). فلو تركهم سواء كان من سوء الحكم أو ضدا للحكم،وهو أحكم الحاكمين.

ومثله قوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾(سورة القلم:٣٥-٣٦). أي هذا بعيد عند حكمكم فكيف بمن هو أحكم وأعدل حكما. قال في سورة ص: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (الآيتان:٢٧-٢٨).

(٥) أما الرحمة فبأن الإمهال بالجزاء لرحمته ليتوب من يتوب ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:١٢).

والآن نذكر بعض الشواهد الجامعة على ما قلنا. في سورة الحجر: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾(الآيات:٢٣-٢٥). فاستدل على الحشر بالقدرة والولاية والحكمة والعلم.

(٢) وفي هذه السورة ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ (الآيتان:٨٥-٨٦). استدل على الساعة بخلقه الأشياء بالحق والغاية، وبكونه خالقا فيحييهم وعليما فيجازيهم.

وهكذا قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا

تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾(سورة المؤمنون:١١٥). وقوله في سورة الدخان: ٣٤-٤٠.

ومثل ذلك ما جاء في سورة النبأ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ (الآيات:٢٧-٣٠). ومثله في آخر سورة حم السجدة: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾(سورة فصلت:٥٤). أي إنهم يزعمون بأنه بعيد عنهم لا يبالي بهم، فقال إنه محيط بكل شيء بعلمه وقدرته.

(٣) وفي سورة الانشقاق: ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ (أي لن يرجع إلى الرب للجزاء) بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الآيتان:١٤-١٥). فاستدل بعلمه على الجزاء.

(٤) وفي سورة الجاثية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(الآيتان:٢١-٢٢). استدل بالعدل والحكمة في الخلق.

(٥) وفي سورة الزخرف: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ

وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الآيات:٩-١٤). فانظر كيف استدل بنعمه المتظاهرة وتصرفه المطلق بأنه الرب وإليه المنقلب.

(٦) وفي سورة التغابن: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الآيات:٢-٥). استدل على الجزاء بأنه تعالى خلقنا ويعلم أعمالنا، وأنه خلق جميع العالم بالحق. ثم قرن بهذه الدلائل اللمية دليلا آفاقيا من وقائع الجزاء.

(٧) وفي سورة هود جاء بدلائل أربع فقال: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ (فهذا أول دليل وهو من القدرة المطلقة) أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ (هذا هو الدليل الثاني من علمه التام، فكيف لا يجازيهم وهو القادر المطلق، فهل يرضى بالظلم. وفي هذه الجملة آية نفسية من خوفهم الفطري الذي دل عليه استخفائهم. وبيانه الفصل...) وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ (هذا هو الدليل الثالث من كونه تعالى رازقا مطلقا، فكيف يتركهم سدى ولم يرزقهم ويربيهم. والرزق العام يستلزم علما بالتفصيل ومعرفة حالاتهم، ومن دونه يكون الرزق بالجور. فالرزق يثبت العلم والربوبية

والعدل، فيدل على يوم الجزاء من وجوه ثلاث) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (هذا هو الدليل الرابع من حكمة الابتلاء الذي يثبت المعاد، فإنه تعالى لو لم يرد الابتلاء لم يخلق، فهو حكيم لا يخلق عبثا. والخلق نفسه الابتلاء، أي إبراز ما استكن في عالم الإمكان. والعدل أن يقرن المناسبين ويزوج الأعمال بالجزاء. فبعد هذه الدلائل ذكر إنكارهم بالبعث إظهارا لحماقتهم، فقال) وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ (الآيات:٤-٧). وبعد هذا ذكر أسباب إنكارهم من كبرهم وقلة صبرهم وغفلتهم، ولا يخفى على القارئ بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

(الآيات الآفاقية على المعاد)

(١٩) وأما الآيات الآفاقية على المعاد فهي نوعان: الأول ما لا يزال يجري من سنة الله تعالى في العالم عموما. والنوع الثاني ما وقع من الحوادث التاريخية التي تدل على دينونة الرب تعالى. أما الأول فقسمان: القسم الأول هو المثبت. والقسم الثاني هو المبطل شبهاتهم.

أما القسم الأول فيدل من أربعة وجوه: الوجه الأول من جهة الغاية، فإنه تعالى لا يفعل إلا لحكمة وغاية. فخلق الإنسان من غير جزاء لأعمالهم خلاف لرعاية الحكمة.

والثاني من جهة الرحمة، فإنه تعالى إن لم يرض الصالحين ولم ينعم

عليهم كان خلاف الرحمة.

والثالث من جهة العدل، فإنه إن لم ينتقم من الظالمين كان خلاف عدله.

والرابع قدوسيته الكاملة مع إحاطة علمه وقدرته وملكه. فلو رضي بالسيئات و لم يجازها لم يكن له هذه الصفات.

وأما القسم الثاني من مبطلات شبهاتهم[1].

فهذه الأدلة ممزوجة بعضها مع بعض، وإنما ذكرنا أنواعها ليكون لك تمهيداً للتدبر فيها فتعلم وجه الاستدلال. والآن نورد الأمثلة مع توضيح يسير.

فمنها ما قال تعالى في سورة يونس ٢٣-٢٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

فاستدل على القيامة بما يقع من أمره على زهرة الدنيا بغتة فيرون أنها تحت قدرة رب قادر يعطي ويسلب. فكذلك يجري أمره على الدنيا بأسرها، يطويها كما نشرها ويعيدها كما بدأها ليحق الحق ويبطل الباطل. وصرح

[1] بياض في الأصل.

بأنه تعالى فصل هذه الدلائل للذين يتفكرون فيؤمنون بالقيامة، وقال في سورة يونس ٣-١٤.

ومنها ما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾(سورة الرعد:٢). فأستشهد بما أرانا من دلائل تدبير الرب المتصرف في خلقه على ثلاثة أمور:

(٦) على وجود خالق منعم.

(٧) وعلى وجود حكمة ومصالح في خلقه.

(٨) وعلى كون ذلك إلى أجل معين، فإن كل شيء يجري لمصالح لا بد له من وقت يُتم به مصالح ما خلق.

ثم استدل من هذا على رجوع الخلق إلى ربه، فذلك يوم اللقاء فيوقن الإنسان به. وصرح في الآية بأنه تعالى فصل هذه الآيات لكي توقنوا بلقاء ربكم. ومنها ما قال في سورة النمل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الآيات:٦٧-٦٩). فبين لهم ما أوقع الله على الأمم من الجزاء مثل عاد و ثمود وقوم نوح ولوط. وعلمت العرب هذه الأمور و كانوا يمرون على مساكنهم وقراهم المهلكة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾(فأخبرهم عن حكمه ودينونته يوم القيامة

ونبههم على ذلك بقوله) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (السجدة: ٢٥-٢٧).

ولا يخفى عليك ما في هذا النظم من ذكر السمع، فالرؤية، فالإبصار على ترتيب ما ذكر من الأمور التاريخية ثم من الواقعة التي بين أيديهم ثم من الجارية على أنفسهم، فتأمل.

وهكذا بعد ذكر إهلاك المفسدين من قوم نوح ولوط وإهلاك عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (سورة العنكبوت:٤٣-٤٤). فإنهم أيقنوا بأن الله تعالى لا يرضى بالفساد ويجازي المجرمين حسب أعمالهم فآمنوا بالقيامة والجزاء الوافي لما رأوا دلائل كون العالم مجرى على الحق والقسط.

ومثل ذلك ما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا (أي جميع العالم) إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى (ذكر الأجل المسمى لدفع شبهتهم على تأخير يوم الجزاء) وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (من الظالمين الأقوياء كما صرح فقال) كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا

بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ (سورة الروم:٨-١١) وفي سورة الروم آية أخرى مثل ذلك. وسورة ق تجمع كل قسم من الدلائل على البعث (انظر تفسيرها) وهذا النمط كثير في القرآن.

وكذلك في سورة مريم (٦٦-٦٧): ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾. فهذا الاستدلال ليس للإثبات وإنما للإبطال. فإنهم استبعدوا البعث بعد الموت، فذكرهم أنهم خلقوا ولم يكونوا شيئا. فخلقهم بعد ما صاروا شيئا يكون أهون، فلا استبعاد.

بالنفس اللوامة

﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (سورة الذاريات:٢٣). قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم:٣٥-٣٦). أي عند عقولكم هذا بعيد جدا فكيف تحكمون بذلك لله تعالى. ومثله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ (سورة الجاثية:٢١) أي ما أسوء حكمهم.

(٨) إثبات المعاد من اليقين بالبر

وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ (سورة الشمس:٧-١٠). إيقاننا بالبر والفجور هو حكمنا بكون أمر حسنا أو قبيحا عند الحق، وذلك يستلزم الفلاح أو الخسران.

كما أنا نوقن بالبر فكذلك نوقن بأنه محبوب وأن له إنعاما وتحسينا، ونوقن بأن البر مستحسن عند كل بار. وأيقنا أن الرب بر فلابد أن يستحسن البر. فهذا بناء التحسين، وأما بناء الإنعام فلأن الرب إذا استحسن شيئا أنعم على فاعله وشكر له عمله، ولأن لكل عمل أثرا. والبر حسن فلا بد له من أثر حسن. ومن هذا اليقين أيقنا بأن لليوم غداً.

(الآيات النفسية على المعاد)

(٢٠) والآيات النفسية على القيامة فما ألهمنا من ضرورة العدل (أولاً)، وجزاء الأعمال (ثانيا)، وإحساس الذمة في أعمالنا (ثالثاً)، والاستحسان والاستكراه لأعمالنا (رابعاً). فنهتز بالعمل الحسن ونلوم أنفسنا على ارتكاب السيء.

(القسط الثالث في الرسالة)

(٢١) أما إثبات الرسالة بصفات الله وآياته في الآفاق والأنفس فجاء كثيرا في القرآن. وربما تجد ذكر هذه الدلائل معا، فمنها ما جاء في سورة الطلاق بعد ذكر الأحكام وهي المراد بالنبوة وأمر الرب على عباده، فقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ (الواو للبيان) فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا (أي في الدنيا والآخرة) فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ (أي كل ما يجري بينهما من الليل والنهار، والقحط والمطر، والبأس والأمن) لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ (الآيات:٨-١٢).

أي أن الله تعالى خلق السماوات والأرض ونزل بينهن ما أراد من التدبير فيجري بينهن، فكذلك نزل أمره في النفوس فأنزل الذكر وأرسل به الرسل. فإن قدرته وعلمه وربوبيته محيطة. فكما أن "السماوات والأرض كانتا رتقا" ففتقها بالمطر والضياء، فكذلك النفوس كانت رتقا ففتقها بصيب ذكره ونور كتابه، فأنبتها وأثمرها وباركها. وهذه الأمثلة جاءت في التوراة والإنجيل والقرآن والحديث (انظر كتاب الأمثال الإلهية). فكما رزق الخلق حسب أعمالهم وقواهم فإنهم كلهم عاملون دائبين في طلبه، فكذلك يرزق

العاملين الصالحات رزقا حسنا أبديا.

فانظر كيف بدأ بذكر الآيات الآفاقية على صحة الرسالة وكونها من الله تعالى، فذكرهم ما علموه من إهلاك الأمم العاتية التي عصوا ربهم ولم يطيعوا رسله الذين جاؤا بأمره. ثم خاطب أولى الألباب فألقى عليهم الطرف الغامض من أمره في النفوس بما أودعها من التذكر والإيمان والصلاح ليخرجهم من الظلمات إلى النور بناء على ربوبيته العامة التي ظهرت في الآفاق. فلما بلغ هذا المقام نبهه على صفات الله من القدرة والعلم على الإطلاق. وساق هذا الكلام إلى اثبات النبوة وعبر عنها بالتقوى، فإنها هي الداعية إلى التطهر من الرجس الجسماني والخروج من الظلمة إلى النور.

والحاصل أنه تعالى رب رءوف بعباده. فكما أنه رزقهم من السماء والأرض فكذلك يرزقهم بالوحي ونور أودع ألبابهم. كما قال في سورة يونس(٣١-٣٧): ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

فبين أن الله تعالى هو المدبر والهادي للحق فهو جدير بالاتباع، فلا تتبعوا الظنون بل ما هو الحق، والقرآن لا يعلمكم إلا الحق المبين. وكونه حقا دليل على كونه من الله تعالى. فعليكم بالحق الواضح ونبذ الظن لكون الله حقا وهاديا للحق فلا يكون الحق إلا منه. فالإنكار بالحق إنكار بالله وصفته الهداية للحق وتدبيره في الخلق وربوبيته للسماء والأرض وعلمه بكم، فكيف لا يهديكم وهو يرزقكم كما قال: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾(سورة فاطر:٣١) قوله: ﴿ بِعِبَادِهِۦ ﴾ مثل قوله فيما مر آنفا ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. أي كيف لا يهديهم وهو ربهم وهم عباده ويعلم ما لهم من الحاجة والاستعداد، فكيف يتركهم من بعد ما أعدهم للهدى.

فالإنكار بالرسالة إنكار بالله تعالى، كما قال في سورة الأنعام: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴿٩١﴾ ﴾ (الآية:٩١). فإنهم بذلك كفروا بأكبر نعمه على الإنسان ببعثه من بينهم رسولا إليهم ثم هم بذلك أنكروا بصفة رحمته وعدله وقضائه. ومن هذه الجهة تتحد دلائل المعاد مع دلائل الرسالة، ولذلك قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الآية:٩٢).

فالإيمان بالآخرة والمحافظة على الصلاة والإيمان بكتاب الله كالجداول من منبع واحد، وهو الإيمان بالله والتبتل إليه والانتظار ليوم الرجعى والخوف

لأهواله. وفهم هذا النظم البليغ موكول إلى فهم موضع الصلاة ونسبتها بالمعاد. وتفصيله في كتاب أصول الشرائع، وتفسير سورة الماعون، والكوثر وغيرها.

تذكرة

إنزال الهداية والنصرة للصالحين من لوازم الربوبية والولايـة، فقـال تعالى: ﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴿١٩٦﴾ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴿١٩٧﴾﴾ (الأعراف:١٩٦-١٩٧).

اعلم أن الإيمان بالنبوة والوحي ليس إلا الإيمان بما يقبله العقل ويطمئن به القلب، ولذلك جاء الوحي بالدلائل. فلا نقول كما تقول النـصارى أنهـم لا رجاء لهم للمغفرة لذنب فطري. فاحتاجوا إلى شفيع حمل ذنبهم فصار كفـارة لهم، وأن أمور الله لا يقبلها العقل فيؤمنون بها كالأعمى. وإنما آمنوا بخبر رأوه ذا معجزات فآمنوا به ثم بما أخبر. فبناء عقيدتهم على أمر مفروض حولوه علـى قصة آدم وأضافوا إليه أمراً من عند أنفسهم، وهو كون الناس مـذنبين بوراثـة الذنب؛ وعلى المعجزة. وهذان الركنان لا يتمسك بهما إلا مقلد ولكل مـشرك وثني أن يقول بمثل ذلك.

وأما الإيمان بالنبوة عندنا فمبني على أصول عقلية راسخة كما بينـاه في الفصل(١٢)"مثل الإيمان بالألوهية"

(الآيات الآفاقية على النبوة)

(٢٢) ١- كل ما ذكر من البركات على المؤمنين والنقمات على المكذبين، ٢-وكل ما وقع بعد زمان بعيد حسب نبوتهم، ٣-وكل ما دل على صحة تعليمهم وعلو تربيتهم ومحاسن خلقهم مع كونهم أبعد الناس عن العلوم المكتسبة رعاة الغنم وسكان البدو أو القرى الصغيرة حتى أن أعظمهم تمدنا أصغرهم نبوة، فهذه شهادات في الآفاق على صدقهم. والقرآن والكتب المقدسة يذكر هذه الأمور دلائل على كونهم مرسلين كما أنها دلائل على ما جاؤا به فإن صدقهم هو صدق نبوتهم.

(الآيات النفسية على النبوة)

(٢٣) قد علمت في أول باب النبوة أن الإيمان بها مبني على الإيمان بصفات الله. فالدلائل على النبوة كلها مأخوذة منها.

النفوس مجبولة على ١-التمدن، ٢-والتقدم فتطلب فطرة تفاصيل أحكام بها يتم حسن التعامل. ٣-ثم هي موقنة بالخير والشر وحب العدل، فمؤمنة بالمعاد. ٤-ثم هي مولهة إلى ربها فتشوق إلى السلوك في منازل قربه. ٥-وتحس بفقرها إلى مرب مرشد معصوم لتطمئن به.

والآراء المختلفة لا تعطي الاطمينان الضروري في السلوك الروحاني ولا تطفئ عطش العدل التام الضروري في إيمانها برب رحيم هاد عادل. والمذبذب لا يعرج إلى منازل القرب الذي هو غاية الاتصال، فالشاك بعيد،

وأقرب إلى الكفر وعدم المحبة.

ومن هنا علمت الفرق بين تدبير الدنيا وتدبير الآخرة، فإن تدبير الدنيا مظنون كمثلها. وأما الآخرة فلا تغني في تدبيرها الظنون، ولذلك "الارتياب كفر"

ع در مذهب طريقت خامي نشان كفر است.

من الآيات النفسية على الألوهية والنبوة

إن سرحت النظر في أودية النفوس الإنسانية وجريان فطرتها هتفت قائلا: "ما أعجب هذه الأرض المخصبة المتهيئة للبذر" لما تراها مشتاقة لتربيتها الروحانية مولهة إلى العبادة تسجد لكل عجيب وتعبد كل رائع كالوليد يمسك مهما يجد فيضعه في فمه كأن كل شيء لبان أمه. فليس الإنسان كسائر الحيوان يسعى للأكل والشراب ولما يحتاج إليه جسمه فقط، بل همه أعلى ومطلوبه أرفع، جسمه أرضي ولكن عقله سماوي وقلبه عرشي. بجسمه يدأب في الأرض، ولكن عقله يسمو إلى السماوات العلى. وروحه يجوع ويعطش لما هو فوق كل ذلك.

وإلى هذا أشار ما جاء في القرآن من أنهم أقروا بربوبيته أجمعين، وأن التوحيد دين فطرتهم، ثم تراهم مشركين. أليس ذلك دليل قاطع على ضرورة المرشد الذي يربي بذر العبودية وينفي عنه التبن والحشيش. فهو كالرضيع لهذا الطفل ومظهر رحمة ربه الرحيم الكريم. وقدأشار إليه فيما روى الإمام البخاري في جامعه.

(١) قد بين القرآن انقسام الأدلة إلى الأنفسية والآفاقية والصفاتية المبنية على معنى الأسماء الحسنى. وهذا أصل معلوم مسلم. وعلى هذا الأصل يذكر هذه الأقسام ويركبها ويفهم ما في هذا الاستدلال من القوة وحسن التركيب من النظر في ذكر بعض الأدلة مع بعض تقديما وتأخيرا. وربما يخفى على غير أهل النظر كونها أدلة، فلا يهتدي إلى حسن النظم بل محض وجود النظم.

وهذا تمهيد وإجمال، وتمام الفهم يكون من النظر في الأمثلة:

في سورة الم السجدة استدل على المعاد والمجازاة والعدل والحكمة والرحمة بالدلائل الأنفسية والآفاقية. وركبُ هذه مع الشهادة التأريخية، فركب آية في الخلق مع آية في الأمر، وخاطب كلا جانبي النفس أي السمع والبصر. فجعل كل ذلك في فطرة النفس، فكأنه لم يخاطب إلا فطرته التي لا مجال للإنسان ورائها.

وتقدم النظرية على السمعية كثيرة، فمنها ما في سورة الشمس وسورة الفجر وسورة الطارق. وتقدم السمعية على النظرية في سورة الطور.

وربما يكتفي بإحداهما، وربما تركب السمعية مع الصفاتية كما ترى في سورة التين. ومن الصفاتية ما هي أفعالية، فهي داخلة أيضا في المشهودة سواء كانت أنفسية أو آفاقية كما ترى في سورة البلد.

وربما تمتد السمعية إلى النظرية، والماضية إلى المستقبلة، والأولى إلى الآخرة كما ترى في سورة البلد وسورة الإنسان. وهذا النمط في الأفعالية

أمس بقبول العقل لتعوده به.

تذكرة

الدليل المنطقي إذا علم وصفه بشيء وقد علم لازما لهذه الصفة، فينقل اللازم إلى الشيء، مثلا علم صفة تغير بالعالم. وقد علم أن الحدوث يلزم التغير، فينقل الحدوث إلى العالم. ولا فرق إن علم صفة الشيء قبل علم لازمها.

والدليل الأصلي ينبه علما فيك، مثلا ترى الظلم فتحكم بقبحه. وترى الحكمة فتحكم أنها حكمة. وترى الخير فتقول إنه خير. ترى الديار الخالية فتذكر الأحبة بأيامها بنوئها وأحجارها، فتهتاج العاطفة فيك.

فمن لم يكن في قلبه هوى لم يتوله، ومن لم يكن في لبه تقوى لم يتأله كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (سورة يوسف:١٠٥). وإنما سميتها أصليا لأن المنطقي لابد أن يرجع إليه.

للاحتجاج

(١) العلم الحقيقي علم الروح (النفس المكلفة) بما يلزمه إحساسه.
﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف:١٧٩). فإذا لم يبلغ الروح العلم و لم يحس الروح فجميع الحس خلا عن فائدته. وهذا هو المسمى بالغفلة.

(٢) إذا أحس الروح أحس بالشكر وبالمنعم.

(٣) فلنا حس مستقل غير هذه الحاسات.

(٤) كما أن لنا حسا عقليا يحس أن لكل حادث سببا، والعقل آلة الإثبات والنفي، ولا إرادة له، فتستعمله النفس فيما تشاء. لكن العقل الذكي ربما يرى نورا عاليا، فينتبه له الروح فيشتاق إليه.

(٥) فإن الحاسات متصلة بعضها ببعض ومادة لأعلاها، فالحواس الظاهرة مادة للعقل، فالعقل يعمل على ما أحضرن له. والعقل مادة للروح فيعمل على ما أحضر العقل له. والحس الجسماني مادة للشهوات.

(٦) الحكم بحسن الشيء وقبحه حكم النفس التي هي تمام الإنسان. فالمريد هو النفس.

(٧) الحكم بحسن الخير أيضا حكم من النُفس لما رأت لذة الروح به.

(٨) النفس تعلم علما ضروريا بمدارج الروح والعقل والحواس، وعلما نظريا لعلمها ضرورةً بأن اللذة الباقية خير من الفانية. وشهادة العقل الحاكم بالمقادير، فترى أن الباقي أكثر من الفاني.

لو غاب أو نام الفاعل تعالى لبدا لنا هل يبقى العمل أو يطل. فكلا الأمرين ممكن:

(١) خلق بأمره قوى عاملة وعقولا مدبرة في حيطة أعمالها وملهمة مأمورة بتدابير خاصة.

(٢) قوى زائلة متجددة وعقولا فانية متجددة. كما ترى نور الشمس فإن غابت الشمس غابت أشعتها.

الأول أظهر عند العامة والثاني عند الخاصة، بأن أصل الفيض جار وروح الروح يحييه باتصاله بالفيض المستمر من الرب تعالى.

كيف توقن بأن زيدا مثلا ذو عقل؟ بعمله. كيف دلالة عمله على عقله؟ بتخصص علة لمعلول فيربطهما. ولا يربطهما إلا علم وإرادة. وأول الأدلة نطقه وجوابه.

فإن كان تخصيص علة لمعلول دليلا على وجود العقل فما لك تشك في وجود العاقل المدبر في الكون.

إغماض العين عن دلائل العقل والاكتفاء بما ينفعك لشهواتك الحاضرة حمق ظاهر ودناءة بينة. فالحر العاقل لا يزال يتبع عقله ولا يرضى بالدون.

(قال الأستاذ الإمام بعد التقسيم الجذري والفطري والبديهي والنظري):

فإذا هو بالجذري الذي هو مبدأ علمه. هذا الأمر بمثال أبلغ من ذلك، وهو مثل المصباح الذي ضربه الله لنور العلم حسب طبقاته الأربع، فذكر أربعة أشياء على ترتيب الظهور، وإني أذكر ذلك على ترتيب الوجود، فنقول:

الأول هو الزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار. وهذا هو المركز الذي سميناه الجذري.

والثاني هو المصباح، وهو نفس الشعلة المضيئة اللامعة المحفوف بالزجاجة التي تلمع نورا. وهو أول دائرة موج العلم الذي سميناه الفطري.

والثالث هو الزجاجة. التي استضاء بنور تلك الشعلة، فلانرى من البعد إلا هذه الزجاجة وهذا هو الدائرة الثانية للعلم الذي يسمونه البديهي، وهو في الظهور مثل الكوكب الدري.

والرابع هو المشكوة التي لا تشتبه على أحد أنها إنما اكتسبت النور من المصباح، وليست بنيرة لذاتها. وهذا هو دائرة العلوم المكتسبة بالفكر والنظر.

وهذا النور وإن كان في الفطرة وبه يُعلم كل شيء، ولكن لا يهتدي إليه إلا من هداه الله فقال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿٣٥﴾﴾(سورة النور:٣٥).

وهذا يبين أن الذي لا يؤمن بل ينكر بلسانه إنما لم يطلع على النور الجذري وهو ينتفع به، كمن ينتفع بنعم كثيرة مع الكفران. ونبين ذلك في فصل مستقل.

مشكوة، زجاجة، مصباح، زيت. زيتونة

(جريان نور الإيمان من القلب إلى أعماله)

التسبيح والذكر والصلاة والزكاة.

١- التسبيح تنزيه، والنظر فيه إلى الذات.

٢- والذكر يكون بالأسماء والصفات، ففيه مجال للعقل.

٣- والصلاة ذكر الرب، وفيها النظر إلى الرب.

٤- والزكاة ذكر الرب، وفيها نظر إلى المخلوق.

فنور التسبيح في الذكر، ونور الذكر في الصلاة، ونور الصلاة في الزكاة.

قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾ (النور:٣٦-٣٧).

فوائد و معارف

(آيات الله)

-آيات الله في الآفاق تدل على الإله الحق وصفاته من وجوه سبعة ....ص ١٤٨.

(الاستدلال الفطري)

-مبني على اليقين بما لا سبيل إلى إنكاره، وذلك بأن الإنسان مجبول على تسليم ما غرز في طبعه. ص٧٢ .

-الحجج الفطرية مبنية على المبادئ الحاكمة على النفوس وأن التسليم لها ليست بالاختيار حتى ينكر به منكر، وإنما هو مضطر إلى الإيقان بها بحكم فطرته التي ليست باختياره. ص٧٢.

-لما كان المقصود إتمام الحجة على كافة الناس أكثر القرآن من الحجج الفطرية التي بنيت على شهادة الفطرة الإنسانية. ص٧٢.

-أجد في القرآن أصولا للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين. ص ٢١.

-القرآن جعل بناء الحجة على اليقين الضروري الفطري الذي لا يسع العقل أن يعصيه. وهو ينبوع جميع علومه وأعماله ونظره واستدلاله. وهو مودع في غور فطرة النفس مكنون كاللب وراء القشور والروح وراء المستور. ص ٩٣.

(ابن سينا)

-دع عنك ما تكلم به ابن سينا في تفسير سورة الإخلاص، فإنه رجل لم يمسه نور القرآن لتغلغله في فلسفة البطلان. ص ١٥٨.

(ابن تيمية)

-ردّ على المنطقيين ردا طويلا ودل على زيغ المتكلمين، ولكنه اقتنع بالهدم و لم يبن قصرا يأوون إليه. ص ٢١.

(ابن مسكويه والطوسي)

-وأمثالهما مجاهرون بتقليد اليونان في الأخلاقيات. ص ٢١.

(الإلهام)

-نوقن بنوع من الإلهام الذي أعطى للنفوس كما أعطى له جميع الحواس وقوى أخر. ص ٩٤.

-لليقين الفطري مجارى إلى المدركات وذلك إلهامات. لولاها لم يكن لنا علم ولا بداهة ولا نظر. ص ٩٣.

(الإيمان)

-الإيمان بالله تعالى حسبما يلزم مفهوم هذا الاسم وهو كونه على غاية الرحمة هو الأصل الذي بني عليه جميع العلوم. فمن حرم هذا الإيمان أظلم عليه السماء والأرض ..... فبهذا الإيمان يحصل العلم ويصلح العمل، فإن العمل الصالح متفرع على العلم الحق. ص ١٥٩.

-إيماننا بالله الواحد وتصديقنا بالأنبياء إنما هو لأجل أنا أحببنا العلم

الحق، و لم نجد إليه سبيلا إلا بهذا الإيمان. ص ١٢١.

(الإيمان بالغيب)

-رسوخ العقل، فيستدل من المشهود على الغيب ويوقن به. ص ١٩٣.

-إبطال ما فهموه من الإيمان بالغيب ومن بنائه على محض المعجزات دون الآيات البينات المشهودة في الأنفس والآفاق المنشورة في تمام القرآن المستعملة خاصة لدعوة الناس من طريق الحكمة والاستدلال دون التقليد ومحض الاعتقاد . ص ٢٠.

(الباطنية)

- مذهبهم الجمع بين حكمة الإسلام والفسفة، ولذلك اضطروا إلى نبذ صريح النصوص وتحريف الكلم عن مواضعه. ص ١٥٨.

(تأويل الآيات)

تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ إبراهيم : ٢٤ ص١٢٤-١٢٥.

تفسير قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٢٦٩﴾ ﴾ البقرة : ٢٦٩ ص ١٢٦.

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الأنعام : ١٠٣ ص ١٣٤-١٣٥،٢٦٥.

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ الأنعام : ١٨. ص ١٣٥.

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ ﴾ المدثر: ٣ ص ١٣٥-١٣٦.

تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴿١٣٤﴾ ﴾ النساء: ١٣٤ ص ١٣٦.

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴿٥﴾ ﴾ الحج: ٥ ص ١٣٦.

تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴿٢٦﴾ ﴾ (ص: ٢٦) ص١٣٧-١٣٨.

تفسير قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الروم: ٣٠ ص ١٨١.

تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٣٥﴾ ﴾ النور: ٣٥ ص ١٦٢-٢٦٨،١٦٣.

تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحديد: ٣ ص ٢٦٤-٢٦٥.

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴿٩٥﴾ ﴾ الأنعام: ٩٥ ص ٢٢٣.

تفسير قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ الذاريات: ٢٣ ص٢٤١-٢٦٩،٢٤٢.

(التصادم والتناقص)

-طور من أطوار الوجود، فإن المتضادين كالزوجين، فالأرض والسماء، والمرض والشفاء، والظلمة والنور، والظل والحرور، والشك

والعلم، والحرب والسلم، والموت والحياة بل هذا العالم بأسره والعالم الأخروي كل ذلك مثل الزوجين. ص ١١٦.

(التضاد)

-هو الباعث على بروز القوى الكامنة كما أن النار والبرق والصوت بل كل حركة بل كل علم وشعور وتمييز بناؤه على وجود الضدين. ص ١١٦-١١٧.

(التقليد)

-لو كان الإيمان جائزا بمحض التقليد لكان الوثنيون معذورين. ص ٢١١.

(الحكمة)

-مرادنا بالحكمة هي معرفة العلم الفطري الذي يهدي إلى السعادة الأبدية والعمل به. ص ٢٢٦.

-فالحكمة عبارة عن (الف) أصول العلم الثابتة التي عليها بناء جميع العلوم. (ب) أصول العمل التي عليها بناء الأعمال الصالحة كلها. (ج) القوة التي بها يعرف الحق من الباطل والحسن من السيّء. (د) الكلمات المتضمنة لأصول العلم والعمل، ومن ههنا سمى القرآن "الحكمة". ص ١٢٣-١٢٤.

(الخير والشر)

-الشر مقدمة وتوطئة للخير كما أن كوكب الصبح طليعة الفجر. ص ١١٦.

(الدين والأخلاق)

-الديانة ليست محض الاعتقاد بل جلها الأخلاق ..... فإن الدين الحق مداره على إحساس البر والإثم. ص ٥٩.

(الدين والفطرة)

-إن القرآن صرح كثيرا بأن دين الله هو الفطرة والإنسان مسئول حسبما أودع فطرته، فيناديه من جانب فطرته ويخاطب من مركز وجوده. ص ٧٩.

(الربوبية)

-علم الربوبية أول المعارف ورأسها، وأصل العلوم وأساسها، ومشكاة الحكمة ونبراسها، ومقياس الحجة وقسطاسها... فهو مركز العلوم ومحيطها، فمنه البداية وإليه النهاية. ص ١٤٥.

مفهوم الرب يتضمن الرحمة والحكمة والتوحيد في كمال القدرة والعلم ..... ص١١٣.

(العرب ولسانهم)

-العرب كانوا في أعلى درجة الذكاء لاسيما في بلاغة الكلام وإيجاز الخطاب، بل قد بني لسانهم على ذلك، ولذلك كانوا مولعين بجوامع الكلم والخطاب المحكم .... فأنزل الله تعالى القرآن على أسلوب كلامهم كما أنزل على أفصح لسانهم. ص ٢٦-٢٧.

(العقل)

-بناؤه على التمييز بين الأشياء والحكم بالحق والباطل، والحسن

والقبيح على ما ألقى إليه من الخارج. فليس في مفهوم العقل الابتداء وإبداع الموضوع بل الحكم عليه. ص ١٢٠.

-الإنسان بفطرته يهتدي بالعقل وإليه يطمئن وبه يحتج على من خالفه. ومنه يأتيه العلوم كلها إما بالبداهة أو بالنظر والاستدلال. ص ١٧٤.

-العقل المحض إذا لم يمده القلب السليم يتقلب بالظنون وينسلك مع الشهوات، ومن ههنا كل حزب بما لديهم فرحون. ص ٢٣٦.

(العقل والفؤاد)

-النفس ما سويت ولا استكملت بمحض العقل وإدراكه بل بما هو فوقه وهو الفؤاد الذي هو مصدر الحكم والإرادة والأمر والنهي. ص ٥٨.

-أوليات العقل مبنية على أوليات القلب. ص ٥٩.

(الغزالي)

-بين تهافت ما في إلهيات اليونانيين ولكنه هو الذي أدخل منطقهم في الإسلام ..... ص ٢٠-٢١.

-مع حميته للحق وحمايته للصدق اتخذ المنطق على علاته معيارا للعلم ومحكا للنظر. ثم لم يكتف بذلك بل ادعى إنه أخذه من القرآن، وإنما أخذه من اليونان. ص ٢٢.

-أحسّ بداء الشك المطلق الذي أوقعه فيه النظر المنطقي.... ص ٨٣.

-أقبل بشرح الصدر من علوم اليونان على ما ظنه غير مخالف للإسلام

وكذلك على آراء الباطنية.... وهذا سبب خطئه في كثير من تأويل القرآن. ص ١٥٧-١٥٨.

(الفارابي)

-مع إيمانه بالنبوات يزعم أن الوحي إنما جاءت بالإقناعيات وأن البراهين الحقيقية إنما هي مع الفلاسفة. ص ٢٣-٢٥

المراجع المذكورة في الحواشي

- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، تحقيق محمد علي الهاشمي، المملكة السعودية العربية. ١٤٠١ هـ/١٩٨١م.
- ديوان لبيد ابن ربيعة بشرح الطوسي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. ١٤١٤هـ.
- الفوز الكبير في أصول التفسير، للإمام ولي الله الدهلوي، دار السنة، لكنائو، الهند. الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢م.
- كتاب المجموع من مؤلفات أبي النصر الفارابي، لأبي نصر الفارابي. الطبعة الأولى، المطبعة السعادة، مصر ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.
- محك النظر في المنطق للإمام أبي حامد الغزالي. الطبعة الأولى، المطبعة العربية، مصر.
- مشكاة الأنوار، للإمام الغزالي. مطبعة صدقي مصر ١٣٢٢هـ.
- معجم المؤلفين، لعمر رضا الكحالة. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٩٥٧م.
- مفردات القران، للإمام الفراهي، تحقيق الدكتور محمد أجمل الإصلاحي. دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، لعبد الحي الحسني. دار عرفات، الهند ١٤٨٢هـ.

ENGLISH

- John Locke by Richard I. Aarron. 2nd Edition, Oxford, Clarendon Press, London, 1955.
- John Locke by J.D.Mobatte, Macmillan Press Ltd; London 1973.
- The Philosophy of Descartes by A. Boyce Gibson, Methuen & Co. Ltd; London 1932 (First Edition).
- Leaders of Philosophy-Descartes- by S.V. Keeling, Ernest Bfnn, Ltd; London, 1934.

فهرس مطالب الكتاب